

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الجزائر

كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ - بوزريعة-

الجزائر والجامعة الإسلامية

1924-1876

مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ المعاصر

إعداد الطالب:

أحمد دراوي

بإشراف الدكتور:

مولود عويـر

الجزائر والجامعة الإسلامية 1876-1924

﴿ مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ المعاصر ﴾

إعداد الطالب:

أحمد دراوي

لجنة المناقشة:

- 1- الأستاذ الدكتور: أبو القاسم سعد الله.....رئيسا.
- 2- الدكتور: مولود عويمرمقررا.
- 3- الأستاذ الدكتور: شاوش حبّاسي.....عضوا.
- 4- الدكتور: عبد المجيد عدّة.....عضوا.

مقدمة:

ظلت الجزائر طوال فترة الإحتلال الفرنسي، ساحة للصراع بين فكرتين مختلفتين، الفكرة الإسلامية الأصيلة، التي اصطبغت بها الشخصية الجزائرية منذ الفتح الإسلامي، وتبلورت بمرور الزمن وتعاقب الأجيال، والفكرة الغربية الاستعمارية، متجسدة في المشروع الفرنسي الدخيل، الذي ينطلق من ادعاءات واهية، تغذيها ضغائن وأحقاد تاريخية وعنصرية، وتزيكها الإطماع المادية. وقد قامت السياسة الفرنسية في الجزائر، بعد إلحاقها إداريًا في سنة 1834م. على محاولة تحقيق الإدماج، وفي الوقت ذاته دأبت على طمس معالم الشخصية الوطنية، في أبعادها العربية الإسلامية. كما عملت على قطع كل أوشاج الاتصال وأشكال التواصل مع الشرق الإسلامي، وبالأخص مع دار الخلافة الإسلامية بتركيا.

لقد فشلت جميع محاولات الطمس والإدماج، التي تبنتها الإدارة الفرنسية منذ سنة 1830م، وبالأخص في عهد الجمهورية الثالثة، التي أطلقت العنان لجشع المعمرين وتسلبهم أكثر من أي وقت مضى، وظل الإسلام في قلب المعركة الحضارية على الدوام، لحماية الكيان الوطني من الاندثار، كما استمرت خيوط الموادة والتواصل، قائمة وراسخة ومتينة بين الجزائر وبقية الأقطار الإسلامية - رغم البعد الجغرافي - أخذًا وعطاءً، تأثيرًا وتأثرًا، بالرغم مما اعترها من مكائد وعراقيل استعمارية لا حصر لها. مثلت حركة الجامعة الإسلامية - وهي إحدى المحاولات الرائدة لجمع شتات المسلمين في مواجهة الاستعمار في الفترة المعاصرة -، وسيلة من وسائل ذلك التواصل، وحقلًا للتضال في سبيل الكرامة والتحرر.

يستهدف هذا البحث، إبراز مدى عمق العلاقات بين الجزائريين والدولة العثمانية، والتي ترتبط لدى الكثيرين بالفترة الحديثة فقط، في حين أنّ ما ميّز تلك الصّلات والعلاقات في الفترة المعاصرة، من زخم وتفاعل، وبالأخص خلال الفترة محلّ البحث (1876-1924)، تكتسي أهمية بالغة في اعتقادنا، بفضل سياسة الجامعة الإسلامية، التي انتهجتها الدولة العثمانية في فترة من أعقد الفترات وأخطرها، برز فيها تعاطف الجزائريين وتفاعلهم مع أحداثها المتلاحقة بشكل جلي، من خلال مظاهر متعدّدة، فكانت تسرّهم انتصارات العثمانيين فيهللون لها، وتخزّنهم انتكاساتهم فيتألّمون لها، متجاهلين في بعض الأحيان حتى على آلامهم وأشجانهم التي لا تحصى.

أما الإشكاليات التي يطرحها البحث فهي :-ما مدى حضور الجامعة الإسلامية في الجزائر ؟
-وما هي مظاهر التّواصل معها ؟ وإلى أيّ مدى كان هناك تفاعل مع أفكارها ؟
-وكيف كانت ردود فعل السّطات الفرنسيّة إزاء نشاطاتها ودعايتها ؟
-وإلى أي حدّ ساهمت الجامعة الإسلاميّة في بلورة النّضال الوطني ؟

قسّمنا بحثنا إلى أربعة فصول ، تضمّن الفصل الأوّل، مفهوم الجامعة الإسلاميّة وتطوّرها خلال النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر، ومطلع القرن العشرين ، وهو فصل ممهّد للموضوع، استهدفنا منه حصر المفهوم، حيث حرصنا على التفرّيق بين المفهوم الفكري والفلسفي من جهة، وهو مفهوم واسع حدّد الشيخ جمال الدّين الأفغاني معلمه، باعتباره المنظر الفكري والرّعيم الروحي لهذا الاتّجاه ، ثم تشعب أكثر لدى أجيال المصلحين المتلاحقة . أما المفهوم السّياسي فيتجلى من خلال تبني الدّولة العثمانيّة للفكرة ، واتّخاذها جزءا من سياستها الخارجيّة في مواجهة الأطماع الأوربيّة المتزايدة في إطار المسألة الشرقيّة ، معوّلة على تضامن الشّعوب الإسلاميّة مع دار الخلافة واستمرّ ذلك حتى إلغاء الخلافة الإسلاميّة في سنة 1924 .

أمّا الفصل الثّاني، فقد خصّصناه للحديث عن صدى الجامعة الإسلاميّة في الجزائر ، حيث حاولنا إبراز مدى حضور واهتمام دعاة الجامعة الإسلاميّة بالجزائر، وبمحنة شعبها في ظلّ الغطرسة الاستعماريّة ، متتبعين مراحل ذلك الاهتمام، الذي بدأ محتشما، ليتخذ بعد ذلك صيغة رسميّة في عهد السّلطان عبد الحميد الثّاني، وحكومة الاتّحاديّين من بعده، ولا شك أنّ المهاجرين الجزائريّين في دار الخلافة وأقاليمها، قد لعبوا دورا بارزا في إيصال محاولة إيصال صوت الجزائر عبر وسائل متعدّدة، وقنوات شتّى، لعلّ أهمّها الصّحافة. كما حاولنا أيضا تبين مدى تفاعل الجزائريّين وتناغمهم مع أفكار الجامعة الإسلاميّة، قاصدين إبراز مظاهر ذلك التّفاعل، والذي تجاوز أحيانا مجرّد التعاطف ، إلى نشاطات فكريّة وسياسيّة، و بعض النّشاطات المسلّحة أو الانتفاضات الشعبيّة المحدودة هنا وهناك ، إضافة إلى نشاط سياسي حثيث ، تجلّى خاصة في خلال فترة الحرب العالميّة الأولى، وما تلاها من الأحداث .

أمّا الفصل الثّالث فقد خصّصناه لمدى تأثير حركة الجامعة الإسلاميّة في النّضال الوطني ، ومدى ارتباطه بالنّضال الوحدوي المغاربي أيضا، إذ أنّنا لاحظنا، أنّ تونس كانت محطة هامّة في الدّعاية للجامعة الإسلاميّة بمنطقة المغرب العربي ، الأمر الذي جعل منها قبلة للعديد من الجزائريّين التّاقمين على الاستعمار والموالين للجامعة الإسلاميّة، كما استهدفنا تسليط الضّوء، على دور العديد من رموز النّضال من الجزائريّين في الحركات الثّقافيّة والسياسيّة، التي عرفها العالم الإسلامي في أواخر القرن

التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، علما أنّها فترة حاسمة مثّلت إرهاصات للمرحلة اللاحقة من التّضال السياسي في الجزائر.

فيما تركّز اهتمامنا في الفصل الرّابع والأخير على ردود فعل السّلطات الاستعمارية تجاه دعاية الجامعة الإسلاميّة في الجزائر، وقد اتّخذ ردّ الفعل الفرنسي اتجاهين مختلفين في الوسيلة، متّفقين في الغاية، هما محاولات الاحتواء ، ومن أهمّ معالمها تبني سياسة دينيّة إسلامية مغرضة، والعمل على ضرب التّضامن الإسلامي، وإثارة التّعرات العرقيّة، مقابل جهود كبيرة للتّطويق والتنظيف، بالأخص خلال فترة الحرب العالميّة الأولى.

وقد رأينا ضرورة إلحاق بعض الملاحق لتغطّي بعض الجوانب وتبرزها للقارئ أكثر، وأنهبنا الموضوع بخاتمة، حاولنا أن نقدّم فيها عصارة البحث الذي أنجزناه ، ثمّ ثبت بقائمة للمصادر والمراجع المعتمدة. لقد حرصت كلّ الحرص على الإلمام بمختلف جوانب الموضوع، بناءً على الخطة التي وضعتها له ، وأعترف أنّ العمل كان مضنيا، لكنّه كان ممتعا أيضا، فكان يتأرجح بين مدّ جارف حيناً، وبين جزر وانحسار أحيانا أخرى. وكان العبء الأكبر يتمثّل في شحّ المادّة التاريخيّة وخاصّة الوثائقيّة من جهة ، ذلك أنّ معظم التّوثيق الذي يعالج الفترة متواجد بمراكز الأرشيف المختلفة وبالأخصّ الفرنسيّة، وهو ما لم يكن متيسّرا لي، لذا فقد ملأت الفراغ، بالبحث في ثنايا الكتب والمصادر والمذكرات، و مثّلت الصّحافة حيّزا هامّا من اهتمامي بالبحث، لأنها عبّرت عن المرحلة، وصوّرت تفاصيلها خاصّة. ومن جهة أخرى وجدنا صعوبة في بناء الوقائع، فرضته طبيعة الموضوع في حدّ ذاته ، ذلك أنّ فكرة الجامعة الإسلاميّة نفسها توسّعت وتشعبت في مفاهيمها بتقدّم السنين وتعاقب أجيال المصلحين، وتغيّر سلم الأولويّات بالنسبة لدعاتها تبعاً لتطوّر الأحداث المحليّة والعالميّة.

كما استهدفنا أيضا إبراز الآثار الجليّة والمساهمة الفعّالة للعديد من أبناء الجزائر البررة في مسار الأحداث التي عرفتها الأمة الإسلاميّة ، وفي بعض نشاطات الجامعة الإسلاميّة، ومما يمكن تسجيله بكل فخر أن الجزائريين -أو الذين هم من أصل جزائري بالأحرى- كانوا في طليعة التّضال من أجل الخلافة الإسلاميّة ووحدة الأمة الإسلاميّة عامّة، في مواجهة الاستعمار الغربي سواء في المشرق العربي أو المغرب العربي.

لا ادّعي أنني قد ألمت بكلّ جوانب الموضوع، لكن أرجو أن أكون قد ساهمت في وضع لبنة، في صرح البحث العلمي في مجال تاريخنا الوطني المعاصر، في قضية من قضاياها الهامة في تقديري، والتي تنطوي على أبعاد حضارية في غاية الأهمية، ولا يفوتني أن أتقدم بآيات الشكر والعرفان لأساتذتي الأجلاء، الذين لم يدّخروا جهداً في سبيل تكويننا وتوجيهنا، كما أشكر الأستاذ المشرف الدكتور مولود عويبر، على إشرافه على رسالتنا، وتوجيهاته القيّمة .

والله ولي التوفيق.

العبادية في : 17 ربيع الثاني 1427 هـ / 24 مارس 2008 م.

الفصل الأول

مدخل: العالم الإسلامي في مطلع العصور الحديثة

I- أوضاع العالم الإسلامي في النصف الثاني من القرن 19م ومطلع القرن العشرين.

1- الأوضاع السياسيّة.

2- الأوضاع الفكرية والحضارية.

3- الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية.

II- ظهور الجامعة الإسلاميّة وتطورها:

أ- ظهور الجامعة الإسلاميّة :

1- مفهومها.

2- الإطار الفكري والفلسفي للجامعة الإسلامية.

3- الجامعة الإسلاميّة كمشروع سياسي.

ب- تطورها:

1- الجامعة الإسلاميّة في منظور الجيل المؤسس لها.

- جمال الدين الأفغاني.

- الشيخ محمد عبده.

- الشيخ عبد الرحمن الكواكبي.

2- الجامعة الإسلاميّة في منظور الجيل الثاني.

- الشيخ محمد رشيد رضا.

- الأمير شبيب أرسلان.

III- الدولة العثمانيّة والجامعة الإسلاميّة :

1- في العهد الحميدي (1876-1908).

2- في عهد حكومة الاتحاديين.

3- إلغاء الخلافة وأثره.

IV- مال الجامعة الإسلاميّة .

مدخل :

العالم الإسلامي في مطلع العصور الحديثة

يمتد العالم الإسلامي في رقعة جغرافية واسعة في وسط العالم القديم، بين قاراته الثلاث، آسيا، إفريقيا، وأوربا، أي "من طنجة إلى جاكرتا، ومن غانة إلى فرغانة". وتعيش على هذه الرقعة الفسيحة شعوب كثيرة ومتباينة، في أجناسها ولغاتها وألوانها، يجمع بينها الإسلام وتوحيدها العقيدة. لقد ظلّ المسلمون ولقرون عديدة، يمثلون مركز ومحور التاريخ البشري، بفضل ما قدموه من خدمات جليلة للإنسانية، مما لا يتسع المجال لحصره، ولا مجال لإنكاره، بل ولا تزال آثارهم شاهدة على قوة العطاء في مجالات الحياة المختلفة، ومن حين لآخر تطلعتنا الدراسات والبحوث على كنوزها القيمة¹. ولما كان الحال في تاريخ الحضارات الإنسانية أو "العمران البشري" حسب تعبير المؤرخ العلامة ابن خلدون، هو مبدأ التداول، بمعنى نشوء الحضارات ثم ارتقاءها، ومن ثم أفولها وسقوطها²، ومن ثم تعاقبها على خط الزمن، وهو ما تؤكد بعض النظريات في مجال فلسفة التاريخ³. فقد أصاب العالم الإسلامي وشعوبه الانحطاط والتخلف الحضاري، الذي أفضى بهم إلى الخروج من حلبة التاريخ في العصور الحديثة. ويؤرخ العديد من المؤرخين لبداية انحطاط العالم الإسلامي، بسقوط الخلافة العباسية في بغداد على يد المغول سنة 1258م⁴. الأمر الذي أدى إلى تضعف مكانة الخلافة العباسية، و بروز ممالك وإمارات مستقلة، فعلياً لا اسمياً عن مركز الخلافة، أما بالنسبة للمغرب الإسلامي فبنهاية

1- على الرغم من تحامل العديد من المستشرقين على الإسلام وحضارته، فقد كان من بينهم منصفين أشادوا بالدور الريادي للحضارة الإسلامية، واثقوا على منجزاتها التي كانت جسراً رئيسياً عبرت به أوربا نحو عصور التنوير .

2 - مصطفى الشكعة: الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته، دار المصرية اللبنانية، ط2، 1988، ص 279 .

3- د. احمد محمود صبيحي: في فلسفة التاريخ، دار المعرفة الجامعية، ط3، 1995، ص ص 123-164.

4 - يعتبر الأستاذ مالك بن نبي من المفكرين البارزين الذين اهتموا بدراسة المسار الحضاري للعالم الإسلامي، وهو يعتقد أن بداية الضعف في مسار الحضارة الإسلامية، هو موقعة أو فتنة "صفين" التي وقعت في سنة 657م، بين أتباع الإمام على -كرم الله وجهه- ومعوية بن أبي سفيان-رضي الله عنه-حول مسألة أحقية الخلافة، ويرى أن ذلك يعد مؤشراً لتراجع تلك الدفعة الإيمانية لمجتمع الرسول-صلى الله عليه وسلم - وبالتالي تسليم مقاليد الأمور إلى قوة العقل عوض قوة الروح . انظر : مالك بن نبي : وجهة العالم

الإسلامي، دار الفكر، دمشق، ط5، 1986.

دولة الموحّدين، وانقسامها إلى ثلاث دويلات مستقلة وهشة تنخرها الصّراعات السّياسية والقبلية الضّيقة، (الزيّنية بالمغرب الأوسط، الحفصية بالمغرب الأدنى والمربّية بالمغرب الأقصى).

ولم يكن الأمر يختلف كثيرا بالنسبة لحالة العالم الإسلامي بإفريقيا وآسيا، حيث كانت تنتشر دول وممالك واسعة، لكنها على جانب كبير من الضّعف والانحلال. مثل دولة المغول في الهند (1526-1858م)، ومملكة الصفويين بفارس (1502-1736م)، ثم قيام الدولة العثمانيّة على أنقاض دولة السّلاجقة في آسيا الصّغرى، إضافة إلى إمارات وممالك إفريقيّة خاصّة في منطقة السّودان الغربي والشرقي على حدّ سواء. مثل مملكة أو إمبراطوريّة "برنو" في السّودان الأوسط.¹

ويجذب الأستاذ مالك بن نبي في بعض دراساته حول "مشكلات الحضارة"، إضفاء مصطلحات عصر ما بعد الموحّدين و مجتمع ما بعد الموحّدين، للتعبير على حالة الانحطاط والتقهقر التي ميزت العالم الإسلامي في مطلع العصور الحديثة. ورغم أن دولة الموحّدين شملت نطاقا جغرافيا محدودا نسبيا بالنسبة للعالم الإسلامي (منطقة المغرب الإسلامي والأندلس)، لكن كان ذلك قياسا على الحالة العامّة لبقيّة الأقاليم الإسلاميّة عبر آسيا وإفريقيا، وهو يبيّن في مواضع أخرى أن "إنسان ما بعد الموحّدين يحمل نفس الصّفات، ويسلك نفس السّلك على محور طنجة-جاكرتا"².

ولا أدلّ على ذلك من ظهور مفارقات تاريخية تستدعي الوقوف والتأمّل عندها كثيرا، ففي الوقت الذي كانت قوّات السلطان "محمد الفاتح" الغازي، تدكّ أبواب بيزنطة، معلنة نهاية الإمبراطوريّة البيزنطيّة في عام 1453م، و فاسحة المجال أمام الوجود الإسلامي في قلب أوروبا وعلى تخومها، يسجّل التاريخ في المقابل نكسة المسلمين بالأندلس، بنهاية مجدهم، وضياع فردوسهم هناك، لتندفع الممالك الأوربيّة المسيحيّة في حروب صليبيّة جديدة في حوض المتوسط، كانت من أهم نتائجها

1- البرنو، (بضم الباء) هي منطقة جغرافية واسعة في السّودان الأوسط، حدودها شمالا الصحراء، وغربا بلاد الهوسنة، جنوبا أدموه، شرقا تشاد، سكانها من السّودان والعرب والبربر. شهدت قيام مملكة واسعة. انظر: أحمد محمد كاتي، الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ط1، 1987.

2- مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق، 1986، ص34.

المأساوية ما عرف بمحنة المورسكيين.¹ بعد أن تنكّرت اسبانيا لبنود معاهدة التسليم ، حيث لجأت إلى تخيير المسلمين بين اعتناق المسيحية أو مغادرة البلاد ، ودعمت مراسيم التنصير بمحاكم التفتيش.²

غير أنّ تفسير ذلك لا يحتاج جهدا كبيرا ، إذا سلّمنا أن العالم الإسلامي قد دخل في غيبوبة حضارية فعلا، وأنّ نشاط العثمانيين لم يكن يتمّ عن نهضة جديدة ومتكاملة للعالم الإسلامي ، بقدر ما كان يعبر عن ظهور قوة عسكرية جبّارة ومنظمة ذات أهداف محدودة، و لا أدلّ على ذلك من عجز العثمانيين على نصرة المورسكيين بالرغم من نداءاتهم المتكررة³ . ولو أنّ هناك بعض الدراسات أشارت إلى أن معاهدة سنة 1535م بين الملك الفرنسي فرانسوا الأول والسُلطان العثماني سليمان القانوني ، سمحت بإنقاذ العديد

منهم ، سواء بإقامتهم بفرنسا وخاصة في بلدة " لانجدوك " الحدودية، أو ترحيلهم إلى تركيا⁴ و الأستاذ مالك بن نبي كان يرى أن إشعاع الحضارة الإسلامية قد خفت فعلا بفقدان قوتها الإيمانية فيقول: " حتّى إذا وهنت الدّفعة القرآنية توقف العالم الإسلامي كما يتوقّف المحرّك عندما يستنزف آخر قطرة من الوقود ، لذا لم تستطع النّهضة التيمورية أو الإمبراطورية العثمانية ، كلاهما أن تمنحا العالم الإسلامي (حركة) لم يعد هو في ذاته يملك مصادرها.⁵

ومع ذلك فان ظهور الدولة العثمانية في ذلك الوقت العصيب ، وامتلاكها لتلك القوّة العسكرية الهائلة ، كان عاملا مهما في صيانة استقلال الأقاليم الإسلامية وجعلها بعيدا عن متناول الأطماع الاستعمارية لفترة طويلة من الزمن.⁶

ولا مندوحة من تكرار القول أن العالم الإسلامي، كان برمته تحت وطأة التخلف والانحطاط وقد أورد لنا مؤلف كتاب "حاضر العالم الإسلامي" السيد لوثرود ستودارد ، تعبيرا بليغا في وصف الحالة بقوله

1 - لوثرود ستودارد:حاضر العالم الإسلامي ، تعليق: شكيب ارسلان، ترجمة: عجاج نويهض، دار الفكر، ج2 ، ط3 ، 1971 ، ص 59-63.

2 -إيلي الصباغ:" ثورة مسلمي غرناطة عام 976هـ ، أواخر 1568 م والدولة العثمانية"، الأصالة (الجزائر)، عدد 27 ،1975، ص ص 116-175.

3 - المقال نفسه، ص 118-122.

4- Sadek Sellam: **La France et ses musulmans** ,ed:casbah, Alger , pp17-18.

5- بن نبي: نفس المرجع ، ص 31 .

6 - تختلف نظرة المؤرخين العرب، مشاركة ومغاربة حول تقييم الوجود العثماني بالعالم العربي والسياسة المنتهجة ، ففي حين نلمس الإشادة والتنويه بجهودهم في المغرب العربي ، نجد أن العديد من مؤرخي المشاركة، ينقمون على الوجود العثماني، وينعتونه بأسوأ الأوصاف، وينسبون له التخلف والانحطاط الذي حل بالعالم الإسلامي في العصر الحديث..

: "فقد بلغ من التضعف أعظم مبلغ وفي التدني والانحطاط أعظم دركة ، فإريد جوه ، وطبقت الظلمة كل صقع من أصقاعه " ¹.

بالمقابل كان العالم الغربي الأوربي يتحرك نحو النهضة والرقى بخطوات عملاقة، متجاوزا كل أسباب الضعف، واضعا حدا لعصور الانحطاط، محدثا قطيعة مع أساليبها وسلبياتها.

وقد كان للثورة الصناعية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، التي ارتكزت على قوة العلم والتقنية، أثرا بالغا في إحداث ذلك الانقلاب العظيم والانفجار الهائل، الذي غير العالم برمته وكرس هيمنة أوربا على العالم وعلى "الايكومين" ²، على حد تعبير المؤرخ البريطاني ارنولد توينبي (1889-1975)، بقوله: «إن ازدياد السيطرة البشرية في العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر، كان أصلا إنجازا بريطانيا محليا، لكن هذا الإنجاز البريطاني كان قد قلّد في أقطار غربية أخرى إلى 1871م. وهذا يسر للغرب كليا أن يتفوق مؤقتا على بقية الايكومين» ³.

لقد كانت الثورة الصناعية ثورة علمية وتقنية بالأساس، سرعان ما أثرت بعمق في جميع مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. فقد شهدت أوربا تحولا هائلا نحو تكريس الرأسمالية الصناعية، التي أنتجت مجتمعا ذو طابع تنافسي تملكي سريع الانقياد إلى قوة المال والسلطة والتفوذ، وهي قيم جديدة عمّت أوربا ومن لحق في ركبها، كأمريكا واليابان واصطبغت بها، وكان من أبرز نتائجها نمو النزعة الاستعمارية وعقدة الاستعلاء والتفوق، فبدأ العالم "يتأورب" طوعا أو كرها. قال الدكتور جمال حمدان: "فالانقلاب الصناعي تخّض عن الرأسمالية وخلق المجتمع البرجوازي الرأسمالي الذي هو في صميمه مجتمع تنافسي تملكي وتوسعي". ⁴ الأمر الذي أدى إلى احتدام التنافس الشرس بين مختلف القوى الأوربية، لامتلاك الأسواق ومناطق النفوذ والثروة، فكانت بلاد وثروات المسلمين هدفا لذلك التوسع.

1 - ستودارد : نفس المصدر ، ج 1 ، ص 259.

2 يفضل المؤرخ توينبي استخدام مصطلح الايكومين ، للتعبير عن المجال الحيوي الذي تحيا فيه البشرية . ويشمل الطبيعة أو البيئة ومختلف الموارد الاقتصادية التي مثلت البيت الآمن لها منذ آلاف السنين ، وتعرض منذ عصر الصناعة إلى التدمير نتيجة الإسراف في استخدام الطاقة للتصنيع والتسلح....

3 - ارنولد توينبي: تاريخ البشرية، ترجمة: د.نقولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ج 2، 1982، ص 243.

4- د.جمال حمدان : إستراتيجية الاستعمار والتحرير، دار الشروق، لبنان، ط1، 1983، ص 106.

و"منذ ذلك الحين، أصبح الشرق هدفا يرمي، وموضع نزاع القوى الأوربيّة العظمى، لافتكاكه من أهاليه واقتسامه في ما بينها.¹"

أما الثّورة الفرنسيّة التي ظهرت في أواخر القرن الثّامن عشر، أي في سنة (1789م). فقد كانت ثورة في مجال الفكر السّياسي، استلهمت أفكارها من نظريّات الفلاسفة، سعى قادتها إلى تنظيم الحياة السّياسيّة في فرنسا، بتكريس سلطة القانون، وإتاحة المجال لحكم الجماهير، والفصل بين مختلف السّلطات التّشريعيّة والقضائيّة والتنفيذيّة، وإشاعة الديمقراطيّة واحترام الحقوق الإنسانيّة، ورواج الأفكار القوميّة، وتكريس الدولة الوطنيّة.² رغم أن تلك المبادئ ظلّت حكرا على المواطن الأوربي، وحرّم منها ابن المستعمرات الذي ظلّ في نظرهم بدائيّ وهمجي غير قابل للتخصّص.

إن مظاهر التّجديد التي طرأت على ميادين الحياة المختلفة في أوروبا، سترخي بظلالها على العالم الإسلامي، الذي سيجد نفسه في صراع داخلي مرير لتجاوز تناقضاته الداخليّة، في ظلّ واقع اقتصادي واجتماعي متدهور و تجاوزه الزّمن، بحكم التغيّرات الهائلة التي رافقت النهضة الصناعيّة والعلميّة، وفي نفس الوقت العمل على تقفّي اثر تلك النهضة التي بدت في اللّحظات التاريخيّة التي مرت بها البلاد الإسلاميّة آنذاك -ولا تزال في الواقع- بصورة أو بأخرى أمرا لا مفرّ منه. ونعتقد أن الجدل كان يدور حول ماهية الإصلاح والنهضة، وكيف السبيل إليها، وحدود الاستفادة من حضارة الغرب، وكيفية توظيف الثقافة والتراث الإسلامي لتحقيق النهضة المأمولة؟ وهي كم من التساؤلات التي حاولنا الوقوف عندها في ثنايا موضوعنا حول الجامعة الإسلاميّة، وهذا في جزء منها على الأقل.

I-أوضاع العالم الإسلامي في النّصف الثّاني من القرن 19م ومطلع القرن العشرين: 1-الأوضاع السياسيّة:

مثّلت حملة نابليون بونابرت على مصر في الفترة بين (1798-1801م). محطة تاريخيّة هامة بالنسبة للأمة الإسلاميّة عامّة و البلاد العربيّة بشكل خاص، نظرا للنتائج التي تمخّضت عنها. ورغم وجود بعض المفكرين الذين ينساقون وراء فكرة تثنّين نتائج الحملة والإشادة بنتائجها³، لكنها في الوقت ذاته

1 - محمد الصالح المراكشي : تفكير رشيد رضا من خلال مجلة المنار(1898-1935) ، الدار التونسيّة للنشر وكلية الآداب والعلوم

الإنسانيّة -تونس. المؤسسة الوطنيّة للكتاب -الجزائر ، ط1 ، 1985 ، ص195.

2 - السير جون هامرتن: تاريخ العالم، مكتبة النهضة العربيّة، مصر، الجزء 7 ، ط3 ، 1973 ، ص 198 .

3 -تأثرت العديد من النخب المتقفّة بالوطن العربي بالحملة الفرنسيّة على مصر في أواخر القرن الثامن عشر ونتائجها ، وأشادت بها إلى حد اعتبارها من العوامل الرئيسيّة للنهضة العربيّة، على غرار الشيخ الطهطاوي(1804-1873) والواقع أن مرد ذلك التآثر

والإعجاب في اعتقادنا إنما يعود إلى النقمة على الأوضاع الداخليّة في شتى المجالات .

شكّلت سابقة خطيرة، ذلك أنها فتحت الباب على مصراعيه لتكريس السيطرة الأوربية على الأمة العربية والإسلامية، كما كشفت أيضا على بعض الحقائق الأليمة، كهشاشة التّظم القائمة، وضعف الجسم المناعي للأمة، وعدم قدرته على مواجهة الأخطار لضعف في الجبهة الداخلية في الأساس، والتي ستشكل إحدى الوسائل البارزة لتسهيل عملية التغلغل والاحتلال، ولكن في الوقت ذاته لحظة مساءلة مع الذات واكتشاف الآخرين، ومن ثم إجراء تشخيص لحالة الضعف التي سمحت للبعض بتشخيص مكامن الخلل، ومحاولة الوقوف على أسباب العلاج، على الرغم من أن ما ذهب إليه بعض المفكرين في تشخيصهم للأحوال لم يكن بريئا أو يفتقر إلى الموضوعية، حيث لجأ البعض إلى تجزئة الأسباب بحصرها في الوجود العثماني، الذي عبّر عنه العديد من المشاركة على أنه "استعمار ديني، ولولا القناع الديني لعدّ ماثلا للغزو المغولي الوثني، الذي سبقه ولوجه على هذا الأساس بكل تأكيد"¹. وقد كان للعصبية الجنسية والأفكار القومية والتأثيرات الخارجية، وراء تسويق تلك الأفكار وتكريسها سواء بهدف الإصلاح أو ربما بهدف المطالبة بالاستقلال.

و "بدا للعثمانيين أن أوروبا صارت على مرمى حجر من أقاليمها في البلاد العربية والبلقان، وان إمكاناتها وحدها لا تكفي للتصدي لها"². ويمثل سقوط الجزائر في يد الفرنسيين عام 1830، تأكيدا على الأمر والتخوّف³، وزاد الطّين بلّة حروب محمد علي باشا (1805-1849)، والي مصر، وابنه إبراهيم التوسعية على حساب ممتلكات الدولة العثمانية في الشام، والتي انتهت بإنهك قوى الطرفين، مع إحداث شرخ في جسم الخلافة الإسلامية بعد أن أقر مؤتمر "لندن" الحكم الذاتي لمصر في عام 1840. "كما أن عرب الجزيرة انتفضوا من ناحيتهم، وأعلنوا الخروج عن سيادة الدولة العثمانية، وبرز ذلك بالخصوص في انتشار الدعوة الوهابية بالجزيرة العربية تؤيدها قوة آل سعود"⁴ سارعت الدولة العثمانية في محاولة استدراك التأخر والعجز، بتدشين عهد الإصلاحات والتي عرفت باسم "التنظيمات العثمانية" وأهمها خط كالحانة في 1939م والخط الهمايوني في أعقاب حرب

1 - حمدان: نفس المرجع، ص46.

2 - عبد العزيز الدوري: تاريخ العرب المعاصر، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1973، ص40.

3 ظل الجزائريون أوفياء للدولة العثمانية، ومستمسكون برباطتها الدينية المتمثلة أساسا في الخلافة، ومن مظاهر ذلك تكرار طلباتهم للسلطان من أجل التدخل للتأييد والمناصرة، منها رسالة الحاج احمد باي إلى الصدر الأعظم في 1835. ورسالة أعيان قسنطينة إلى السلطان العثماني في عام 1835م، أيضا ورسالة الأمير عبد القادر إلى السلطان في نوفمبر عام 1841م. للمزيد، انظر:

جمال قنان: نصوص سياسية جزائرية في القرن التاسع عشر (1830-1914)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993.

4 - المراكشي: مرجع سابق، ص 105.

القرم ومؤتمر باريس في سنة 1856م. وأخيرا إصدار الدستور العثماني على يد أبي الأحرار الأتراك مدحت باشا في سنة 1876م.

ومضمون تلك الإصلاحات عامة، هو الإقرار بالحقوق الأساسية لمختلف سكان الإمبراطورية، بغض النظر عن جنسهم أو دينهم، وإدخال النظم الأوربية في مختلف أجزاء الدولة . لكن تلك الإصلاحات واجهت عقبات عدة حالت دون تحقيق غاياتها، وأهمها :
-تركز اهتمام الدولة على الجانب العسكري بسبب الضغوط الممارسة عليها خاصة في البلقان وتحديد التهديدات الروسية والتساوية .

-رغبة الدول الأوربية في توجيه الإصلاحات بما يخدم مصالحها وأغراضها الاستعمارية غير المباشرة من ذلك توظيف القروض لأغراض استهلاكية لا إنتاجية .
-إثارة القوى الأوربية للتعرات والمشاكل القومية والطائفية .

وقد ابرز السلطان العثماني عبد الحميد الثاني العراقي التي واجهت الإصلاحات بقوله:

«مطالب الدول الأوربية في الإصلاحات لا تكاد تنتهي، بالرغم من أنها لا تعرف شيئا عن البناء الاجتماعي لبلادنا، فإنها لا تتوانى عن تقديم التوصيات تلو التوصيات، يتصدر السفراء كراسيمهم في تصورها وكأنهم حكام البلاد. ليست لديهم فكرة عن التركيب الداخلي لمجتمعنا، ولا يعرفون ديننا ولا يفهمونه، ومع ذلك فهم دائبون على جعلنا نقبل نصائحهم .ومن حسن الحظ إنهم لا يتفقدون بينهم في الوسيلة ، لكنهم متفقدون في الهدف .غاية همهم من هذه الإصلاحات هو الخط من شاننا أمام امتنا، ورفع شان التصارى وإكبارهم .إنها دسياسة كبرى اختلقوها وسموها إصلاحا .خير لنا أن يتركونا وشأننا، فالإصلاحات التي يقترحونها ليست أمرا جديرا بالاهتمام . لو أننا تصرفنا بإرادتنا الخاصة لأصبحنا في تقدم مستمر، وان كان هذا التقدّم بطيئا»¹.

والحق أن الإمعان في الإذلال وسياسة الإملاء ووضع الشروط التعجيزية ،هي سياسة مقصودة تهدف إلى زعزعة الاستقرار وإتاحة الفرصة للتدخل.

كما أن تقدم الروس على الأطراف الشمالية والشرقية للدولة العثمانية، وبلوغهم مشارف الأستانة، وإجبار العثمانيين على تقديم تنازلات قاهرة ،بمقتضى معاهدة (سان ستيفانو)، عام 1877، وتلكؤ بريطانيا في التدخل بشكل حاسم في الأمر، بين أنها تسير في طريق تمزيق الدولة العثمانية، واتضح ذلك جليا في نتائج مؤتمر " برلين " الأول في سنة 1878م ،عندما سارت في اتجاه طرد العثمانيين من البلقان، تماشيا مع الأماني القومية للشعوب البلقانية (الصرب والبلغار)، ومصالح روسيا والنمسا في المنطقة.

1 - نوار: مرجع سابق ، ص 45.

كل هذه الهزائم والتكبات دفعت بالسلطان عبد الحميد الثاني إلى تعطيل العمل بالدستور، والاستئثار بالسلطة المطلقة، معتقداً أن الحكم الفردي سيكون في مصلحة الدولة، وقد اهتدى إلى وسيلة ناجعة استخدمها لتثبيت حكمه ومواجهة خصومه في الداخل، خاصة على الدستوريين، ونفويت الفرصة على الأوربيين، وهي تبني فكرة الجامعة الإسلامية كما سنرى.

والحق، ليست فكرة الجامعة الإسلامية من ابتداع السلطان عبد الحميد الثاني، وإنما هي دعوة كرس جمال الدين الأفغاني نفسه لها. تهدف إلى قيام حكم إسلامي دستوري،¹ يحكم المسلمين، غير أن السلطان العثماني فهمها في اتجاه تعزيز سلطته الواهنة، ومواجهة التفوذ الأجنبي المتزايد على تمزيق الدولة وتقسيمها، أو ما اصطلح عليه، بالمسالة الشرقية، والتي دخلت فصلها الأخير، بالإمعان في إذلال المسلمين واحتلال بلدانهم، وتجسد فعلياً في احتلال بريطانيا لقبرص عام 1878، ثم استيلاء فرنسا على تونس في سنة 1881، واحتلال بريطانيا لمصر في 1882م، لم تجدي معها إصلاحات خير الدين باشا الرائدة في تونس (1853-1877)، ولا مناهضة الوطنيّين بزعامة أحمد عرابي في مصر. وتبين لكل ذي لب، أن الجبهة الداخلية أصابها الوهن، وان تمكن الأوربيين إنما ناتج أساساً من تواطؤ بني جلدتهم أكثر مما هو في نفوق الأوربيين ودسائسهم. ويمكن أن نعبر عنها بالقابلية للاستعمار على حد تعبير مالك بن نبي.²

وهو تفسير لا يخلو من الدقة في اعتقادنا فقد كان من بين المسلمين في مختلف الأقطار من لم يتورّعوا على إغراق أوطانهم في كم هائل من المعضلات الاقتصادية والسياسية، كما كان الحال في تونس، بتصرفات باياتها ومؤامرات وزراءها، الذين ناصبوا العداء للوطنيّين المخلصين، وقدموا فروض الولاء للأجانب بالمجان.

حتى غدت الشعوب العربية والمسلمة كقطيع غنم يرعاه رعاة خائنين، ويتربص به أعداؤه من كل جانب، وقد استفاض العديد من الكتاب والمؤرخين في وصف حالة الاستبداد والقهر، التي ميزت الحكم العثماني في البلاد العربية.

وتعتبر كتابات الشيخ عبد الرحمن الكواكبي نموذجاً لذلك، ومما قاله في كتابه الشهير طبائع الاستبداد قوله "المستبد يتحكم في شؤون الناس بإرادته لا بإرادتهم ويحكمهم بهواه لا بشريعتهم، ويعلم من نفسه أنه الغاصب المعتدي فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من الناس، يسدّها عن النطق بالحق والتداعي

1 - نفس المرجع، ص 47.

2-يفضل المفكر مالك بن نبي إضفاء تعبير القابلية للاستعمار للتعبير، على حالة الوهن والضعف التي أصابت الأمة الإسلامية خلال عصور الانحطاط، انطلاقاً من التفسير الحضاري لأسباب تخلف المسلمين وتراجع دورهم في الحضارة الإنسانية، وهو منهج تميز به الأستاذ مالك بن نبي في تحليل قضايا الحضارة، ينطلق في ذلك بإلقاء مسؤولية التخلف على العوامل الداخلية انطلاقاً من مقاربة قرآنية، من خلال الآية الكريمة في سورة الرعد: "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"

لمطالبته".¹ إلى أن يقول في موضع آخر مبرزاً العلاقة بين الاستبداد والعلم: "ما أشبه المستبد في نسبه إلى رعيته بالوصي الخائن القوي في أموال الأيتام وأنفسهم، كما يهوى ما داموا ضعافاً قاصرين. فكما أنه ليس من مصلحة الوصي، أن يبلغ الأيتام رشدهم، كذلك ليس من غرض المستبد أن تنور الرعيّة بالعلم".²

وهكذا ففي الوقت الذي تتطّلع فيه الأمة الإسلامية إلى التّقدم، و تسعى التّخب للإصلاح، تتخاذل الحكومات، وتتبرم الطّرق الصّوفية، ويعمّ الجدل العقيم، الذي كان أحياناً مفتعلاً سواء في مسائل الدّين أو الدنيا.

لا يكاد الباحثون والدارسون للفترة المعاصرة بالعالم العربي والإسلامي، يختلفون في كون الاستبداد والقهر الممارس من طرف الإدارة العثمانية في مختلف الأقاليم، كانت وراء حالة الإحباط واليأس في نفوس مختلف القوميات، التي كانت تشكل رعايا السّلطنة.

ولم يتوانى بعض المفكرين في المطالبة بنزع لقب الخلافة من العثمانيين³، وإرجاعها إلى أصحابها الشرعيين، أي إلى عرب قريش كما هو الحال بالنسبة للشيخ عبد الرّحمان الكواكبي ونجيب عازوري، وفي أحسن الأحوال، دعوا إلى تطبيق اللاّ مركزية في الحكم، كما هو الحال بالنسبة لعرب الشام، لذا فقد ساند العديد من القوميّين العرب، حزب اللاّ مركزية وانخرطوا فيه، وكان لنفوذ الإرساليّات التّبشيرية المسيحيّة اثر كبير في هذا الشّأن.

راهن السّلطان عبد الحميد الثّاني على تشتت القوى الأوربيّة، وتوظيف خلافاتها أقصى ما يمكن في سياسته الرّامية لإطالة عمر الدّولة والخلافة الواهنة، فربط علاقات متينة مع ألمانيا الطّموحة إلى نيل حصتها مما تبقي من التّركة الاستعماريّة، التي استحوذت عليها غرّيماتها فرنسا وبريطانيا قبل ذلك.

فمنحت ألمانيا امتيازات اقتصاديّة وإستراتيجيّة مغربيّة، لعل أهمها امتياز مشروع سكة حديد برلين - بغداد، بتاريخ 25 ديسمبر 1899م، بعد زيارة الإمبراطور الألماني "غليوم الثّاني" للأستانة في سنة

1 - عبد الرحمان الكواكبي: طبائع الاستبداد، موفم للنشر، الجزائر، 1988، ص14.

2- نفس المصدر، ص 41.

3 - شكل موضوع أحقية العثمانيين بالخلافة من عدمه، جدلاً واسعاً، بالموازاة مع نمو الوعي الفكري لدى بعض النخب العربيّة، وإذا كان موقف المصلحين والعلماء بصورة عامة، هو اعترافهم بأحقية آل عثمان بالخلافة، مستندين إلى بعض النصوص من القرآن والسنة، منها حديث النبي (ص) الذي جاء فيه: "من ولي من أمر المسلمين شيئاً، فولى رجلاً وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه، فقد خان الله ورسوله وخان المؤمنون" (رواه الحاكم في صحيحه). وكذا ضرورات المرحلة وجمع الكلمة ورد الأعداء، فان فريقاً آخر رأى غير ذلك مستنداً إلى حديث النبي (ص) الذي يقول: «إنما الخلافة في قريش» للتوسع أكثر انظر: محمد رشيد رضا: **الخلافة**، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1994. أبو الأعلى المودودي، **الخلافة والملك**، ت: احمد عزت، شركة الشهاب، الجزائر، 1988.

1898م. غير أنّ الظروف الدوليّة التي صاحبت اندلاع الحرب العالميّة الأولى، وعرقلة بريطانيا للمشروع، حال دون انجازه.¹

غير أنّ الأمور بدأت تخرج عن نطاق التحكّم والسيطرة بالنسبة للسلطان عبد الحميد الثاني شيئاً فشيئاً، بتعاظم المعارضة لحكمه، بل حتى الذين كانوا يؤيدونه من المصلحين فعلوا ذلك على مضض لحماية الخلافة، لأنه واجب شرعي بالنسبة إليهم، ولحماية المسلمين وجامعتهم الإسلاميّة ومنهم الشيخ رشيد رضا.²

2- الاوضاع الفكرية والحضارية:

أن إحدى أكبر المصائب التي أبتليت بها الأمة الإسلاميّة في العصور الحديثة، فساد عقيدتها، وضعف أخلاقها، وابتعادها عن الدين. وقد أوجز ذلك السيد "لوثرور ستودارد" المستشرق الأمريكي بأسلوب بليغ فقال « أما الدين فقد غشيتته غاشية سوداء ، فألبست الوحدايّة التي علمها صاحب الرّسالة الناس سجفاً من الخرافات وقشور الصّوفيّة وخلت المساجد من أرباب الصّلوات وكثر عديد الأذعياء والجهلاء، وطوائف الفقراء والمساكين يخرجون من مكان إلى مكان، يحملون في أعناقهم التّأم والتعاويد والسبحات، ويوهمون التّاس بالباطل والشّهات، ويرغبونهم في الحجّ إلى قبور الأولياء، ويزينون للتّاس التماس الشفاعة من دفناء القبور».³

والواقع أنّ هناك محاولات عدّة، استهدفت تشخيص عوامل تخلف المسلمين في عصور الانحطاط، ومعظم تلك المحاولات ربطت بين التخلف الحضاري والتخلف الديني، فجعلت من ضعف عقيدة المسلمين وسوء أخلاقهم، وإبعاد الدين عن الحياة، و سوء فهمه و توظيفه، أساساً لذلك التخلف الحاصل. وقد انبرى العديد من المصلحين، على تأكيد ذلك الطّرح استناداً إلى النّصوص الدينيّة في حدّ ذاتها، فطفقوا يجتهدون في كشف مكامن الخلل، واقتراح الحلول المناسبة.

يعتبر الشيخ محمد بن عبد الوهّاب (1703-1791)، من أوائل المصلحين الذين كرسوا أنفسهم لخدمة الإسلام، وإصلاح أحوال المسلمين في العصور الحديثة. وقد عرف أتباعه بالوهّابيين و بالموحدّين ايضاً. استهدف الشيخ محمد بن عبد الوهّاب في حركته إصلاح عقيدة المسلمين وتنقيتها مما علق بها من الشّوائب خلال عصور الانحطاط، ومحاربة البدع ومظاهر الشّرك، والعودة بهم إلى منهاج السلف

1- التللي العجيلي : صدى حركة الجامعة الإسلاميّة في المغرب العربي (1876-1918) ، دار الجنوب للنشر وكلية الآداب والفنون والإنسانيات

بمنوبة ، تونس ، 2005،ص 140.

2- المراكشي : "تفكير رشيد رضا"، مرجع سابق ، ص 109 .

3 -ستودارد: مصدر سابق ، ج 1، ص259.

الصالح، والعمل بمقتضى الشريعة الإسلامية السمحة، استنادا إلى مصادرها المتمثلة أساسا في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وذلك بعد ما "لاحظ فساد عقيدة المسلمين، وتردي أخلاقهم واستشراء مظاهر الفساد والجاهلية فيهم".¹ وقد وصف الدكتور صالح بن عبد الله بن عبد الرحمان العبود تلك البيئة العفنة بقوله: "في بيئة غلب عليها أمر الجاهلية، من عبادة غير الله تعالى، كالذبح للمقبورين، ودعائهم، والاستغاثة بهم، والنذر لهم من أجل أن يشفعوا لفاعل ذلك عند الله تعالى، ومن فوضى، واضطراب، وتفرق، وعداوة، ونهب، وسلب، وخيانة، ومعاملات كانت كلها سببا في دمار الاقتصاد وخرابه وفساد في الأخلاق وخوف وقلق وفتن، هذا في الغالب وانتشاره وعهده بعد غربته، فقيض الله الشيخ محمد بن عبد الوهاب أبرز هؤلاء المصلحين".² وتجمع اغلب الدراسات التي أنجزت حول الموضوع، تأثير الدعوة الوهابية السلفية على الحركات الأخرى، التي ظهرت بالعالم الإسلامي خاصة في القرن التاسع عشر، غير أننا نستغرب موقف الدكتور صالح بن عبد الله بن عبد الرحمان العبود صاحب الرسالة التي اشرنا إليها حول "دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها" بإنكاره تأثير الحركات الإصلاحية المعاصرة بالحركة الوهابية، حيث يقول: «وما قيل من تأثير بعض الحركات والدعوات في خارج سلطان أنصار عقيدة الشيخ، مثل: حركة السنوسي في ليبيا، وحركة أحمد بن عرفان في الهند، وحركة الفرائضيين في الهند، وحركة نزار علي في الهند أيضا، وحركات البدري الثلاث في إندونيسيا، وحركة الإخوان المسلمين، وبعض دعاة في البلدان قيل إنهم تأثروا بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، مثل: الشيخ محمد عبده، وجمال الدين الأفغاني، والجمعية الشرعية في مصر، وما قيل أيضا أن الثورات التي انطبعت بطابع ديني تأثرت بدعوة الشيخ، كالثورة المهدية في السودان، وثورة إيش محمد كول في التركستان، وما قيل من أن إصلاح سلطان المغرب المولى سليمان بن محمد في المغرب وعبد الحميد بن باديس في الجزائر قد تأثرا بدعوة الشيخ؛ كل ذلك يحتاج إلى دقة، ولم يثبت شيء منه أنه تأثر بعقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب». ¹ والواقع أن الحركات الدينية والسياسية تاريخيا، هي عبارة عن أفكار ومناهج ورؤى تتحرك بين الناس، ولها طابع التأثير والتأثر حتما. بغض النظر عما تعترها من تأويلات. أو أحكام

1- د.جمال قنان: نظرة حول حركة الإصلاح الإسلامي والجامعة الإسلامية في القرن التاسع عشر، المصادر، العدد 11، السداسي الأول

2005، ص18.

2- صالح بن عبد الله بن عبد الرحمان العبود: "دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي"، (مصدر من

الانترنت)، ص439.

1- العبود: نفس المرجع والصفحة.

أو مفاهيم تبالغ في المدح أو تجافي الحقيقة. كما أن لكل حركة أو دعوة دينية أو سياسية محاسن ومآخذ وقد جاء في الأثر قول الإمام مالك: "كل يؤخذ من كلامه ويردّ إلا صاحب هذا القبر". كما أننا نعتقد أن ذلك الرأي يعبر بشكل ما عن تجاهل مقصود لجهود الحركات الإصلاحية ودورها في مسيرة الإصلاح والتجديد، وهو اتجاه دأبت عليه بعض الحركات السلفية المتأخرة.

وعلى الرغم من بلائها الحسن، ودورها المتميز في حركة الإصلاح، فإن الحركة الوهابية ظلت محصورة في مجال إصلاح العقيدة فحسب، وتمتعت عن الولوج في معترك الحياة المعاصرة ومقتضياتها الفكرية والحضارية. الأمر الذي "منعها من التطور والتفاعل الإيجابي مع احتياجات العصر ومستجداته وبالتالي فهي لم تكن استجابة كافية لاحتياجات المجتمعات الإسلامية المعاصرة ومتطلباتها".²

وقد جاء في مجلة الفتح لصاحبها محب الدين الخطيب، أن "تأخر المسلمين ناتج عن اشتراك عدّة أسباب سياسية واقتصادية واجتماعية، وهي في مجموعها ترجع إلى إهمالهم لقانونهم الأساسي، الذي جمع بين مصالح الدنيا والآخرة، وهو كتاب الله وسنة رسوله (ص)."³

أمّا الأمير شكيب ارسلان فقد ألف كتاباً بعنوان: "لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم". وقد بين فيه إن أهم أسباب تخلف المسلمين هو تخليهم عن دينهم، الذي كان سبب عزتهم الماضية ولا يكون لهم شأن بدونه، مستندا إلى أدلة من القرآن والسنة. منها قوله عز وجل: "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله" الآية. 4. إضافة إلى الأحاديث النبوية الشريفة، والتي لا يتسع المقام إلى سردها هنا، وقول الإمام مالك رضي الله عنه: "لا يصلح آخر هذه الأمة، إلا بما صلح به أولها". كما استند شكيب ارسلان على التجربة التاريخية الطويلة والثريّة التي ميّزت التاريخ الإسلامي، من عهد النبوة إلى الخلفاء الراشدين، ومن حذا حذوهم بعد ذلك في مختلف فترات التاريخ الإسلامي.

إن مظاهر فساد التدبّر عند المسلمين الذي نحن بصدد أدّى إلى نتائج خطيرة مست جميع جوانب الحياة، فقد تحوّلت العبادة إلى مجرد شعائر وطقوس تؤدّى بصورة آلية وخالية من معناها الروحي والأدبي، واستخف الناس بالمعاملات، فلم يعودوا يراعون معاني الصدق والأمانة والوفاء والعلم، "فقيم الجمود وكثرت البدع واستسلم الناس للقدر".¹

2- قنان: "نظرة حول حركة الإصلاح..... نفس المقال، ص 19.

3- محب الدين الخطيب: الأسباب التي أدت إلى تأخر المسلمين، مجلة الفتح، العدد 2، السنة الأولى، 17 يونيو 1926.

4 - سورة آل عمران، الآية 109.

1 - د. عمار طالبي: ابن باديس حياته وأثاره، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ج1، ط2، 1983، ص18.

وقد كان الانتشار الطّرقية المنحرفة والتّصوّف الذّميم، الأثر البالغ في تكريس التّخلف العقلي لدى المسلمين، فقد نتج عنه تحجّر وركون إلى العزلة المقيّنة، وقتل الحرّية في العقول، وتغليب جانب التقليد والنقل، وإغلاق أبواب الاجتهاد.

لقد كان الشّعار السائد: " اعتقد ولا تنتقد ". وقد علق د.علي مراد على ذلك بقوله: « " إنّ عصر الدفعة الخلاقة والإنتاج الفكري العظيم بدا وكأنّه يلفظ أنفاسه في كلّ أنحاء العالم الإسلامي، وتوقع هذا العالم على نفسه فيما يشبه الانغلاق المعنوي، بسبب غلق باب الاجتهاد منذ القرن الرابع الهجري ». ² ومن أهم النواحي الحضارية المنضرة التّربية والتّعليم، الذي صار تلقينا آليا يحثّ على الحفظ والاستدكار، وينكر الفهم والاستبصار، مما جعل احد أكبر اهتمامات الحركة الإصلاحية ووسائل الجامعة الإسلامية، إصلاح التّعليم وتطويره وتغيير مناهجه. قال الشيخ محمد عبده في معرض حديثه عن إصلاح الأزهر الشّريف: « " إنّ إصلاح الأزهر أعظم خدمة للإسلام، وإنّ إصلاحه إصلاح للمسلمين وفساده فساد لهم ». ³

علّق الشيخ عبد الحميد ابن باديس على واقع التّعليم التقليدي المنتهج في جامعة الزيتونة بقوله: « كان التّلميذ يقضي الشّهور والسّنون وهو لم يفهم شيئا، ببساطة فإنّ حصّة القرآن تتحوّل إلى كميّة تطبيق القواعد التّحوية على هذا التّفسير، وهكذا فإنّ الطّالب يشغل عقله ووقته الطّويل في الخصومات التّحوية ». ⁴

لم يكن الحال في الجزائر مغايرا إن لم يكن أشد وانكي، انطلاقا من غياب المرجعيّات والمراكز العلميّة ذات الشأن من جهة، ومن جهة أخرى السياسة البغيضة، التي انتهجها الاستعمار الفرنسي منذ الاحتلال، من خلال الاستيلاء على الأوقاف ممّا أدّى إلى تجفيف ينابيع العلم والمعرفة، كما نفّس منظرو الاستعمار وأساطينه، في محاولة إبادة الأمّة الجزائرية فكريا، في محاولة لسلبها عن جسدها الإسلامي وإنجاح الاندماج في الثقافة الوافدة .

كانت إحدى أفتك الوسائل التي لجأ إليها الاستعمار، محاربة التّعليم العربي، وتشجيع اللسان الفرنسي، لأهداف اندماجية محضة، فتتهقرت الحياة التّثاقفية والفكرية بشكل فضيع، عبر عنه استاذنا الدكتور ابو

² - Ali Merad: *l'islam contemporain* , coll.: que sais-je? ,éd:dahleb , Alger ,1995 , p 16.

³ - احمد أمين: *زعماء الإصلاح في العصر الحديث* ، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، 1979، ص 289.

⁴ - محمود قاسم : الإمام ابن باديس ،الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية ، دار المعارف، مصر ، 1979، ص54.

القاسم سعد الله بقوله: «أن المؤرخ للجزائر في القرن التاسع عشر، لا يكاد يعثر على عالم جزائري حقيقي واحد لا بالعربية ولا بالفرنسية»¹.

لقد قام في الجزائر جدل واسع في مختلف الهيئات الفرنسية، حول فكرة الإدماج، وما عدا محاولة الإمبراطور " نابليون الثالث " المحتشمة في إطار سياسة المملكة العربية، وصدور قانون "سيناتوس كونسولت" في سنة 1865م، لا نجد شيء يذكر، ونقصد بالإدماج هنا ترقية الجزائريين وإدماجهم دون تخليهم عن شخصيتهم، وقد كان المعمرون ضد فكرة منح الأهالي تعليماً يليق بهم، أو حتى أبسط الحقوق الطبيعية، ووصلت بهم أنانيتهم البغيضة، إلى حد اعتبار العنصر الأهلي همجي غير قابل للتحصّر، ومنطلقهم في ذلك هو رفض الأهالي إرسال أبناءهم إلى المدرسة الفرنسية .

والواقع أنّ الجزائريين الذين كانوا يرفضون إرسال أبناءهم للمدرسة الفرنسية ، إنّما لانطوائها على أهداف إدماجية وتنصيرية ، وليس للتعلّم المجرد، لقد بيّن هذا أحد أفذاذ الجزائر في الفكر والثقافة حينها ، هو محمد بن رحّال²، مسألة تعليم الجزائريين وغاياتهم منه ، لخصّ الأستاذ عبد القادر جغلول نظرتة التطورية في التّعليم في النقاط التّالية:

1-أولوية إعادة الاندماج الثقافي العربي -الإسلامي.

2-قبول الاندماج في الثقافة الفرنسية.

3-إمكانية نهضة الإسلام في إطار السياسة الفرنسية.³

وهو لا يرى في التّعليم الفرنسي، "أداة تمثّل، بل قوة تنبيه وتحرّر" ولا يمكن لهذا التّعليم في نظره أن يكون إيجابياً إلّا إذا كان مكّماً للتّعليم العربي الإسلامي⁴. والواقع أن هذا تناقض مع السياسة الفرنسية لكنّه أراد توظيف التناقض من أجل رقي أمّته ، أي نجاح السياسة الفرنسية في الجزائر مرهون بمدى ترقية واحترام الخصوصية الحضارية للجزائريين.

1- د. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، (1900-1930)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ج2، ط3، 1983، ص65.

2- محمد بن رحال ، من الوجوه السياسية والثقافية البارزة في الجزائر خلال أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين،

ولد بندرومة بتلمسان في 3شوال 1277هـ/17ماي 1857م. امتاز بثقافة مزدوجة عربية وفرنسية ، وهو ينتمي إلى فئة المصلحين

والمجددين ، ويسير في ركاب ابن الخوجة وابن سماية وغيرهما...توفي في سنة 1928 م .

3- عبد القادر جغلول: تاريخ الجزائر الحديث ، دراسة سوسولوجية .ت: فيصل عباس ،دار الحداثة، لبنان، ديوان المطبوعات

الجامعية ، الجزائر ، ط3، 1973، ص98.

4- نفس المرجع ، ص112.

3-الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية :

من النتائج البارزة للثورة الصناعية والعلمية في عالمنا المعاصر، تشابك المصالح وتوسّع المفاهيم، فظهرت النظريات الاقتصادية، بالموازاة مع التوسّع في الاستثمار، ونفاقم الثروة، كما كرّست مفاهيم جديدة فيما يتعلق بعناصر القوة لدى الدول والشعوب، حيث صارت القوة الاقتصادية من مؤشرات القوة والمنعة لدى الدول، بالموازاة مع قوتها العسكرية ونزعتها الاستعمارية، وقد تفتّنت اليابان لذلك وسارت في اتجاه تعزيز نموها الاقتصادي والصناعي بالذات، في الوقت الذي تحوّلت البلاد العربية والإسلامية إلى مجرد سوق للبضائع والقروض الغربية بفوائد خيالية.

إنّ التخلف الذي ضرب أطنابه في العالم الإسلامي في العصور الحديثة، انعكس بشكل أساسي على الجانب الاقتصادي ومن أهمّ عوامل ذلك :

1 - فقدان العالم الإسلامي لمصادر نموه الاقتصادي التقليدية والمتمثلة أساسا في تجارة العبور بين القارات الثلاث. "ففي خلال العقد الأوّل من عودة "داغاما"¹ من الهند، كانت سفن العرب من الإسكندرية وبيروت تدخل البندقية فارغة لأوّل مرّة. لقد غاصّ الدم وجفّ من الشريان والوريد معا، فتوقّف قلب الاقتصاد العربي الإسلامي."²

2- العجز أو التعجيز عن مواكبة التغيرات الحاصلة في العالم وأوروبا بشكل اخص.

3- تغلغل رأس المال الأوربي الاستهلاكي، ونفاقم الأزمات المالية والاقتصادية .

لقد اجتهدت بعض الدول الإسلامية، في محاولة اللحاق بركب الحضارة الحديثة، وتمثّل محاولة محمد علي باشا (1769-1849)، والي مصر. نموذجا لذلك من حيث بدأت الخطوات الأولى نحو الانتقال من المجتمع الإقطاعي الزراعي إلى التصنيع، وصاحب ذلك إصلاحات في المجال العسكري والتربوي تأسّيا ببعض الدول الحديثة، وتركزت عملية التجديد على نقل التجربة الغربية وأنظمتها واعتمادا على رؤوس الأموال الأجنبية، ثم توسّعت في عهد إسماعيل باشا. ففي عهده " نعمت لأوّل مرّة القاهرة والإسكندرية بالماء والغاز."¹

غير أن عملية الإقلاع الاقتصادي تفهّرت في عهد خلفاءه كما أصبحت مبتورة وفقدت نجاعتها عن قصد، فبقدر ما أنجزت من المشاريع العمرانية الإستراتيجية، إلا أنّها كانت تفتقر إلى رأسمال محلي ومضمون،

1 - فاسكو دي قاما (1469-1524)، بحار برتغالي. اكتشف طريق الهند من رأس الرجاء الصالح في 1498 . استعان بالعرب ليهندي طريقه في مجاهل المحيط الهندي.

2 - حمدان: مرجع سابق، ص 55.

1- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، دار العلم للملايين، بيروت ، لبنان، ط 10 ، 1984 ، ص ص 100-102.

يلبّي حاجات النمو المتزايدة ويخلق فرص الثروة ويُميها بالتدرج والحكمة، فادّى إلى تفاقم دور الرأسمال الأجنبي والقروض والفوائد الباهظة، بتشجيع من التجار اليهود والانجليز.

ونفس الأمر حدث في تونس ، فقد شهدت تونس بفضل خير الدين باشا محاولة نهضوية رائدة استمدتها من تأثره الشديد بالفكر الغربي، وكانت كفيلة بتحقيق النهضة المنشودة والإقلاع الاقتصادي المأمول ، لكن تدخل الدول الأوربية وعرقلتها للإصلاحات وتكريسها لسياسة المديونية والتدخل في التسيير المالي، أوصلت البلاد إلى حافة الإفلاس ، وبلغت المديونية في تونس في عام 1860م، تسعة عشر مليون ريال ، أي ما يساوي دخل سنة عادية من ميزانيتها².

لكن في نفس الوقت لا يمكن إغفال المؤامرات الأوربية في هذا الشأن، فأوربّا والغرب عامّة ينادي ويدعوا الدول الإسلامية إلى الإصلاح ويحثّ على ذلك حثيثا في الجانب الشكلي، أمّا في واقع الحال، فإنها تعرقل كل حركة بناء وهادفة " فقد أجبرت مصر على عهد محمد علي باشا وبالقوة على وقف حركة التصنيع وعدم السير قدما في مجال التطور الاقتصادي مما يؤدي إلى إحداث نهضة لا تستطيع القوى الأوربية التحكم فيها وتوجيهها لخدمة مصالحها وأهدافها فالتتأج التي أعطتها التنظيمات التي أدخلتها الدولة العثمانية في مؤسّساتها وكذلك جهود التحديث التي بذلت في مصر وبدرجة اقل في تونس أعطت نتائج عكسية مناقضة للأهداف التي أحدثت من أجلها فقد هيئت هذه البلدان لان تقع لقمة سائغة بين مخالب الاستعمار المباشر وبدون تكلفة تذكر أو تكاد"³.

لذا كان احد أركان دعوة المصلحين في إطار الجامعة الإسلامية، هو إقامة الجامعة الإسلامية الاقتصادية، وتتلخص أهدافها في الحفاظ على ثروات المسلمين، وتشجيع الاستثمار الإسلامي وصياغة نظرية إسلامية تتماشى مع متطلبات العصر، مع مراعاة قواعد الشريعة الإسلامية، وخدمة المسلمين خاصة الضعفاء منهم، والحقيقة أنّ الفكرة جديرة بالدراسة والتمحيص لأنّ الجامعة الإسلامية لا يمكن أن تنجح وتتألق والأمة فاقدة لأهمّ مصادر كرامتها، فالأمة التي تأكل مما لا تنتج وتلبس مما لا تنسج على حد

* خير الدين التونسي،(1822-1890) ، يعتبر من اكبر المصلحين المجددين في العصر الحديث ، من أصل شركسي ، تربى في أحضان القصر(احمد باي) وارتقى في الثقافة والمناصب حتى صار كبير وزراء تونس في 1870، اشتهر بإصلاحاته الجريئة التي مزج فيها بين التراث الإسلامي والفكر الغربي الحديث

2- خير الدين التونسي: أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك ، تقديم وتحقيق: منصف الشنوفي ،الدار التونسية للنشر، تونس، ط2، 1986، ص31.

3- جمال قنان : لمحة حول نشاط الجامعة الإسلامية من خلال المراسلات الدبلوماسية الفرنسية 1900-1924 ،مجلة جامعة الأمير

عبد القادر للعلوم الإسلامية ، العدد 19، رمضان 1426هـ/أكتوبر 2005 ، ص170.

تعبير الشيخ محمد الغزالي، لا يمكنها أن تجد لنفسها مكانا في عالم تغلب عليه المادة وتسيّره المصالح، ولعل تلك الفكرة هي التي أوحى إلى المفكر الجزائري مالك بن نبي، إلى إصدار دراسة هامة في هذا المجال أطلق عليها " فكرة كومنولث إسلامي".¹

II- ظهور الجامعة الإسلامية وتطورها :

أ- مفهومها:

مثّلت فكرة أو دعوة الجامعة الإسلامية، التي ظهرت في العالم الإسلامي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، تيارا فكريا واسعا وهامًا، شغل ولا يزال اهتمامات الباحثين والمؤرخين الذين تناولوا الموضوع كلّ من زاويته، فمنهم من أنصفها ومنهم من تحامل عليها ولنا أن نتساءل عن كنه هذه الحركة، ومفهومها، والغاية منها، وتعدّد وجهات نظر روادها، ومواقفهم من الغرب انطلاقا من قضايا ومشاكل تلك المرحلة العصبية، التي مرّت بها الشعوب الإسلامية خلال الفترة المذكورة. والواقع أن الموضوع ذو طابع فكري وفلسفي لأنّه يعالج فكرة أو تيار فلسفي ضمن سياقه التاريخي.

إن كلمة الجامعة في اللغة تحمل معاني (الوحدة والتضامن والتآزر)، ومنها الجامع وهو المكان الذي يجتمع فيه الناس للصلاة، يعبدون إلها واحدا، يتوجهون إلى قبلة واحدة، وتزول الفوارق بينهم، وتتآلف القلوب على الأخوة، وعكسها الفرقة والتنافر والتشتت. وقد حثّ الإسلام أتباعه على الوحدة، وحذّرهم من الفرقة. فقد جاء في الآية الكريمة: " واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا " (الآية (*).²

ومن ثمّ فإن معاني الجامعة الإسلامية هي الوحدة أو القومية الإسلامية أو الأخوة الإسلامية، وقد عرفها لوثرروب ستودارد في كتاب حاضر العالم الإسلامي بقوله إنها: " الشعور بالوحدة العامّة والعروة الوثقى لا انفصام لها بين جميع المؤمنين في المعمور الإسلامي".³ وقد جاء في تفسير الطبري لقوله تعالى: " فقد استمسك بالعروة الوثقى " قوله " فقد تمسك واعتصم بالإيمان، الذي هو أوثق ما تمسك به من طلب الخلاص لنفسه من عذاب الله وعقابه. " لا انفصام لها" لا انكسار لها ولا انقطاع.¹ ويقول الدكتور محمد عمارة" إن دعوة الجامعة الإسلامية تعني أن للمسلم انتماء إسلاميا يحدد هويته وهوية الكيان السياسي والحضاري الذي يمنحه الولاء."²

1- انظر، مالك بن نبي: فكرة كومنولث إسلامي، ت: الطيب الشريف، دار الفكر، الجزائر، ط2، 1990.

2- سورة آل عمران، الآية 102.

3- ستودارد: حاضر العالم الإسلامي، مصدر سابق، ج1، ص 287-288.

1- محمد بن جرير الطبري: مختصر تفسير الطبري، مكتبة رحاب، الجزائر، ط2، 1987، ص 82.

2- د. محمد عمارة: جمال الدين الأفغاني المفترى عليه، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1984، ص 161.

ومن هنا وجب التفريق بين المعنى العام للجامعة الإسلامية كبدأ في حياة المسلمين تجسد في فترات التاريخ منذ عهد النبوة، أي منذ توطيد دعائم الأخوة الإسلامية في المدينة المنورة بعد الهجرة، عندما آخى بين المهاجرين والأنصار، وبين الجامعة الإسلامية كفكرة ذات طابع سياسي محض، ارتبطت بالغزو الأوربي أساساً.

" لقد أدرك النبي محمد ﷺ خطورة الجامعة وعلو منزلتها فغرس غريستها بيديه في أنفسهم فمتم وتغلغت".³ ثم إن الجامعة الإسلامية بهذا المعنى صارت إحدى ركائز الدعوة الإسلامية، تتراوح بين العنفوان في أزمنة الشدة، وتخفت في مراحل الدعة والترّف.

وقد تكون في نفس معنى العصبية التي أشار إليها العلامة ابن خلدون في كتاب "المقدمة" فالعصبية قد تكون قبلية أو مذهبية أو دينية ولا يخفي ابن خلدون أن العصبية الدينية كانت الأقوى على الدوام. وقامت الجامعة الإسلامية على ركنين هما: الخلافة والحج إلى بيت الله الحرام.⁴ فالحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام، وواجب ديني لكل مسلم استطاع إليه سبيلاً. وله غايات وأبعاد أخلاقية واجتماعية وسياسية. أليس هو المؤتمر السنوي الذي يلتقي فيه المسلمون، على اختلاف ألسنتهم وأجناسهم ويتبادلون معاني الأخوة ويتباحثون في شؤونهم المختلفة؟ ومن ثم يعودون إلى أهلهم بأفكار ورؤى وتصوّرات يبنونها بين ذويهم، وإذا تتبعنا معظم حركات التجديد والإصلاح من محمد بن عبد الوهاب إلى الأفغاني والسنوسي والكواكبي وابن باديس. وجدناها تنطلق من نفس المعطيات، ولعل في كتاب "أم القرى" للشيخ الكواكبي وموضوعه الممثل في محاولة تجسيد حوار موضوعي بين مختلف العناصر المشكّلة للمعمور الإسلامي، والخروج بتصوّر موحد يهدف إلى تجاوز محن المسلمين آنذاك، خير دليل على ذلك.

أما الخلافة فهي نظام الحكم في الإسلام، وركيزة أساسية وضرورية، لا يستقيم أمر المسلمين بدونها، قامت في أول الأمر على مبدأ الشورى في عهد الخلفاء الراشدين -رضي الله عنهم- ثم صارت حكماً عضواً منذ ولاية الأمويين إلى الدولة العثمانية، وظلت تلك المؤسسة صامدة رغم التناقض حتى إلغائها في سنة 1924م.

والجامعة الإسلامية في التاريخ المعاصر هي « ذلك التيار الفكري والسياسي العريض الذي أبصر قاداته أن هناك تحديات تواجه الفكر الإسلامي والشعوب الإسلامية، سواء تحديات من الداخل (كالتخلف

3- ستودارد : نفس المصدر ، ج 1 ، ص 288.

4 - نفس المصدر والصفحة .

الفكري والروحي، والانحطاط الحضاري والسياسي، والصراعات الإقليمية والقبلية)، أو من الخارج في شكل زحف استعماري. وقد ضمت الجامعة الإسلامية مدارس وفصائل، رفعت نفس الشعار.¹

أما الدكتور علي المحافظة فيقول أنها: « تيار ظهر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كردّ فعل على الغزو الغربي، وعجز الدول الإسلامية عن مواجهته بعد تيقن المفكرين أنّ النضال المحلي لا يجدي»². غير أن ربط ظهورها لجامعة الإسلامية بالتواجد الأوربي في البلاد الإسلامية قد يكون فيه بعض المبالغة، لان الجامعة الإسلامية وجدت مسوّغات انبعاثها وميلادها أيضا في تردّي أوضاع المسلمين في الداخل، والتركيز على العوامل الخارجية هو من دأب الكتاب الغربيين الذين كثيرا ما يربطون بين ظهورها و حملة نابليون على العالم العربي في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، لتكريس تصوّر مسبق ومقصود، يدّعي عجز الإسلام والمسلمين عن النهوض والتّرقّي الذاتي .

والحق أن الإسلام راق بذاته، وهو صالح لقيادة المسلمين والبشريّة جمعاء، لكن تقليد الغرب أمر لا مفرّ منه في مجالات التّقنية والتنظيم وكثير من شؤون الحياة التي تدخل ضمن الحكمة ، والحكمة ضالة المؤمن، ومن ثمّ فإن " تيار الجامعة الإسلامية ظهر نتيجة عجز الدول الإسلامية عن رد الغزو العسكري والتّقافي الأوربي، بعد أن تيقن عدد من المفكرين أنّ النضال القطري المحلي لا يجدي نفعاً."³

إن خطورة الوضع ودقته حتمت على المسلمين -آنذاك- البحث في تراثهم، عن أسباب تخلفهم الحضاري وجمودهم الفكري، في محاولة لتحقيقهم نهضة سريعة، كفيلا بلمّ الشمل وسدّ الثغرات وتحول - أو على الأقل تؤخّر- التهام ما تبقى من بلاد المسلمين .

ويؤرّخ لتلك الحركة من النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ويتفق الدارسون للموضوع أن الشّيخ جمال الدين الأفغاني، هو أوّل من دعا للجامعة الإسلامية وسعى من اجلها.

غير أنّ لأستاذنا الدكتور أبو القاسم سعد الله رأي آخر، انطلاقا من رؤية وطنية وموضوعية للموضوع ، فهو بعد أن يذكر الشّائع من التعريف حول الجامعة الإسلامية ، يدعو إلى مراجعة ما كتب حول منشأ الحركة، والذي غالبا ما يستقى من المصادر الغربية، ويقبل لدى المفكرين المسلمين بلا تمحيص أو رويّة، ويذكر عاملان ساهما في سوء الفهم هما:

1- عمارة : جمال الدين الأفغاني المفترى عليه، مرجع سابق، ص 161.

2-د. على المحافظة: الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة (1798-1914)، الأهلية للنشر والتوزيع ، لبنان، 1987، ص 109.

3-محمد قنانش: المواقف السياسية بين الإصلاح والوطنية في فجر النهضة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ت)، ص 13.

1- ربط الجامعة الإسلامية بأحداث المشرق، وتحديد المسألة الشرقية مع الدولة العثمانية. (ونعتقد أن إضفاء مصطلح المسألة الشرقية، بغض النظر عن ظروف التسمية على التكالب الأوربي تجاه العالم الإسلامي، في القرنين الماضيين، هو محاولة تجريد هذا الغزو أو التكالب، من صفته الحقيقية، وخلفياته التاريخية والتي تعتبر بشكل أو بآخر امتدادا للحروب الصليبية).

2- إهمال موقع الجزائر ضمن هذا التيار.

وهذا فيه تجني ويفضي إلى التناقض مع التعريف، فإذا سلّمنا أن الجامعة الإسلامية هي مبادرة تهدف إلى توحيد المسلمين، في وجه الغزو الغربي السياسي والثقافي. فإن أول مواجهة مع هذا الكيان انطلقت من الجزائر، بعد الاحتلال متجسدا في ظهور المقاومة الوطنية بزعامة حمدان خوجة و الأمير عبد القادر الجزائري.¹

ثم إن نظرة في فكر زعماء المقاومة في الجزائر، من خلال كتاباتها ونشاطاتها، توحى بفكر رائد وسابق لأوانه في اتجاه الإصلاح والتجديد، ويتناغم تماما مع الخطاب الإيديولوجي لحركة الجامعة الإسلامية الذي ظهر فيما بعد، فيما يخص متطلبات النهوض والإشكاليات المرافقة له، كموضوع التراث والحداثة، لكن من سوء حظّه انه لم يرى النور ولم تسعفه الظروف التاريخية على الرواج والانتشار. ولا غرابة أن يجد القارئ أفكارا تقدمية سابقة لأوانها لدى حمدان خوجة، مثلا ولكنها ظلت مغمورة، حتى عبر عنها زعماء الإصلاح فيما بعد، ولاشك أن السياسة الفرنسية الاستعمارية كان لها ابلغ الأثر في طمس تلك المعالم ومحو آثارها، وسار الكتاب الفرنسيون نفس النهج، وغاية ذلك، هو محاولة تكريس الاحتلال الفعلي والواقعي، وفصل الجزائر بأقصى ما يمكن عن محيطها العربي الإسلامي.

2- الإطار الفكري والفلسفي للجامعة الإسلامية :

الجامعة الإسلامية دعوة دينية أو تيار فكري واسع، استوعب جميع محاولات التجديد الإسلامي في العصر الحديث، منذ حركة محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية، وهي الحركة التي قلنا أنها ركزت على الجانب العقائدي المحض، وأسست دولة إسلامية قائمة على الشريعة هناك، وأنكرت على العثمانيين أحقيتهم في الخلافة، لكن سرعان ما قضى عليها محمد علي باشا والي مصر وابنه إبراهيم بإيعاز من الدولة العثمانية، التي كانت تخشى ضياع الجزيرة العربية منها، وضياع مركز الخلافة من الأتراك إلى العرب. وقد ذهب المحللون مشارب شتى في تفسير ذهاب شوكة الوهابيين، ففي حين لجأ أنصارها إلى تحميل المسؤولية إلى الوهن الذي أصاب أنصارها بعد وفاة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وعودة بعض الدعاوى

1- سعد الله: الحركة الوطنية...، مرجع سابق، ج2، ص 113.

الجاهليّة.¹ رأى البعض الآخر أن اعتماد خصومهم على التنظيم الحديث والأسلحة الأوربيّة، هو الذي حسم الصرّاع لصالحهم، حيث بعد تولّي إبراهيم باشا القيّادة، وبعد سلسلة من المعارك تفوّق فيها على قوّات الموحدّين، التي كانت سيّئة التّسليح، واعتمدت على الكرّ والفرّ، وتوظيف الطّبيعة الصحراويّة، فأدّى اختلال التّوازن إلى استيلاء إبراهيم باشا على الدرعيّة وتابع تقدّمه حتى بلغ الأحساء.² لكن دعنا نستدرك بالقول أن ضيق الأفق بالنسبة للأطراف المتصارعة، خدم الانجليز الذين كانوا يترصّون بالمنطقة.

وقد جاء في تعليق احد المؤرّخين قوله: "كان الوهابيّون يريدون أن يعيدوا مجد الدولة الإسلاميّة من الناحية الدينيّة، وأراد محمد علي أن يعيد مجد الدولة الإسلاميّة من الناحية السياسيّة، وكان من خير الإسلام، لو تعاونوا وتصالحا، ولكن صروف السياسة قضت أن تكون أحدهما حتف الأخرى، فكأنّما خنق الإسلام نفسه بيده."³

لكن تجدر الإشارة إلى أنّ تأثير الفكرة الوهابيّة، استمرّ خاصّة بعد تبني آل سعود للمذهب من جهة، ومن جهة أخرى، فقد ألّفى الوهابيّون في مواسم الحجّ المكان المثالي لنشر دعوتهم بين الحجّيج. لذلك نجد العديد من الحركات نهلت من معينها، من الهند إلى شمال إفريقيا. كما شهد العالم الإسلامي انتكاسات أخرى وهزائم أمام القوات الاستعماريّة خلال القرن التاسع عشر، وقبل أن يستفحل أمر الاستعمار، وبمسك بزمام الأمور في كل المعمور الإسلامي، وتمثّلت في فشل مقاومة الأمير عبد القادر بالجزائر ضدّ الفرنسيّين، والشيخ شامل الداغستاني بالقوقاز*، ضدّ التّوسع الرّوسّي. وإخفاق ثورة الهنود (البوكسير) ضدّ بريطانيا وشركة الهند-الشرقيّة في سنة 1858. وهي إحدى مبرّرات البحث عن مكامن الخلل قبل استفحالها، ويشير العديد من الكتاب الغربيّين، أن حركة التّجديد والإصلاح في القرن التاسع عشر، لم تكن في مجملها يقظة داخلية بقدر ما كانت استجابة للتهديد السياسي والعسكري من جانب أوروبا.

1- العبود: "دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب....، مرجع سابق.

2- نفس المرجع.

3- نوار: تاريخ العرب المعاصر، مرجع سابق، ص 110.

* الشيخ شامل الداغستاني، قائد المقاومة الشيشانية ضد روسيا القيصرية في منطقة القوقاز، بين (1834-1859). وهو في نفس الوقت شيخ للطريقة النقشبندية بالمنطقة، وقد كان للشيخ مراسلات مع الأمير عبد القادر الجزائري.

كانت السنوسية إحدى أكبر الحركات الدينية والسياسية التي قامت في العالم الإسلامي، في أواخر القرن التاسع عشر، وهي تدعو للتجديد بوسائل قديمة (الطريقة). مؤسسها الشيخ محمد بن علي السنوسي (1787-1859). ولد بنواحي مستغانم، غرب الجزائر وتلقى العلوم الأولى في الجزائر والمغرب الأقصى (مازونة، القرويين). توجه إلى المشرق وأقام مدة بالأزهر، ووقعت بينه وبين الشيخ عليش* بعض اختلافات الدينية والفقهية، الأمر الذي جعله يسير نحو البقاع المقدسة مجاورا.

قام الشيخ السنوسي بتأسيس أول زاوية له في جوار مكة، وعند عودته استقر في ليبيا عند الجبل الأخضر.¹ وحرص على تكوين شبكة من الزوايا في مساحات واسعة بليبيا، ومصر، وبلاد السودان، وأواسط إفريقيا.

وهي بالإضافة إلى نشاطها التربوي والتعليمي، كان لها خدمات اجتماعية جلية وتمتع بمواردها المالية و اقتصادية الخاصة. كما عنيت بنشر الإسلام في إفريقيا، وعرقلت التوسع الاستعماري بها.²

لاحظ السنوسي فساد الطرق، فحز ذلك في نفسه، وقرّر الإصلاح، أقام بمكة بعد أداء فريضة الحج وتلمذ على يد الوهابيين، وهناك تبلورت آراؤه وتحددت أهدافه، فأيقن أن اوجب الواجبات بعد إعادة الأمة إلى رشدها. توحيد المسلمين وذلك بإرساء جماعة مترابطة، بدل تلك الطرق الضالة والمنحرفة، ولم يعد إلى الجزائر بسبب الاستعمار الفرنسي، الذي سيضيق الخناق على الحركة، ورأى أن يستقر في ليبيا في سنة 1843. وهناك انشأ الزاوية البيضاء في الجبل الأخضر، حيث يبدأ نشاطه، ومن ثم يتجه نحو الجنوب، حيث كانت البيئة الاجتماعية لا تزال في منتهى نقاءها وفطرتها، فأقام ترسانة من الزوايا، والتف من حوله جيش من الأتباع، من كل الأصقاع.¹

إلا أن الاهتمام الأكبر للحركة بموضوع الجامعة الإسلامية، كانت في عهد خلفاء الشيخ محمد بن علي السنوسي، وعلى رأسهم ابنه أحمد بن الشريف السنوسي، الذي استشهد في إحدى المعارك بالسودان

* الشيخ عليش، فقيه وعالم أزهري، ذو نزعة تقليدية، تميز بمعارضته للعديد من أفكار التجديد التي جاء بها المصلحون، وعلى رأسهم الشيخ محمد عبده .

1- قنان : نظرة حول الإصلاح.....مقال سابق ، ص 20-21.

2- نفس المقال ، ص 21.

1 - د.محمود قاسم: مناهج الإصلاح في الشرق منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى عصر النهضة المعاصرة، الثقافة ، الجزائر،

العدد 95، السنة 16، سبتمبر - أكتوبر 1986 . ص

في سنة 1902م. وقد رثاه المسلمون، ومنهم الأمير شكيب ارسلان.² والذي يؤكد صلة السنوسية بالجامعة الإسلامية والخلافة العثمانية، خاصة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني.

2- الجامعة الإسلامية كمشروع سياسي:

حاول السلطان عبد الحميد الثاني، الذي تولى مقاليد الحكم في الدولة العثمانية في عام 1876، خلفا للسلطان عبد العزيز، أن يتبنى فكرة الجامعة الإسلامية، ويعطيها غطاء سياسيا تنشط في إطاره، فجعل منها خلال أكثر من عقد من الزمن السياسة الرسمية للدولة، وهو ما يمكن تسميته بالجامعة الإسلامية الرسمية. في مرحلة من أصعب المراحل في تاريخ الدولة، بتفاهم المشاكل الداخلية، وازدياد النفوذ الأجنبي، ودخول ما عرف بالمسألة الشرقية مرحلة التنفيذ، لقد استهدف السلطان العثماني من خلال تبنيّه لسياسة الجامعة الإسلامية، وجعلها السياسة الرسمية للدولة، جمع كلمة المسلمين في مختلف الأقطار، مركزا على العنصر العربي، بغية إضفاء الشرعية على حكمه من جهة، وإيجاد مسوغات لسياسته الداخلية والخارجية في مواجهة خصومه، وكذا مواجهة الخطر الخارجي المحدق بالدولة من كل جانب من جهة أخرى. وقد سخرت الدولة العثمانية إمكانيات معتبرة في سبيل إنجاحها، من خلال الدعم المادي، وإيجاد مؤسسات تضطلع بالأمر، وتشجيع الهجرة إلى دار الخلافة، وتقريب وجهات النظر مع الحركات الفاعلة في الساحة الإسلامية، خاصة الحركة السنوسية.

تجدر الإشارة إلى ظهور بعض الحركات الدينية والسياسية المناوئة للعثمانيين، وخطفت الأضواء عرييا وعالميا، و لعل أهمها الحركة المهديّة، التي قامت بالسودان بقيادة الشيخ محمد المهدي، والتي عرفت أيضا بحركة الدراويش، و يشير احد الكتاب الغربيين انه " كان لها اثر بالغ و نفوذ عظيم." ³ عطّلت لحين التغلغل البريطاني في السودان، وعرقلت مشاريع اللورد " كتنشر" التوسعية، وكان زعيمها الذي ادعى انه المهدي المنتظر، واخبر أتباعه انه سيملا الأرض عدلا بعدما ملأت جورا، تماما كما جاء في الأثر، ولم يعترف المهدي بالخلافة العثمانية، وكانت له خلافات مع الحركة السنوسية، وقد أشار نفس الكاتب، إلى " أن مهدي السودان بعث وفودا إلى القبائل يخبرهم انه المهدي المنتظر، وان الرسول(ص)، قد اخبره بقرب نهاية خلافة الترك." ¹

2- لمزيد من التوسّع راجع : فصل السنوسية، بقلم شكيب ارسلان، في كتاب : حاضر العالم الإسلامي، (سبقت الإشارة إليه)،

تابع المخبرون والكتّاب الغربيون ، كل من موقعه، مسار حركة الجامعة الإسلامية باهتمام بالغ، قصد استقصاء الحقائق والتصرف بحكمة تجاه ذلك الخطر الداهم في نظرهم ، وحاولوا تصوير الحركة بأبشع صورة، وقد كان للفرنسيين فيما نعتقد، باع طويل في هذا الشأن، ويعد الكاتب الفرنسي "لوشاتولييه" A. Le Chatelier مدير مجلة العالم الإسلامي الفرنسية، مثالا حيًا لهذه الفئة، فقد جاء في مقال له بالمجلة المذكورة تحت عنوان، "الجامعة الإسلامية والترقي"، « le panislamisme et le progrès » ، أن الجامعة الإسلامية تجدد مبررها في الإخفاقات السياسية للعالم الإسلامي أو شعار لإثارة الشعوب ويشير صاحب المقال إلى أنّ فكرة الجامعة الإسلامية، هي فكرة خطيرة لأنها في نظره تخفي وراءها تهديدًا حقيقيًا على الدول الغربية، ولا بدّ على هذه الأخيرة أن تأخذ بمحمل الجد، كما يشير إلى خطر الإسلام على الحريّة، ويشير صاحب المقال إلى فئات وحركات بعينها، أنّها الوحيدة التي تمثل الوجه المشرق للإنسانية، وتجد مكانها تحت الشمس وهي : المسلمون التتار ، المسلمون الأتراك الذين يضاعفون جهودهم للاقتداء بالنموذج الفارسي (ربما يقصد تركيا الفتاة) ، الكتاب المنورون في مصر الحديثة ، وأتباع السيد احمد خان في الهند² . وبالإجمال فهو يشيد بالحركات القومية الجديدة التي ظهرت في العالم الإسلامي ، وتسعى للاحتذاء بالأفكار الغربية.

ب- تطوّرهما :

1- الجامعة الإسلامية من منظور الجيل المؤسس :

- جمال الدين الأفغاني :

يعتبر السيد جمال الدين الأفغاني (1839-1897)، المنظر الفعلي لفكرة الجامعة الإسلامية، وهو من حدّد أسسها ومبادئها، كما تعهّدها، وناخ من اجلها، واكتوى بنار خصومها، ورحل عن الدنيا وهو يتحسّر على عدم تحقّقها¹.

فما هي الجامعة الإسلامية في نظره؟ قبل الإجابة على السؤال لا بدّ من التعريف بهذا المصطلح فإنّه لم يحظى احد من المصلحين المعاصرين من التقدير والإكبار ما حظي به الأفغاني. والمتصفّح للترجمات بشأنه يعجز عن حصرها وبمختلف اللغات، ونحن إذ نعرف بالأفغاني، فإنّنا فقط من باب التوسّع في فهم صلته بفكرة الجامعة الإسلامية وصفه مؤلّف كتاب حاضر العالم الإسلامي بمقولة بليغة فقال « كان جمال الدين

2- Le Chatelier, A: **le panislamisme et le progrès**, Revue du monde musulman , vol 0I, no IV, février 1907 ,

pp 465-471.

1 - عمارة : جمال الدين الأفغاني المفترى عليه ، مرجع سابق ، ص 130.

سيّد التّابغيين الحكماء وأمير الخطباء البلغاء ، وداهيّة من أعظم الدّهاة، دامغ الحجّة، قاطع البرهان، ثبت الجنان، متوقّد العزم، شديد المهابة»².

ولد السيّد جمال الدين الأفغاني سنة 1839 ، في قرية أسعد آباد، إحدى قرى مقاطعة "كتر" بالقرب من كابل في أفغانستان. ورغم الاختلاف المفتعل حول مكان ولادته بين أفغانستان وإيران، إلا أنّ أغلب الدّراسات تؤكّد على أن مسقط رأسه هو بأفغانستان . وقد وجدنا في " مجلّة العالم الإسلامي" مقالا يشير صاحبه إلى أن أصله إيراني حيث يقول انه من مواليد " أسد آباد " بالقرب من همدان بفارس.³ لكن نجده يؤكّد امر مولده بقوله: « لقد نظرت إلى الشّرق وأهله فاستوقفني الأفغان وهي أول ارض مسّ جسدي ترابها»⁴.

وإنما جاء منشأ الادّعاء بأنّه إيراني أو شيعي من خصومه، وخصوم دعوته التجديديّة، في السّنوات الأخيرة من حياته.⁵

إلا أنّه لم يكن يتعصّب لقوم، أو وطن، فوطنه الإسلام، وأهله جميع أبنائه، يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق (1885-1946)، وهوّ من تلاميذه أنّه « لم يتعلّق ببلد من البلاد على أنّه وطن ولم تدخل فكرة الوطنيّة بهذا المعنى في مذهبه الاجتماعي، وللمالك الشّرقية الإسلاميّة حبّ في نفسه ينظمها جميعا»⁶. لقد كرس الشيخ جمال الدين الأفغاني أفضل سنين حياته، من اجل خدمة الإسلام والدّفاع عن قضايا المسلمين، ويقسّم الدكتور جمال قنّان في إحدى مقالاته، فترات حياته وجهاده إلى ثلاث مراحل هي: الفترة المصريّة وتمتدّ (من 1871 إلى 1879). ثمّ الفترة الأوربيّة والفارسيّة (من 1883 إلى 1892). وأخيرا الفترة العثمانيّة (من 1892 إلى 1897). تاريخ وفاته¹

أما عن مهمّته الإصلاحية فيحدّدها بقوله : « لقد جمعت ما تفرّق من الفكر، ولمت شعث التّصور، ونظرت إلى الشّرق وأهله فاستوقفني الأفغان، وهي أوّل ارض مسّ جسدي ترابها، ثمّ الهند وفيها تتّقف عقلي، فأيران بحكم الجوار والرّوابط، فجزيرة العرب من حجاز، هو مهبط الوحي، ومن يمن وتباعتها، ونجد والعراق وبغداد وهارونها و مامونها، والشّام ودهاه الأمويّين فيها، والأندلس، وهكذا كلّ صقع

2 - ستودارد: مصدر سابق ، ج 2 ، ص305.

3 · جمال قنّان: panislamisme et panturquisme, revue du monde musulman, volume XXII , mars 1913, pp179-206

4- عمارة : نفس المرجع، ص131.

5 - عمارة : جمال الدين الأفغاني المفترى عليه، نفس المرجع ، ص129.

6- نفسه ، ص 129.

1 - د.جمال قنّان : نظرة حول حركة الإصلاح.....،مقال سابق،ص25.

ودولة من دول الإسلام، وما آل إليه أمرهم، فالشرق شرق، فخصّصت جهاز دماغي لتشخيص داءه، وتحزّي دواءه، فوجدت أثقل أدواءه داء انقسام أهله ونشئت آراءهم واختلافهم على الاتحاد واتحادهم على الاختلاف، فعملت على توحيد كلمتهم وتنبههم للخطر الغربي المحقق بهم»².

لقد أدرك الأفغاني عالميّة الحضارة الغربيّة، التي فرضت في العصور المتأخّرة كخيار لا مناص منه، كما أن هذه الحضارة إنّما رقيّها بالعلم، ولا تتورّع عن استخدام كل الوسائل الحربيّة والسياسيّة بغية فرض السيطرة على المسلمين، أو (الشرقيين) على حدّ تعبيره في ظلّ نخلف الشرق وانحطاطه.

كما أدرك أنّ نخلف الشرقيين، إنّما هو ضعف في العقيدة، ونخلي عن العلم، وقد قال في هذا الشأن: «ثمرّة العقول لا تجتنى إلا بإطلاقها من قيد الأوهام، قيد الأغلال أهون من قيد العقول بالأوهام»³. لم يكن يرى أبدا قطيعة بين العلم والدين، ويعتبر ردّه على المستشرق الفرنسي ارنت رينان Renan. وكتابه "الإسلام والعلم". خير دليل على ذلك بما ضمّنه في كتابه "الرد على الدهريين".

كما أدرك ببصيرته النافذة وسعة اطلاعه وتنوّع شخصيّته، أنّه لا يمكن الحديث عن نهضة للمسلمين، أو إصلاح لحالمهم، في ظل الجمود الفكري، والتعفن السياسي، والاستبداد الذي كان قائماً. لذلك فهو كان يرى ضرورة دكّ عروش المستبدّين.

ويرى الأستاذ مالك بن نبي أن "الباعث الحقيقي الذي غرس في ضمير هذا الرّجل إرادة الإصلاح، هو ثورة "السيبايس" بالهند، التي أخذت بالدماء. والذي فهمه أنّه دليل الإفلاس وقد تبع هذا الإفلاس بفشل فكري تجسّد في جامعة عليكرا وصاحبها احمد خان.¹

يحدّد الشيخ مصطفى عبد الرّازق آراء الأفغاني الإصلاحية والسياسية في:

1- خلاص هذه الأمم من سلطان الأجنبي .

2- خلاصها من الحكم الاستبدادي .

3- تلاؤمها بنوع من الوحدة يقوّي التناصر بينها ويكفل لها الغلبة.

ثمّ يستطرد قائلاً: «وحسب جمال الدين من عظمة ومجد، أنّه في تاريخ الشرق الحديث، أول داع إلى الحرية وأول شهيد في سبيل الحرية»².

2 - جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده : العروة الوثقى، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، 1389 هـ / 1970 م ، ص 13.

3 - محمود قاسم: موقف الأفغاني من الإصلاح ، الثقافة ، العدد ، يوليو-أغسطس 1984 ، ص 17.

1- مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي ، ت. عبد الصبور شاهين ، دار الفكر، دمشق ، ط5، 1986 ، ص 50.

2- الأفغاني وعبده: العروة الوثقى، نفس المصدر ، ص 29.

وكان الأفغاني يرى أن لا منقذ للعالم الإسلامي، إلا باتحاد أهله في جامعة إسلامية، داخل إطار خلافة، تجعل الدين والدولة شيئاً واحداً، وتسير على نهج الخلفاء الراشدين، ويرفض الوقوف بفكرة الوطن عند حدوده الضيقة.

لذلك كان يحض الناس على التغيير والإصلاح، وكانت مصر التي حلّ بها في عام 1871، عزاءه في التغيير، وقد التفت من حوله طائفة من الشباب المتحمّس للتغيير، ومنهم الشيخ محمد عبده. وبعد حمد حميد في الإصلاح بمصر، أبعده السلطات المصريّة، بإيعاز من عدوه اللدود بريطانيا، فاتجه إلى الهند، وضيّق عليه إلى غاية تحقيق الاحتلال البريطاني بمصر، وخيبة ثم محنة الوطنيين فيها بزعامة احمد عرابي، كما نفي رفيق دربه الإمام محمد عبده إلى لبنان، بحجة التحريض أو مساعدة الثورة. ليتجه الأفغاني إلى أوروبا، ويستقرّ به الحال في العاصمة الفرنسيّة باريس، ثم يلتحق به الشيخ محمد عبده، لتبدأ مرحلة جديدة من النضال والإصلاح، أهم معاملة إصدار جريدة العروة الوثقى، في سنة 1883.

صدر العدد الأوّل من العروة الوثقى في 13 مارس سنة 1883م. من قبل جمعية العروة الوثقى والظاهر أنّها تأسست قبل حلول الأفغاني بباريس، ولها أعضاء في مصر والهند والأستانة، و ذكر المؤرخون منهم الأمير عبد القادر الجزائري.³ وهي جمعية سرية تتمول من اشتراكاتهم. غير أن الباحثة الأمريكية بكدمان ، شككت في مصادر تمويلها، وتعتقد بوجود يد خفية وراءها، لتحقيق مصالحها، مثل الحديوي إسماعيل المطاح به، والذي كانت له على ما يبدو بعض الطموح في منصب الخلافة.¹

لقد كشفت الجريدة عن أهدافها، في افتتاحية العدد الأوّل بقولها: « سيأتي في خدمة الشرقيين على ما في الإمكان، من بيان الواجبات، التي كان التفريط فيها موجبا للسقوط والضعف، وتوضيح الطرّق، التي يجب سلوكها لتدارك ما فات، والاحتراس من غوائل ما هو آت.»²

وتعتبر العروة الوثقى، لسان حال الجامعة الإسلامية، من خلال ربط الصلات وتقويتها بين الأمم الإسلامية، والواقع أن تواجدتها بفرنسا، منعها من التفاعل مع قضايا المغرب العربي كجزائر وتونس، الخاضعتان لاحتلالها. يقول الأستاذ احمد أمين أنّ « العروة الوثقى لم تول أي اهتمام للجزائر وتونس اللتان كانتا ترضخان للاستعمار الفرنسي ص.»³

3- أشارت بعض المصادر إلى عضوية الأمير عبد القادر الجزائري في جمعية العروة الوثقى، ولعل ما يؤكد ذلك الصداقة التي كانت تجمعها بإعلامها، ومنهم الشيخ محمد عبده الذي كانت له معه مراسلات .

86- pakdaman Homa: **Jamal Eddine assad abadi ,dit afghani**,maison neuve et la rose, t5 , paris, 1966, p96-100.

2- الأفغاني و عبده: العروة الوثقى ، مصدر سابق ،ص 47.

3- احمد أمين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث، موفم للنشر،الجزائر، 1990،ص 388.

و بذلك نجحت فرنسا في صرف أنظار دعاة الجامعة الإسلامية عن سياستها الاستعمارية ، فخلت مواضع العروة الوثقى من التعرّض إليها. على الرّغم من ذلك فقد كان لها رواج واسع بين الجزائريين والتونسيين، وكانوا شغوفين بقراءتها وتتبع مقالاتها. و كانت حصتهم منها (عشرون عددا) غير أن « النسخة الواحدة، من جريدة ما يطالعها أكثر من قارئ واحد»⁴ ورغم قصر عمرها، (صدر منها ثمانية عشر عددا فقط) . فقد كان لها صدى واسع، وكانت أهمّ جريدة في العالم الإسلامي على الإطلاق في أواخر القرن التاسع عشر، يقول الأستاذ على مراد « إن هذه الجريدة المستوحاة مبادئها من الجامعة الإسلامية، قد شكّلت فترة هامة في تاريخ الفكر الإسلامي الحديث ».⁵ أما عن أسباب توقّفها فأهمّها:

أولا: الضغوط التي مارستها عليها بريطانيا، حيث ضيّقت عليها الخناق، ومنعتها من الوصول إلى مستعمراتها في الهند ومصر وفرضت غرامة مالية على مقتنيها .
ثانيا: الصعوبات المالية، بحيث كانت معظمها توزّع بالمجان .

وهناك عامل ثالث، أشار إليه الأستاذ علي مرّاد، هو اختلاف المنهج الإصلاحي والمزاج بين الأفغاني وعبدّه، فالأوّل كان حاد الطّبع شديد المراس، يميل إلى الثّورة، أما محمّد عبده فكان يميل إلى التّغيير الهادئ.¹

افترق الرّجلين بعد آخر عدد من العروة الوثقى الذي صدر في السّادس عشر من أكتوبر من عام 1884م. فعاد عبده إلى بيروت، ومنها إلى مصر بعد التّرخيص له بدخولها .
أما الأفغاني فقد بقي متجوّلا بين فرنسا وبريطانيا حتى عام 1885م. ثمّ سافر إلى بلاد فارس وروسيا في الفترة ما بين (1885-1889). وخلال كل تلك الملحمة لم تفتر له عزيمة، ولم يأخذ اليأس، بل ظلّ مواصلا لمهمّته في إطار الإصلاح والجامعة الإسلامية .

أمّا اعتلاء السّلطان عبد الحميد الثّاني ، سدّة الخلافة في عام 1876، وتبنيّه سياسة الجامعة الإسلامية، فقد أثّج صدر الشّيخ الأفغاني، ومنحه بريقا من الأمل، كما انه أبدى إعجابه الشديد بدهاء وحنكة السلطان، وقد عبّر عنه بقوله : « إنّ ما رأيته من يقظة السّلطان، وشدّة حذره، وإعداده العدة اللازمة لإبطال مكائد أوربا، وحسن نواياه واستعداده للنّهوض بالدّولة، هو الذي دفعني إلى مدّ يدي

4- د. احمد صاري : شخصيات وقضايا من تاريخ الجزائر المعاصر، المطبعة العربية بغيرداية، الجزائر، 2004، ص181.

5 - Merad: l'islam contemporain , op.cit , p 34 , note, no. 01

1 - ibid.P34.

له، فبايعته بالخلافة والملك»². وزادت همته فطرح مشاريع عديدة بهذا الشأن، منها مشروع الاتحاد بين أفغانستان ومقاطعة التركستان الصينية وبلوخستان، وطلب من السلطان الدعم والمباركة، إلا أن مشروعه لم يرى النور. ونفس المصير لقيه مشروعه الثاني بإقامة الاتحاد بين الدولة العثمانية وإيران وأفغانستان الذي طرحه بين سنتي (1885-1886). محاولا تجاوز الخلافات المذهبية، وقد أعجب السلطان عبد الحميد الثاني بأفكار الأفغاني فقال السلطان « لقد قوى علي هذا الشيخ في التقارب، فإذا تحققت هذه الأمنية تحقّق به انجاز الإسلام »³. سافر الأفغاني لهذا الغرض إلى إيران، لكن السلطات الإيرانية وعلى رأسها الشاه ناصر الدين، تحفظت من المشروع، ليتّم طرده من البلاد بكيفية مهينة لا تليق بمقامه، ليستقره الحال في لندن ويتّصل به السلطان عبد الحميد الثاني يدعوه إلى الأستانة، اشترط جمال الدين الأفغاني الالتزام بدفع الاتحاد الإسلامي إلى الإمام، وهنا برزت فكرة عقد مؤتمر إسلامي بالأستانة، تحضره مختلف الشخصيات الإسلامية الفاعلة.

غير انه لم يكتب له التّجّاح بسبب المثبّطين في الداخل، والمتأمّرين من الخارج. وقد أصاب الشيخ إحباطا شديدا لفشل محاولاته العديدة، في بناء صرح الجامعة الإسلامية. وقد عبّر الشيخ محمد أبو زهرة عن تلك الحنية بقوله: «لقد نادى جمال الدين الأفغاني بضرورة إنشاء جامعة دولية إسلامية، وما كانت لدعوته استجابة، إلا حثّ الشعب الإسلامي عليها، وإنهاض الأمة الإسلامية للاتّجاه نحوها. وطوّف في أرض الإسلام ما طوّف يحرّض ويجمع، وما دخل إقليمًا إسلاميًا إلا أبيض أهله، وأزال الغمة، وحاول بعث الهمة ولكن لا يلبث حكّام المسلمين أن يخرجوه من أرض الإسلام حتى الجاوه إلى دار الكفر، فظنّ انه يستطيع أن ينادي من أرض غير إسلامية ليجمع الأمة الإسلامية، زاعما ناهل أوربا أحرار كما يوهمون المسلمين، فاتّخذ منبره هناك في مجلّة العروة الوثقى ولكن ضاقت صدورهم حرجا بها، فألغوها بعد بضعة أعداد، فاخذ يطوف، وقد أعطاه الله قوّة روحية مؤثّرة، فأراد أعداء الإسلام أو أعداء الوحدة الإسلامية أن يمنعوه فلم يجدوا إلا أن يلجئوه إلى ما كان يسمّى دار الخلافة الإسلامية في ملك آل عثمان، فاستضافه من كان يسمّى نفسه أمير المؤمنين، وهو سلطان آل عثمان فدخل القسطنطينية وكان السّجن لذلك الحكيم، فانقطع صوته الذي كان يدوي، ويعلن صوت الحقّ في وسط جلجلة الباطل، ومنع شخصه من التّجوال في الأقاليم الإسلامية...»¹

2- عمارة : جمال الدين الأفغاني المفترى عليه، مرجع سابق، ص 181.

3- السلطان عبد الحميد الثاني : مذكراتي السياسية 1891 -1908 (نسخة الكترونية) .

1- محمد أبو زهرة: الوحدة الإسلامية، دار الرائد العربي، بيروت لبنان، (د.ت)، ص 6.

توفي بالإقامة الجبرية في الأستانة عام 1897. وبوفاته طويت صفحة هامة وخصبة من تاريخ الجامعة الإسلامية.² يقول مالك بن نبي : « إذا كان جمال الدين الأفغاني باعث الحركة الإصلاحية، ورائدها وما زال بطلها الأسطوري في العصر الحديث، فإنه لم يكن في ذاته (مصلحا) بمعنى الكلمة». ³ في إشارة إلى ماخذ على منهجه الإصلاحي . لكن الكاتب والروائي الجزائري علي الحامي صاحب رواية "إدريس" الشهيرة ، و احد دعاة الجامعة الإسلامية المغمورين فيقول : « لسوف تذكر البلاد الإسلامية جميعا اسم جمال الدين كما تذكر بلاد اليونان اسم "هوميروس" بين الخالدين من أبنائها . » .
ومها يكن فقد ترك وراءه مدرسة إصلاحية وقاعدة صلبة يمكن الاستناد عليها، وجيلًا من المصلحين والشباب المتحمّس للإصلاح والتغيير، سيضطلع بالمهمة من بعده، ولا شك أن الشيخ محمد عبده هو احد أولئك العظماء .

الشيخ محمد عبده :

ولد الشيخ محمد عبده عام 1266هـ / 1849 م ، في قرية محلة نصر، من مديرية البحيرة، لأب تركماني وأم عربية. تعلّم القراءة بعد أن جاوز العاشرة من عمره، لم تفتح قريحته للعلم بادئ الأمر، لوعورة المعلومات وفجاجة الأسلوب، فغادره، التقى بعدها بالشيخ درويش الذي أعانه على تقبل المعرفة، والشغف بها، فعاد إلى الجامع الأحدي، وانكبّ على الاجتهاد وانتقل بعدها إلى الأزهر ونال الشهادة العالمية .

لما حلّ الشيخ جمال الدين الأفغاني بمصر، اتّصل به محمد عبده، وصار من مقربيه. شارك في الثورة العرابية، وحوكم بالنفي ثلاث سنين . اتّجه إلى لبنان، وأقام فيها نحو السنة، ثم غادره باتجاه باريس، ليلتقي الأفغاني ويصدرًا مع العروة الوثقى، ثم يعود بعدها إلى مصر بوساطة الأميرة "نزلي".¹
لم يتعرّض احد من زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ما تعرّض له الإمام محمد عبده من التقدير والتجريح سواء في سيرته الشخصية أو في مذهبه الإصلاحي ، تركّز التقدير والتجريح سواء من أتباعه أو خصومه على المرحلة الثانية من نشاطه الإصلاحي، أي بعد افتراقه عن صاحبه وشيخه وعودته إلى مصر عام 1886. والواقع أن ذلك لم يفسد للود قضية كما يقال، وقد يفهم النقد والتجريح بالنسبة للعلماء أحيانًا، دليل على الاستقامة في المنهج. ولاشك ان الشيخ استطاع ان ينفذ بعلمه ومنهجه الى افئدة الناس،

2- قنان : نظرة حول حركة الإصلاح، مقال سابق، 61-62 .

3- بن نبي : وجهة العالم الإسلامي ، مرجع سابق، ص 53.

1- قنانش : مرجع سابق ، ص 63-65 .

وهذا الأستاذ مالك بن نبي ينتصر لمنهج الإمام عبده ويشيد به بقوله « فالفضل في نشأة الحركة الإصلاحية واتجاهها الذي اصطبغت به، يعود إلى تلك الاستعدادات الأصيلة لدى الشيخ المصري، الذي كان بحق أستاذ تلك المدرسة.»² والواقع أن هذا هو رأي العديد من المصلحين ومنهم شيوخ جمعية العلماء. كالشيخين ابن باديس و البشير الإبراهيمي. ونستطيع أن نميّز في مسار الإمام مرحلتين، ففي المرحلة الأولى كان يسير على نهج شيخه الأفغاني في الإصلاح، وهو نهج يميل إلى الثورية أو ما يمكن الاصطلاح عليه بالزاديكالية، يقوم على تقويض دعائم الاستعمار والأنظمة المستبدّة التي تؤازره. أمّا المرحلة الثانية، فتبدأ بافتراقه عن شيخه الأفغاني بعد توقيف مجلّة " العروة الوثقى "، حيث عدل عن أفكاره الثورية، وتنصل من نهج شيخه، فخرم على نفسه الاشتغال بالسياسة وقصد الإصلاح الهادئ المرحلي بالترتيبة والتعليم.

يقول د. عثمان أمين: « إذا كان الإمام محمد عبده أول أمره، قد حمل على الانجليز حملات شديدة، فقد كان ذلك في جريدة العروة الوثقى أيام اتّصاله بأستاذه الأفغاني، فكان يكتب وهو في باريس مدفوعاً بحماسة الشباب، ومرارة المنفى، بعيداً عن وطنه ومتأثراً بآراء أستاذه الأفغاني. وقد كانت على ما يعلم الجميع - ترمي إلى الثورة سواء بتأليف الجمعيات السريّة والإذاعة بالقلم واللّسان أو استعمال العنف، وبالجملة القيام في وجه الظالمين المستبدّين سواء كانوا شرقيّين أو غربيّين »¹.

ومن هنا نفهم حجم الانتقادات التي وجهت له، ويذهب البعض إلى القول أن المزاج الهادئ للشيخ لم يؤهله إلى ما أهل صاحبه، وإن سيره في ركابه لم يكن بقناعة تامّة، وقال له شيخه مرة، "إنما أنت مثبّط"².

نشر الشيخ مصطفى عبد الرازق في مجلّة الشباب مقالا جاء فيه: « إنّ الشيخ كان يجهر أول الأمر بعداوته لانجلترا، ويكتب في ذلك فصولاً ضافيةً ». ويستطرد " لكنّه بعد اتّصاله بالأميرة " نزلي " الذي كان هواها مع إنجلترا وصديقة " اللورد كرومر "، فقد تلاشت عداوة انكلترا من صدر أستاذنا عبده، وأصبح يجهر في كتاباته ودروسه أن بريطانيا العظمى أحسن الدّول استعماراً³ وظلّت العلاقة الحميمة التي ربطته باللّورد كرومر، محلّ جدل ونقاش، وجلبت عليه الخصوم الذين اتّهموه بصدّاقة الانجليز وممالّتهم، وهو ما كان يعني التّغاضي عن الاحتلال الأجنبي وسيّاسته.

2- بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، المرجع نفسه، ص 53.

1- نفسه، ص 47.

2- محمد عبده: الأعمال الكاملة، تقديم وتحقيق د. محمد عمارة، دار الشروق، بيروت. لبنان، ج 1، 1993، ص 73.

3- قنانش: المرجع السابق، ص 63-65.

وفسر البعض تلك المودة للغرب، بأنه مركّب نقص أصاب النخبة المثقفة والإصلاحية آنذاك، التي أبهرها بريق الحضارة الأوربية على ما في العالم الإسلامي من انحطاط، وزاد من حدة هذا الشعور انتشار عقد الخلافة الإسلامية وتمزق العالم العربي. قال الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في نقده لنهج الإمام: «كيف يتسنى للمسلم الصادق أن يجاري محمد عبده في السعي إلى طي سائر الحقائق الغيبية، والتكلف في تأويلها، سواء وردت في القرآن أو السنة، لمجرد تطويعها لبرامج التحديث الغربي الذي كانت تخطط له بريطانيا بصراحة؟ وكيف لنا مجاراته في فتاوى تسويغ نسبة معينة من الفوائد الروبوتية، وتغيير الكثير من قوانين الأحوال الشخصية؟»⁴.

ولعلّ الفرق بين عبده والأفغاني، أن الأوّل نظر إلى الإصلاح من زاوية سيّاسية، في حين نظر إليها الثاني من زاوية اجتماعية. لقد كان الإمام محمد عبده يرى أن الإصلاح لا بدّ أن ينطلق من الفرد، لكنّه ظلّ أن من الضروري إصلاح علم الكلام بوضع فلسفة جديدة، حتّى يمكن تغيير النفس، لذا كتب "رسالة التوحيد".

ويعقب الأستاذ مالك بن نبي على هذا الاتجاه بقوله «إنّ المسلم لم يفقد عقيدته ولكن فقد إشعاعها في نفسه، ثم يستطرد قائلاً: إن مشكلتنا ليست في أن (نبرهن) للمسلم على وجود الله، بقدر ما هي في أن نشعره بوجوده ونملا نفسه باعتباره مصدراً للطاقة»¹.

وصفه الأمير شكيب أرسلان بقوله: «لقد كان جامعا بين العلم والعمل، فلا تجد ما يساوي فضله وبلاغته وثقوب أفكاره وقوة ملكته في الفلسفة، سوى علو مبادئه وبعد همّته وغازة مروءته وطهارة أخلاقه، وهيئات أن يأتي الزمان بمثله.»² ومساهماته الفكرية الثريّة، وتنقلاته وإطلاعه على أحوال المسلمين، والاهتمام بشؤونهم، كزياراته لشمال إفريقيا (الجزائر وتونس). كلها من الانجازات الهامة للرجل خدمته للإسلام، وثقّقدا لأحوال المسلمين.

قد عبّر الأستاذ "برهان غليون" ببراءة عن فكر الشيخ محمد عبده عندما قال: "لم يكن محمد عبده فيلسوفا ولا مؤرخا أو عالم اجتماع حتى يترك نظريّة متكاملة في التطوّر الإنساني والتاريخي. ولكنّه كان

4 - د. محمد سعيد رمضان البوطي: حوار حول مشكلات حضارية، الدار المتحدة للطباعة والنشر، مكتبة رحاب، الجزائر، ط3، 1990،

ص، 38.

1- بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، المرجع نفسه، ص 54.

2 - ستودارد: نفس المصدر، ج1، ص 283.

مصلحا اجتماعيًا أراد تغيير الأوضاع التي كانت سائدة في عصره نحو الأفضل، وكانت فلسفته النظرية وسيلة في خدمة الإصلاح وتأكيد شرعيته وشروطه".³

الشيخ عبد الرحمن الكواكبي :

يعتبر الشيخ عبد الرحمن الكواكبي (1848-1902)، من أكبر المصلحين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ورغم انه لم يعمر طويلا، لكنّه ترك تراثا معتبرا ، وبصمات واضحة في مسار الإصلاح والتّجديد، عالج الشيخ مشاكل الأمة العربيّة والإسلاميّة بعمق وإسهاب، كما تميز بمعارضته للحكم العثماني، وبعده من أسباب التخلف في العالم الإسلامي.

لقد وضع عبد الرحمن الكواكبي تصوّره لمشروع الجامعة الإسلاميّة في كتابه " أمّ القرى ". فعلى ضوء التّصوّر التّخييلي الذي وضعه لمؤتمر مكّة المكرمة وبمشاركة نخبة من العلماء من المشرق والمغرب - لم يشر الكاتب إلى عالم واحد من الجزائر - وضع تصوّرا لجدول أعماله، والتي تمحورت حول موضوع الانحطاط والفتور الذي أصاب الأمة، وأقعدها عن أداء مهامها التاريخية والحضارية، بل وجعلها عرضة للغزو والتسلّط الأجنبي .

وتوصل المؤتمر - التخييلي - إلى تشخيص أسباب الضّعف والتي أرجعها إلى ثلاثة أنواع من الأسباب ، دينية سياسية وأخلاقية. وذكر من الدينية أصولية وفرعية منها: تأثير عقيدة الجبر على الأمة ، الجدل في العقائد، التشدّد الفقهاء المتأخرين في الدين ،إدخال البدع والخرافات و مظاهر الشرك. وغيرها، حيث أحصى اثنان وثلاثون سببا، أما الأسباب السياسية فكثيرة أيضا أهمها:

- السياسة المطلقة من السيطرة والمسؤولية حرما العلماء العاملين وطلاب العلم من الرزق الكريم - قلب موضوع اخذ الأموال من الأغنياء وتوزيعها على الفقراء.

إضافة إلى أمور فرعية أخرى كحرمان الأمة من حرية القول والعمل، وفقدان الأمن والأمل، وفقدان العدل والتساوي في الحقوق بين طبقات الأمة، وحماقات أكثر الأمراء وتمسكهم بالسياسات الخرقاء، والإصرار على الاستبداد. كما أرجعها أيضا إلى أسباب أخلاقية حصرها في سبعة عشر سببا منها: الاستغراق في الجهل والارتياح له - وانحلال الرابطة الدينية وفقدان القوة الاشتراكية ومعاداة العلوم العادية.

أما الفرعية منها فهي، الخمول ولكسل، وفساد التّعليم، وغلبة التخلّق بالتملق تزلفا وصغارا، وتفضيل الارتزاق بالجندية على الصّنائع.¹

3- برهان غليون : الوعي الذاتي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ج1، 1972، ص318.

1- السيد الفراتي: (عبد الرحمن الكواكبي)، أم القرى، القاهرة، 1931، ص ص 137-141.

«أتجه الكواكبي اتجاهها صريحا نحو الإعداد للثورات المسلّحة، التي كان يرى فيها الوسيلة الوحيدة الكفيلة بتحرير الشعوب الإسلاميّة من الاستبداد السّياسي، الذي يمثّل في الحكم الملكي الفاسد، أو الاستعمار الصريح والمقنع، ومن الاستبداد الرّوحي الذي تمثّله طائفة من العلماء الأديعاء ومن المتصوّفة»².

وقد انتقد الكواكبي كثيرا الطّرق الصوفيّة وفضح أساليبها، « التي تتحالف عادة مع المستعمرين وتحاول قتل الروح الإسلاميّة في الشعوب ، تمكينا للغاصب من أبناء ملتها ، أو مساندة للملوك المستبدين الذين لم يفقدوا بعد ملكهم»³. المتصوّفون طبقة أرستقراطية جديدة، تنفع من العامّة باسم الدّين، وهكذا نفهم أسباب دعم الاستعمار للطّرقية وتشجيعه لها، وهو يقّر دوما بأنّ نهضة الشّرق بثورته على الحكم الملكي الاستبدادي الفاسد وحلفاءه.

كما يحدّد مفهوم الثّورة على الاستبداد والأخطار التي قد تهدّد نجاح الثّورة، ومنها وجوب تحديد الأهداف بشكل واضح، وسدّ باب الفتن والخلافات وإشراك العامّة.

والذي يميّز الكواكبي عن غيره من معاصريه هو عدم الاعتراف بأحقّيّة الخلافة لآل عثمان، فهو يرى أنّهم احد أسباب البلاء في الأمّة، سيّاساتهم وسلوكهم المنافي للعقيدة، والمؤذي للعرب وقد قال في هذا الشّأن « إنّ الحكم الإسلامي الحق والجامعة الإسلاميّة، لم يوجد إلا على أيدي العرب أصحابها الحقيقيين لظهور الدّين فيهم. ولا يمكن لغيرهم الادّعاء، بما في ذلك التّرك»¹. ولعلّ هذا يعود أيضا إلى الاضطهاد الذي تعرّض له هو وعائلته من طرف الولاة العثمانيين في بلاد الشام.

2- الجامعة الإسلاميّة من منظور الجيل الثّاني :

مما لا شكّ فيه أنّ فكرة الجامعة الإسلاميّة، كانت فكرة خالصة لرواد الجيل الأوّل من المصلحين، وهم الذين وضعوا لها التّصور، وحدّدوا لها الإطار ، وناضلوا من اجلها بكل جهودهم. وقد رأينا أيضا أنّ الشّيخ جمال الدّين الأفغاني هو صاحب الفكرة، ولو أنّ هناك العديد منّ تبنّوها أو تقمّصوها عن حقّ أو باطل.

وقبل أن نشرع في تبيان تصوّر الجيل الثّاني للجامعة الإسلاميّة، لا بدّ من طرح التّساؤل الثّالي - هل يعتبر الجيل الثّاني استمرارا طبيعيا للجيل الأوّل، أم أنّ هناك تمايز بين المرحلتين ؟

2- محمود قاسم: الإصلاح بين الكواكبي والسّنوسية، مجلة الثقافة ، العدد 95، الجزائر، سبتمبر-أكتوبر 1986، ص 129.

3 -محمود قاسم: نفس المقال ، ص 130.

1 _ محمد الصالح المراكشي : تفكير الشّيخ رشيد رضا، مرجع سابق ، ص 114.

ونيل إلى رأي الدكتور جمال قنّان، أي الفرضية الثانية²، بمعنى وجود بعض التمايز بين الفترتين، لكن دون حدوث قطيعة بين الجيلين، على أساس أنّ هناك تصوّر جديد ظهر عندما بدأت تتجسّد الفكرة في شخص السلطان عبد الحميد الثاني، وربطها أساساً بمؤسّسة الخلافة المتضعفة، والأفغاني على الرّغم من تعاونه مع السلطان عبد الحميد الثاني إلا أنه كان يرى الجامعة الإسلاميّة كرابطة للملّة المحمديّة كلّها، على اختلاف مذاهبها ومشاربها، وليس في إطار الرّابطة العثمانيّة كما تصوّرها خلفاؤهم. أي أن « يكون سلطان المسلمين القرآن ووجهتهم الدين وكلّ ذي ملك على ملكه يسعى بجهد له لفظ الآخر»³.

لقد ظهر على واجهة الأحداث في العالم الإسلامي، علماء ومصلحون، اضطلعوا بمهمّة بعث الجامعة الإسلاميّة والاستمرار، في السبيل التي بدأها الشّيخين الأفغاني وعبدّه. والواقع أنّ لكلّ زمن رجاله وأفكاره، وإنّ الناس أبناء زمانهم يتأثّرون بما يحيط بهم من الحوادث والتغيّرات، ويتفاعلون معها سلبيّاً أو إيجاباً، ولا بد من إقرار أمر هام في اعتقادنا، لفهم صيرورة الحركة في الزّمان والمكان، وهو ازدياد سيطرة الغرب على مصير العالم الإسلامي، بل إنّ الغرب سيتحوّل في المرحلة اللاحقة، إلى تدشين آخر فصل من فصول الصّراع مع الدّولة العثمانيّة والجامعة الإسلاميّة.

وهو ما عرف تاريخيّاً، بتصفيّة المسألة الشرقيّة، ممّا استوجب على المسلمين علماء وحكّاماً، العمل على توثيق عرى الأخوة والتآزر والاتّحاد. ويمثّل الشّيخ رشيد رضا أحسن معبر عن أماني وطموحات الجامعة الإسلاميّة وأفضل من مثل فكر شيوخه الأفغاني وعبدّه.

الشّيخ محمد رشيد رضا :

يعتبر الشّيخ رشيد رضا، من أهمّ أقطاب الجيل الثاني من دعاة الجامعة الإسلاميّة، بالنظر إلى نشاطه الدّوّب في سبيل الجامعة الإسلاميّة، ويمكن اعتبار فكره قاسماً مشتركاً بين شيوخه الأفغاني ومحمد عبده.

فهم رشيد رضا الجامعة الإسلاميّة في اتّجاه السلطان عبد الحميد الثاني نفسه، أي في معنى الرّابطة العثمانيّة الخالصة. التي تجمع المسلمين في الدّولة على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وعاداتهم، والذين يقع على عاتقهم حمايتها والدّفاع عنها، ومؤازرة السلطان في مواجهة القوى المتربّصة، اعتماداً على الرّابطة السياسيّة التي تجمع كلّ العناصر (الولاء) ورابطة العقيدة الدينيّة.

2- قنّان : نظرة حول الإصلاح.... ، مقال سابق، ص59.

3-الأفغاني: الأعمال الكاملة، تحقيق د.محمد عمارة،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ج1،ط1، 1979، ص345.

وتعتبر مجلة المنار أهم صوت للجامعة الإسلامية عند أبناء هذا الجيل، وهي على خلاف العروة الوثقى، فقد استمرت فترة طويلة من الزمن (1898-1935)، بل واصل الشيخ حسن البنا مسيرتها إلى غاية سنة 1940م*.

وبإمكاننا القول أنها كانت من أهم جرائد العالم الإسلامي شهرة بعد العروة الوثقى، تميّزت بأفكارها المتنوعة وانتشارها الواسع وقد جاء في كتاب " رشيد رضا الإمام المجاهد" للأستاذ إبراهيم العدوي: « إن رشيد رضا انشأ المنار لبت أفكاره في الإصلاح الديني والاجتماعي، والإيقاظ العلمي والسياسي، واستطاعت هذه الجريدة في مدة وجيزة أن تصبح المجلة الشرعية الأولى في العالم الإسلامي».¹ وقد كانت كثيرة الزواج في المغرب العربي، ولاحظ الشيخ عبده ذلك أثناء زيارته.² كان يميل إلى رؤية شيخه محمد عبده، في اعتبار التربية أهم وسائل التغيير. « قلنا ولا نزال نقول، أن التربية والتعليم هما الركبان اللذان يقوم عليهما بناء سعادة الأمة، والعاملان الرافعان إلى قمة السيادة، وهما أمران متلازمان».³

والعلم النافع عنده، هو ما يجعلنا أمة عزيزة، يحافظ كل فرد فيها على جامعته الجنسية والدينية والوطنية.¹ ومن هنا نجد أن رشيد رضا ادخل أبعادا جديدة في التربية والتعليم، والمتمثلة في تعزيز الانتماء لدى المتعلم بهويته السياسية (الجامعة الإسلامية)، وقيمها العليا الدينية والحضارية. كما دعا إلى تجديد المناهج التعليمية، من حيث الشكل فقط (أي التخلص من صيغتها التقليدية) دون المساس بجوهرها الروحي والأخلاقي، ودون تحوير في غاياتها، فالتعليم العصري في نظره " تعليم الحاد

* -الإمام حسن البنا،(1906-1949)،المؤسس والمرشد الأول لجماعة الإخوان المسلمين في مصر ، واحد اكبر الزعماء المؤثرين في الحركات الإسلامية الحديثة، أسس جماعة الإخوان في 1928، اغتيل في سنة 1949. للمزيد انظر:

د. احمد الموصلي: موسوعة الحركات الإسلامية في الوطن العربي وإيران وتركيا، مركز دراسات الوحدة العربية،بيروت،لبنان

ط1،يناير2004،صص176 - 178.

1- إبراهيم العدوي: رشيد رضا الإمام المجاهد، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، مصر، (د.ت)، ص 151.

2- العجيلي: صدى حركة الجامعة الإسلامية، مرجع سابق، ص 103.

3- المنار: المجلد 1 ، الجزء 30 ، مارس 1899 ،فاتحة العدد، ص567.

1- نفس المصدر، ص 570.

ونفرج.² وهذا مخالف لبعض أفكار المصلحين في عصره أمثال، الطهطاوي (ت1873).³ الذي تأثر بأوروبا وكان يرى التعليم في غاياته الوطنية والنفع المادي. كما أنّ رشيد رضا كرس جمده و(مناره) إلى «إحياء الإسلام الصحيح وجعله عقيدة وسلوكا دينويا وهويةً سياسيّة».⁴ أما بالنسبة للجانب العقائدي فقد كان أميل إلى عقيدة الوهابيين. أمّا على صعيد الهوية السياسيّة فقد اعتقد أنّ الإسلام دين ودنيا، وحاول أن يبرز التفاعل بين العقيدة ومشاكل الحياة الدّنيا، معتبرا نفسه استمرارا لشيوخه الأفغاني وعنده ويعتقد أنّ مقوّمات ذلك تكمن في العناصر التّالية :

- 1- العودة إلى الإسلام، وتحكيم شريعته.
 - 2- إعادة حكم الخلافة السنيّة في إطار الجامعة الإسلاميّة.
 - 3- نشر التعليم الدّيني، وتسخير الأدب والصحافة في خدمة الإصلاح.
 - 4- الابتعاد عن المعاملات الربويّة، وتحكيم قواعد المعاملات الإسلاميّة.
 - 5- الوقوف في وجه الثقافة الأوربيّة، والاكتفاء باقتباس ما هو أفيد ماديا فقط.⁵
- غير أنّ الأستاذ محمد الصالح المراكشي في تحليله المعمق لتفكير الشيخ رشيد رضا يقول انه ظلّ عاجزا عن فهم واقعه المعاصر ومتطلّباته.¹ والواقع أنّه كان أقلّ حظّا من سلفه الأفغاني وعنده، فيما يخص احتكاكه بالعالم الخارجي، والاطلاع على خبايا الثقافة الأوربيّة.

لكنه على خلاف شيخه محمد عبده، فان رشيد رضا قد اشتغل بالسياسة، وجعل من "المنار"، منبرا إعلاميا وسياسيا في خدمة الجامعة الإسلاميّة، والخلافة في إطار الرّابطة العثمانيّة، وقد قال «إن المنار قد عاهد الله تعالى، على خدمة الدّولة بصدق وأمانة، في ظلّ أمير المؤمنين السّلطان الأعظم، وخطّته

2 - المنار : المجلد34، الجزء7، ص 546.

* رفاعة بن رافع الطهطاوي (1801-1873)، عالم مصري، من أركان النهضة العلميّة الحديثة في مصر. ولد في طهطا وتوفي بالقاهرة. تعلم في الأزهر وأتم ثقافته في فرنسا على كبار المستشرقين، عرب الكتب العلميّة الكثيرة. حرر جريدة "الوقائع المصريّة"، يعتبر من رواد الصحافة العربيّة الأوائل. وتخرج عليه عدة أدياء كانوا في طليعة النهضة الحديثة.

3- محمد صالح المراكشي: تفكير رشيد رضا، مرجع سابق، ص 472-473.

4- نفس المرجع، ص 474-475.

120- نفسه، ص475.

1- نفس المرجع و الصفحة.

علمية تهذيبية، ومن أفضل أعماله تأليف القلوب تحت لواء جلالة السلطان. ² «ولكنه وجه التقدر للنظام المطلق لآل عثمان، وان هادن أصحابها في الغالب، كما اقترح صيغة اللامركزية الإدارية، وجنح إلى مبدأ منح العرب شيئاً من السلطة والتسيير، وقاوم كل الحركات الوطنية واعتبرها انفصالا وتفريقاً بين العرب والتürk، لكن بعد الانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني من طرف جمعية الاتحاد والترقي في عام 1908، تنكّر الشيخ رشيد رضا للسلطان العثماني، كما أبدى تأييده لحكومة الاتحاديين، وتحمس لشعارات التغيير التي رفعوها، لكن سرعان ما أدرك التواي السيئة التي تنطوي عليها حركتهم، فتنكر لهم، بل وقاوم اتجاههم أيضاً، ليتجه باحتشام إلى تبني فكرة القومية العربية على أسس إسلامية .

بعد نهاية الحرب العالمية الأولى وخروج العثمانيين من الشام ، انصبّت جهود رشيد رضا في محاولة إقامة دولة إسلامية نموذجية في سوريا ، وتبوأ منصب رئيس المؤتمر السوري العام ، وقد مكنته من تطبيق بعض أفكاره الإصلاحية ، إلا أنّ جهوده سرعان ما انهارت باحتلال فرنسا لسوريا، مما جعله يشارك في النضال ضد الاستعمار بالقلم من خلال المنار ، كما سافر إلى أوروبا لرفع قضية وطنه أمام عصبة الأمم ³.

عاد رشيد رضا إلى مناقشة قضية الخلافة والجامعة الإسلامية بعد الحرب العامة وتوقيع معاهدة " سيفر " ، فكتب رسالته الشهيرة حول الخلافة الإسلامية سنة 1922. لقد وجّه رسالته أساساً إلى الشعب التركي معتبراً أنه اقدر الشعوب على إحياء الخلافة والحضارة الإسلامية.

قسم رسالته إلى شقين ، نظري دعا فيه إلى إعادة تأسيس الخلافة الإسلامية على أساس إسلامي أصيل واجتهاد عصري لفهم القرآن والسنة⁴. أمّا في الشق العملي فقد اقترح حلولاً عملية لإعادة مجد الخلافة، بإقامتها في منطقة وسطى بين بلاد العرب والتürk وحدد لها مدينة "الموصل" في شمال العراق ، ثم تنضمّ البلاد الإسلامية لها تباعاً. وفي الواقع أنّه كان مثاليًا في طرحه، فقد جاء الواقع مغايراً لتوقعاته، حيث لجأت القيادة التركية الجديدة إلى إلغاء الخلافة في عام 1924 .

ويسجل عليه بعض الباحثين، ومنهم الاستاذ محمد الصالح المراكشي في دراسته، موقفه المهادن للانجليز، ومجاملتهم أحياناً، خاصة قبل الحرب العالمية الأولى (1914-1918) ، وهو ما يذكرنا بموقف شيخه محمد عبده، وصداقته للورد " كرومر " . ولعلّه من باب التقيّة ، ذلك أن الحركات الإصلاحية عامة ما كان

2 - المنار: المجلد1، الجزء 5. (ابريل 1898) ، فصل: المنار في بلاد الإسلام، ص88 ،وما بعدها.

3- احمد علي سالم : الإصلاح السياسي عند الشيخ رشيد رضا بين بناء دولة إسلامية نموذجية وإقامة الجامعة الإسلامية ،مجلة الكلمة، العدد 24 ، 1999، ص75.

4- محمد رشيد رضا : الخلافة، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة، 1994، ص77.

يتسنى لها العمل والنشاط دون مهادنة السّطات الاستعماريّة، التي كانت ولا شكّ تتحيّن الفرص للإجهاز عليها وتصفيّتها، كما أنّه كان يعتقد أن أفكاره التّقدميّة في نظريته إلى الخلافة، قد تجد مباركة من الدول الغربيّة، وهو حسن ظنّ في غير محله، وكان مصير جهوده تماثل مصير جهود الذين سبقوه إلى هذا الميدان.

والواقع أن قائمّة مفكّري ودعاة الجامعة الإسلاميّة من الجيل الثّاني كثيرون، نهلوا من معين الشّيخين الأفغاني ومحمد عبده، وذهبوا في فهمهم وتصوّرهم للجامعة الإسلاميّة كلّ مذهب، وهو في الواقع شأن كلّ فكرة إذا تشعّبت، وكل حركة إذا كثر أنصارها واتّسع نطاقها. وإذ لم نشر إلى كلّ أولئك، فلأنّ المجال لا يتسع لذلك، ونحن نأخذ ما يخدم الموضوع الذي نعالجه، ولعلّ من أهم أنصار الجيل الثّاني الذين تركوا بصماتهم واضحة في مسار الجامعة الإسلاميّة، عبد الله نديم ومصطفى كامل، مؤسس الحزب الوطني في مصر، والأمير شكيب ارسلان.

لقد اشتهر عبد الله نديم من بين تلامذة الأفغاني بالخطابة، والتّبرة الثّورية، خاصّة إثناء الثّورة العرابيّة. اتجه بعد الثّورة إلى فلسطين، وأقام بها سنة، ثم عاد إلى مصر، ويؤسس جريدة الأستاذ، والتي كانت على خطى العروة الوثقى في أسلوبها، لكن الظروف العامّة في ظلّ الاحتلال أجبرته مرة أخرى، على التوجّه إلى فلسطين ومنها إلى الأستانة، توفي في سنة 1896. وقد كان شاعرا يولي اهتماما كبيرا للسياسة.¹

أما مصطفى كامل (1874-1908)، فهو مؤسس الحزب الوطني المصري، ناشدا الاستقلال، وكان يعتقد بتدخّل قوّة أوريّة لإزاحة بريطانيا، فزار معظم الدّول الأوريّة والأستانة، وربط علاقات مع السّاسة الأوريين والصّحافة خاصّة في ألمانيا وفرنسا.² فلما يؤسس، (خاصّة بعد توقيع الاتّفاق الودّي الفرنسي-البريطاني في سنة 1904)، ولّى وجهه شطر الخلافة العثمانيّة، واضعا أماله العريضة على حركة الجامعة الإسلاميّة.

انشأ جريدة اللّواء في (يناير 1900)، وكان يستهدف إثارة المصريين، وتحريضهم ضدّ الانجليز، معتبرا حزبه امتدادا طبيعيا للحزب الوطني، الذي ظهر أيّام تواجد الأفغاني بمصر، ولم يكن على وفاق مع محمّد عبده، لاختلاف منهج الإصلاح وطريقته بين الرجلين، ففي الوقت الذي كان مصطفى كامل يسعى إلى الثّورة، وتقويض دعائم الاحتلال البريطاني، ويستعين في ذلك بإثارة عواطف الجماهير

1- محمد قنانش : المواقف السياسية بين الإصلاح والوطنية، مرجع سابق، ص 78.

2- للاطلاع أكثر على نشاطه السياسي انظر:

د.محمد عمارة:الجامعة الإسلامية والفكرة القومية عند مصطفى كامل. دار الشروق، مصر، ط1، 1414هـ/1994م.

وتأجيج مشاعرهم الوطنيّة، ولا يتورّع بالاستعانة بأطراف خارجيّة للتّحالف معها ضدّ الانجليز، كفرنسا أو ألمانيا، ثم الدولة العثمانيّة، في الوقت الذي كان محمد عبده، يسعى إلى التغيير بالتربية والإصلاح كما أسلفنا في موضع آخر. ونتج عن الاختلاف بين الاتجاهين بعض المزايدات بينهما على أعمدة الصحف آنذاك، فكان أتباع مصطفى كامل من الوطنيّين المتحمّسين، يتّهمون خصومهم من الإصلاحيّين بالضعف والتزلّف للمحتلّين، في حين يرى المصلحين أن مناهج الوطنيّين غوغائيّ يتعمد أسلوب التّهريج والتّهيب، ويستهدف إثارة الجماهير الجاهلة ودفعها إلى معركة غير متكافئة.

لقد وجد مصطفى كامل عزاءه في الشّيخ عبد الله نديم، الذي كان ينتصر لمذهب الثّورة على المحتلّين وعدم مهادتهم، كما لا يرى هذا الاتجاه تناقضا بين الوطنيّة والجامعة الإسلاميّة، ويرى أن الجامعة الإسلاميّة لا تعني انعزال المسلمين عن بقية العالم، أو سعيهم لإبادتهم. فيقول: « إن حركة الجامعة الإسلاميّة بمعنى الحرب الدينيّة لا وجود لها بالمرة، ولا يوجد مسلم متنور، يدعو إلى تأليف عصبة إسلاميّة ضد المسيحيّة ».¹ ويذهب رأي الأفغاني في هذا، بمعنى أن الولاء للوطن، لا يتعارض مع فكرة الولاء للأمة، بل هو جزء من كل في نظره.²

الأمير شكيب ارسلان :

ينحدر الأمير شكيب ارسلان من أسرة عريقة، استوطنت بلدة الشّويفات في " لبنان "، وأنجبت رجالا ذاعت شهرتهم الآفاق، من رجال العلم والأدب والسّياسة، ولد شكيب ارسلان بتاريخ 25ديسمبر 1869م. وقدر له أن يجمع بين الأدب والسّياسة والإصلاح، وبالإضافة إلى انتسابه لعائلة عريقة، فإن التكوين الجيد كان له أثره، فقد تعلم بمدرسة أمريكيّة وهو في العاشرة، مبادئ العلوم والجغرافيا والانجليزيّة، ثم دخل مدرسة الحكمة في بيروت، أين درس إلى غاية سنة 1886.³ على يد فطاحل اللّغة العربيّة، كالشّيخ عبد الله البستاني، وفي العام الموالي دخل المدرسة السّلطانية، حيث التقى هناك الشّيخ محمد عبده بعد عودته من باريس.

انتقل لفترة إلى مصر وتعرف على أعلامها كسعد زغلول، وعلي يوسف صاحب "المؤيّد"، ورشيد رضا، والحق أن الجو الثقافي بمصر كان في غاية العنفوان والزّخم.

1- عمارة : الجامعة الإسلاميّة والفكرة القوميّة ، مرجع سابق ، ص 47.

2- نفس المرجع ، ص ص 71-76.

3- سامي الدهان : الأمير شكيب ارسلان. حياته وآثاره، مكتبة الدراسات الأدبيّة 21، دار المعارف، مصر، (د.ت.) ص ص 65-67.

سافر إلى الأستانة في سنة 1892. والتقى هنالك بشيخ المصلحين جمال الدين الأفغاني، الذي قال له :
« أنا أهنتُ أرض الإسلام التي أنبتك ».¹

وقد كانت هذه المرحلة خصبة في تكوينه النفسي، أهلته للعب ادوار هامة في مسيرة الإصلاح، وقد
بدت عليه ملامح القيادة وحماس التغيير. وكان أساس نضاله الحفاظ على بيت الخلافة آمنا، والبيت
العربي عزيزا مستقلا.

لقد هاله ككلّ غيور على أمته، ما بلغته من التدني والانحطاط، فاجتهد كما اجتهد غيره في تشخيص
مكامن العلل وعلاجها، وقد اشرنا في مطلع هذه الدراسة إلى بعض أفكاره الإصلاحية في معرض
حديثنا عن أسباب تأخر المسلمين.

كما صار بحكم عراقة عائلته، وثقافته العالية، واعتلائه المناصب الإدارية العليا، محل ثقة السلطات العثمانية
وبالأخصّ السلطان عبد الحميد الثاني.²

لقد كان له نشاط سياسي هام، في دعم الحركات الوطنية والإصلاحية في كامل البلاد العربية
والإسلامية، بالأخصّ بلاد الشام التي ينتمي لها، وبعد إقامته في أوروبا وجه اهتمامه شطر الجزء
الغربي من البلاد العربية، كما تشهد له منطقة المغرب العربي بجهاده، سواء من خلال المشاركة في
الحرب العثمانية - الإيطالية حول طرابلس الغرب سنة 1911، أو من خلال توجيهه لحركات
الاستقلال بالجزائر والمغرب وتونس.³

وتعتبر مجلته " الأمة العربية " la nation arabe " لسانا صادقا ومعبرا عن آماني الأمة في التحرر
والاستقلال، وفي دعم الجامعة الإسلامية، التي ظلّ وفيا لها في أحلك الظروف، التي مرّت بها
الأمة العربية والإسلامية. ونشر بيان سنة 1913، بعنوان " إلى العرب، بيان الأمة العربية عن حزب
اللامركزية "، ندّد فيه بالعصبية الجنسية التي يحاول بعض العرب إثارتها، داعيا إلى التفاف المسلمين
حول الدولة العثمانية ضد الحركة القومية الضيقة والتي كانت ذات طابع انفصالي استقلالي.

وشدّد على فكرة أن لا عزّة للمسلمين إلا في الإبقاء على الخلافة، ووحدة الصف والكلمة، وأنّ
التحالف المسيحي (مع البلقائين آنذاك) لا بدّ أن يقابله تضامن إسلامي في إطار جامعهم

1- الدهان: نفس المرجع، ص 69.

2- Juliette Bessis: Chekib Arslan, et les mouvements nationalistes au Maghreb, revue historique, p 469.

3- احمد توفيق المدني: شكيب ارسلان، بطل الجهاد في كل الميادين "الثقافة"، الجزائر، عدد 76، جويلية-أوت 1976، ص 70.

الإسلامية، وخلافتهم الموقرة.¹ ولم يكن يخفى عليه عيوب الدولة العثمانية ونقائصها، لكنه كان يوازن بين شرّها وشرّ الاستعمار الغربي، ويعمل على رَأب الصدع بين العرب والأترك، لسدّ منافذ التغلغل الأوربي.

عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى في 1914، بين الحلفاء ودول الوسط، أصبح من أكبر أعوان الاتصال بين العثمانيين والألمان، واكتسب صداقة إمبراطور ألمانيا، غليوم الثاني، وكان يعتقد أن سياسة ألمانيا نزيهة تجاه العالم الإسلامي، وأن انتصارها في الحرب هو انتصار للجامعة الإسلامية.

لكن سير الأحداث كان عكس ما كان يرجو ويأمل، فانهزمت دول الوسط، وانتهت الخلافة، وفرض الانتداب على الشرق العربي، وتم تصفية آخر مشاهد المسألة الشرقية. لكنه واصل نضاله على جبهات أخرى، لقد حاول جاهدا إبراز الوجه المشرق للحضارة الإسلامية، وتبين ذلك في تعليقه على كتاب حاضر العالم الإسلامي للمستشرق الأمريكي لوثرروب ستودارد وأعمال أخرى أيضا. كما شارك في مؤتمر الجامعة الإسلامية "le congres panislamique" سنة 1920، الذي عقد بألمانيا تحت رئاسة الماريشال الألماني "لودونروف" و"انفر باشا"، علما أنّ مدينة "برلين" الألمانية تحولت خلال فترة العشرينيات من القرن العشرين، إلى ساحة مهمّة لنشاطات الجامعة الإسلامية. فقد تأسست بها العديد من النوادي والمنظمات العربية مثل نادي همبولت. Humboldt club ونادي الشرق club d'orient في سنة 1920، والذي ترأسه بنفسه، وكذا جمعية الشبان المسلمين في 1922.... الخ.²

لقد كان الأمير شكيب ارسلان كثير النشاط خلال فترة العشرينات، ينسق الجهود، ويتصل بالقادة، وينسج العلاقات، لخدمة القضايا العربية والإسلامية، والدفاع عن الخلافة. استقرّ في مدينة "لوزان" السويسرية في سنة 1921، ومن ثمّ تحوّل إلى "جنيف" في سنة 1931، وظلّ يتردّد كثيرا على برلين تحت غطاء تسيير أملاكه هناك، كما التقى بالرجل الأول في إيطاليا ورئيسها "موسوليني" في روما، سنة 1922. خاض نضالا سياسيا واسعا ضدّ فرض الانتداب على منطقة الهلال الخصيب، والشروع في تنفيذ وعد بلفور المشؤوم Balfour. والواقع أن نشاطه انصبّ حول خدمة الأماني القومية في إطار الدولة العثمانية والجامعة الإسلامية، وهذا ما جعل الوطنيين السوريين يتهمونه بالعمالة لصالح الأترك، في حين كانت مطالبهم استقلالية وانفصالية بحته.¹

1- العجيلي : صدى الجامعة الإسلامية ، مرجع سابق، ص 185-186.

Bessis: Chekib Arslan, et les mouvements nationalistes au Maghreb, *ibid*, p 471. 2

ibid, p472. 1

لقد تبين للأمير شكيب ارسلان في خضم التحوّلات الكبرى، التي شهدتها المنطقة غداة الحرب وتحول الدولة العثمانية نفسها إلى "الجمهورية التركية"، أن لا مبرر للاستمرار في التشبّث بمؤسسة انتهت واقعا . فولى وجهه شطر القومية العربية في إطارها الإسلامي، معلنا تأييده للمهاشيين والأمير فيصل بن الحسين منذ 1925. توفي في سنة 1946.

III-الدولة العثمانية والجامعة الإسلامية:

1- في العهد الحميدي (1876-1908) :

يتفق معظم الذين أرخوا للجامعة الإسلامية، سواء من الذين أنصفوها أم أولئك الذين تحاملوا عليها ، أن الجامعة الإسلامية ارتبطت سياسيًا بالدولة العثمانية، ومؤسسة الخلافة في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، وتحديدًا في الثلث الأخير منه ،ويمكن التأريخ لبدايتها ، اثر حرب القرم (1853-1856). والواقع أن تلك الحرب شددت إليها أنظار المسلمين مشرقا ومغربا، ففي الجزائر يذكر "ديبارمي" Desparmet أن الجزائريين تفاعلوا مع أحداثها، وصارت حديث الناس ومصدر الهام للشعراء والمدّاحين بالأسواق، ومنهم الشاعر بن إسماعيل.² كما أصبحت الأستانة وهي عاصمة دار الخلافة تعج بالوافدين من المسلمين، سواء للاستقرار أو للزيارة والتبرك.

يعتبر السلطان عبد الحميد الثاني، الخليفة العثماني الذي تبني فكرة الجامعة الإسلامية، ويطرح الموضوع جملة من التساؤلات التي لا مناص منها لتقضي الحقائق، هل تبني السلطان لفكرة الجامعة الإسلامية نابع عن قناعة شخصية بها أم لمستجدات ظرفية ومآرب خاصة ؟ و ما مدلول فهمه للجامعة الإسلامية ؟ ثم ما هي الغاية التي أراد تحقيقها؟

لقد تولّى السلطان عبد الحميد الثاني الحكم سنة 1876³، أي في وقت غاية في الدقة والحرج، وكان يلوح في الأفق أن الأوربيين سينفذون آخر مشاهد المسألة الشرقية، والواقع أن شخصية السلطان عبد الحميد، وقع جدل كبير حولها ، لكن على ما يبدو فإن كثيرا من الدراسات وبالخص الغربية منها ،تتحمّل عليه، تنعته بالمستبد والسفّاح والسلطان الأحمر وغيرها من الألفاظ القاسية، والغريب أن البعض يحاول إلى الآن تجريمه في الهيئات الدولية على ما اقترفه بحق الأرمن، لكن المدافعين عنه يقولون انه بفضل

2- أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية، (1830-1900) ،دار الغرب الإسلامي،بيروت،لبنان،ج1، ط1، 1992، ص 392.

3- عبد الحميد الثاني (1842-1918)، سلطان عثماني منذ سنة 1876، عرف باستبداده في مقاومة الدستور ، لقب بالسلطان الأحمر، ونعتقد أن هناك مبالغة في نعته ، مع العلم انه من الشخصيات التي أثارت جدلا واسعا بين المؤرخين بين مادح و دام، وضاعت حقائق كثيرة بين الحكمين، خلع في سنة 1909م. المصدر : المنجد في اللغة والأعلام، منشورات دار الشروق، ط8، بيروت، لبنان 1986. ص448.

سياسته، واجهت الإمبراطورية العثمانية مشاريع التصفية والتقسيم، وأطال عمر الدولة العثمانية، وهو الذي تصدى لأطماع الصهاينة وزعيمهم "ثيودور هرتزل" آنذاك.

لقد تبين للسلطان وهو في خضم تلك النكبات المتلاحقة، أن الحكم الفردي وتسلم زمام الأمور وإلغاء العمل بالدستور، هو الكفيل بإنقاذ الموقف، وقد جاء في مذكراته أن « إعلان الدستور وتشكيل حكومة نيابية في بلادنا، يعني حدوث الفوضى وانقسام الناس شيعا وأحزابا يقاتل بعضها بعضا، ويؤدى بالدولة العثمانية إلى الخراب وتعاطف الإنكليز مع الأتراك الشباب، أمر يلفت انتباهنا فهم يشجعون هؤلاء المفترين على المطالبة بإعلان الدستور، ويرفضونه لأنفسهم في الهند المستعمرة مع أن أوضاع الهند تشبه أوضاع بلادنا، حيث تعيش فيها عناصر غير متجانسة من المسلمين والنصارى والبوذيين والبراهمة، ومن الصعب جمعهم في مجلس واحد»¹.

امتاز السلطان عبد الحميد الثاني بالدهاء والمكر، يقول عنه الأفغاني: «إن السلطان عبد الحميد لو وزن مع أربعة من نوابغ العصر، لرجحهم ذكاء ودهاء وسياسة، ولا عجب إذا رأيناه يذلل ما يقام لملكه من الصعاب من دول الغرب. رايته يعلم دقائق الأمور السياسية، ومرامي الدول الغربية، وهو معد لكل هوة تطرأ على الملك مخرجا وسلما، وأعظم ما أدهشني ما أعد من خفي الوسائل وامضي العوامل، كي لا تتفق أوربا على عمل خطير في الممالك العثمانية ويربها عيانا محسوسا، أن تجزئة السلطنة العثمانية لا يمكن إلا بخراب الممالك الأوربية بأسرها»².

لقد حرص السلطان عبد الحميد على تعزيز الجامعة الإسلامية وتقوية أواصر الأخوة بها، من منطلق توحيد الأمة تحت راية الخلافة الإسلامية، على اختلاف أجناسها ولغاتها ومذاهبها فهو يصرح في مذكراته: «إن الإمبراطورية العثمانية دولة احتوت عددا كبيرا من الأمم والشعوب وتشكلت من الأتراك والعرب والأكراد والارناؤوط والبلغار واليونان والزنج حيث جمعهم الرابطة الإيمانية وجعلتهم أفرادا في عائلة واحدة، فعلينا والحالة هذه أن نعتبر أنفسنا مسلمين قبل أن نكون عثمانيين، وأن تكون صفة خليفة المسلمين فوق صفة الإمبراطور العثماني، فان الدين هو أساس البناء السياسي والاجتماعي للدولة»³.

يشكك الكتاب الغربيون في نوايا عبد الحميد الثاني من تبني الجامعة الإسلامية، معتبرين تبنيه إيّاها مناورة سياسية محضة، وليس قناعة ذاتية. وهذا المستشرق الكبير كارل بروكلمان يقول: «وليس من

1- عبد الحميد الثاني: مذكراتي السياسية، (نسخة الكترونية).

2- عمارة: جمال الدين المفترى عليه.....، مرجع سابق، ص 181.

3- عبد الحميد الثاني: المذكرات، نفس المصدر.

شكّ أنّ فكرة عبد الحميد القاضية بتدعيم مركزه كخليفة، لقيت هوى في قلوب فئة كبيرة من المثقفين وعند رجال الدين بخاصة ويحملون بأن يثوروا في وجه التفوق الأوربي»¹.

وفي نفس السياق يذهب مفكّر آخر فيقول: « لجأ عبد الحميد الثاني إلى فكرة الجامعة الإسلامية من أجل حماية سلطته الواهنة، وسلطة الأتراك في السلطنة العثمانية المترامية، ولأغراض استبدادية رجعية أو ظلامية "obscurantiste"»².

وواقع ذلك التّحامل يجد تفسيره، في محاولة السلطان عبد الحميد بعث مجد الخلافة، أو على الأقل تمديد أجلها، والتصديّ للمشاريع الغربيّة والصهيويّة. وهو الأمر الذي تمكّن منه براءة نادرة -في وقت كانت الخلافة قاب قوسين أو أدنى من السقوط - فقد نسج علاقات متينة مع ألمانيا وساستها (غليوم الثاني وبسمارك) ومنحها امتيازات اقتصادية هائلة، أعادت خلط الأوراق في المنطقة ككل.

أما داخليًا فقد جمع السلطان من حوله، زعماء العرب ومشايخ الطّرق في كل الأمصار، وأرسل الوفود إلى جميع الأقطار، للالتفاف حول خليفة المسلمين.³ بل اخذ في تشجيع الدّعوة الإسلامية في أوساط الشّعوب غير الإسلاميّة، كالسودان الإفريقي والبلقان، وكان يعول كثيرا على الطرق الصوفيّة الموالية للدولة العثمانية المتحمسة لفكرة الجامعة الإسلاميّة، كالرفاعيّة والنقشبندية والقادرية، وعمل على استمالة الشّيخ السنوسي والتيجانيين، ويبدو أنّ الطّرق لعبت دورا هامًا في إطار الجامعة الإسلاميّة على عهده، كما ساهم في نشر الإسلام في العالم، يشير صاحب كتاب حاضر العالم الإسلامي، أنّ وفداً "يابانياً" كان في طريقه للقاء السلطان بالأستانة للتعرف على الإسلام، وربما الدخول فيه، لكن ظروفًا لم تساعد على ذلك، وما يعزّز فكرة انتشار الإسلام أكثر، هو اتّساع النشاط التبشيري بشكل لافت في هذه الفترة.⁴

تابعت الدول الأوروبية باهتمام كبير تحرّكات السلطان عبد الحميد الثاني الرّامية إلى إعادة مجد الإسلام وتقويّة مركز الخلافة، وعكف القناصل الأوربيّون في تقصيّ الأمور، وإرسال المراسلات والتقارير المفصلة إلى عواصمهم، للتحذير والتّنبه إلى خطر الجامعة الإسلاميّة ونشاطاتها، وبالأخص فرنسا التي

1 - بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، مرجع سابق، ص 101.

2 - Maxime Rodinson: **marxisme et monde musulman**, édition du seuil, Paris, 1972, pp100-102 . -

3 - المحافظة: الاتجاهات الفكرية عند العرب... مرجع سابق، ص 116.

4 - للاطلاع على تفاصيل نشاطات الإرساليات التبشيرية في مطلع القرن العشرين، خاصة البروتستانتية منها أنظر:

ال.لوشاتولييه: **الغارة على العالم الإسلامي**، ت: محب الدين الخطيب ومساعد اليافي، دار مدني، الجزائر، 2002.

وانظر أيضا: حاضر العالم الإسلامي، ج2، مصدر سابق، (المبشر زويمر ومفترياته)، ص ص 268-282.

كانت تحتلّ أصقاعا واسعة من إفريقيا المسلمة . ففي رسالة من وزير المستعمرات الفرنسي إلى زميله وزير الخارجية، يرى أنّه " من الصّوري مراقبة تحركات الجامعة الإسلاميّة بانتباه شديد ، ومن اجل اخذ الاحتياطات الوقائيّة اللازمة، وطلب من زميله أن "يوافيه بمعلومات عن القوى السياسيّة التي تتحرّك في العالم الإسلامي".¹ إلا أن "نشاط الجامعة الإسلاميّة تعثر بعد الأحداث التي شهدتها تركيا في سنتي 1908-1909".² كما أن الخلافة العثمانيّة نفسها كانت تحتضر، وإنّ معاول الهدم، كانت أقوى من عوامل البناء، وقد تمكّنت جمعية الاتحاد والترقيّ من الإطاحة بالسلطان عبد الحميد الثاني، لتنتهي مرحلة هامّة من الدّعوة إلى الجامعة الإسلاميّة.

لقد كان للتطورات الفكرية الحاصلة في أوروبا صداها الواسع وتأثيرها العميق في أوساط طائفة من الشبان الأتراك ، ومن أهم تلك الأفكار فكرة القوميّة و الدولة الوطنيّة ، جاء في مقال هام بمجلة العالم الإسلامي حول هذا الموضوع بعنوان "الجامعة الإسلاميّة والجامعة التركيّة" le panislamisme et le panturquisme وصاحب المقال رمز لاسمه بحرف x، وبعد أن يبدأ بالحديث عن تموقع الديانتين المسيحيّة بالغرب والإسلاميّة بالشرق منذ العصور الوسطى ، يتكلّم عن اختلال التّوازن بينهما مشيرا إلى انخراط العالم الإسلامي وخضوع بلدانه للهيمنة الغربيّة ، ثم يعرّج إلى ظهور بوادر الإصلاح في الشرق وجهود دعاة الجامعة الإسلاميّة منذ الأفغاني، ومحمّد عبده، والكواكبي ، وأحمد خان، وصولا إلى رشيد رضا ، والطّنطاوي، والشهرستاني. وبعض علماء آسيا الوسطى، ويسهب في الحديث عن سيرة و نضال السيد جمال الدين الأفغاني، في سبيل خلق جامعة إسلاميّة فاعلة .كما يشير صاحب المقال إلى دور السلطان عبد الحميد الثاني وجهوده في إرساء دعائم الجامعة الإسلاميّة لاستعادة مجد الخلافة المتهاوي ،³ ويقول إن فتحه باب الهجرة للمسلمين، كان له اثر بارز في توطيد ملكه وتعزيز مكانته تجاه الغرب .فصارت اسطنبول تعجّ بالعلماء والأحرار، ومثلت سكة حديد الحجاز، عاملا إضافيا في تقويّة الخلافة والتّحكم في الأماكن المقدّسة بها. ويختم كلامه حول الجامعة الإسلاميّة، بخلاصة غاية في الأهميّة مفادها، انه لو أنّ دعاة الجامعة الإسلاميّة وضعوا تعريفا دقيقا لها، وحددوا لها غايات واضحة، لأمكن تحقيق نتائج ملموسة .⁴ كما يشير أيضا أن رغبة العثمانيين بتأسيس إمبراطورية واسعة تصطدم بالمعارضة الشّيعيّة وهي حاجز باتّجاه الهند واسيا الوسطى السنيّة.

1- د.جمال فنان: لمحة عن نشاط الجامعة الإسلاميّة،مقال سابق، ص193.

2 - نفسه ، ص 195.

3 - le panislamisme et le panturquisme ,op.cit., p 185.

1 - 190 . ibid, p

ويشير الكاتب في موضع آخر إلى تنامي الرابطة التركية الطورانية خلال السنتين الأخيرتين (اي بعد الانقلاب على عبد الحميد الثاني)، ومهندس ذلك الاتجاه هو "يوسف باي اكتشورا أوغلو" وهو من شمال بلاد التتار على ضفاف "نهر الفولقا" (idil)، ولكن تربى وترعرع في القسطنطينية، وانخرط في العمل السياسي والصحفي، كمدافع عن الحياة الدستورية والأفكار الديمقراطية، ينطلق في تصوّره للقومية التركية من منطلقات علمية وتاريخية، من خلال الأبحاث التي قام بها باحثون من فنلندا والمجر وأهمهم المجري "قامبيري" vambrey والذي يعتبر أيضا من الكتاب الأتراك، ومثلت رحلته إلى التركستان، وأبحاثه في أصول الأتراك منطلقا للقومية التركية، كما ظهرت في الأثناء "المؤسسة الطورانية" بتشجيع من حكومة المجر، وظهر تعاون بين بعض الأتراك والمجريين في هذا الميدان، بالأخص الصّابط الكاتب "نجيب اسام باي"، كما تحدث المقال بإسهاب عن تصوّر الصحافة التركية في تلك الفترة ويقول أنها كانت ثرية²، لكن يقول أن الفضل في كل هذا يعود إلى الباحث "اكتشورا اوغلو" صاحب جريدة "ترك يوردي" Türk-yourdi الذي سبق ذكره، وقد كتب مقالا يمثل قاعدة لمبادئ القومية التركية.

يتعرض صاحب المقال بالتّقد إلى الأطروحات الثلاث التي تميز السّاحة التركية وهي الجامعة الإسلامية، والرابطة العثمانية، والقومية التركية. ويعطي الأفضلية للطرح الأخير، أي القومية التركية، وفي معرض انتقاده لدعاة الرابطة العثمانية يقول: «إن السياسة العثمانية أرادت تكوين من خلال العناصر السكانية المختلفة في الدولة، شيء شبيه بما هو في الولايات المتحدة الأمريكية، لكنها لن تتحقّق»³

ويشرح أسباب ذلك فيقول أنها تعارض المشاعر القومية للأتراك، ذلك أنها ستنتقص من سيادتهم، وتمنح امتيازات لغيرهم في المناصب العليا والحكم، وهذا ما ينزع من دولتهم صبغتها الحقيقية، وهي أيضا على حد قوله معارضة لمبادئ الإسلام، الذي يعطي الأفضلية للمسلمين على حساب (الكفار)، وهو ما يتعارض مع رعايا الدولة غير المسلمين، بالأخص في ظل التطوّرات الحاصلة في الغرب في مجال الحقوق القومية والسياسية وهم لا يتورّعون في البحث عن الانفصال، وهي تتعارض مع مطامع روسيا وفكرة "الجامعة السلافية" panslavisme، وهي في الأخير تتعارض والتوجّه الجديد السائد في أوروبا نحو العلمانية، وإبعاد الدين عن شؤون السياسة. ويعملون جاهدين -مستندين إلى تلك المبررات- لطرد المسلمين من أوروبا.

x: le panislamisme et le panturquisme, *ibid.* p 197 - 2

ibid. p198 - 3

أما بخصوص الجامعة الإسلامية، فيشير إلى الصراع الدائم بين المسلمين والمسيحيين داخل الدولة - ذات الطابع الديني- إضافة إلى اعتبار نشاط الجامعة الإسلامية، صار يقلق الدول الغربية ، وهذه الأخيرة ستسعى إلى تفويضها والتخلص من مضايقاتها. ويقول صاحب النص أن العصبية التركية هي الأنسب رغم انه يشير إلى معارضة روسيا في تنفيذها لوجود عدد كبير من الطورانيين داخل أراضيها، على أن هناك من الكتاب الأتراك الذين انتقدوا "اكتشورا اوغلو" ومنهم "على كمال" و"أحمد فريد" ، فهذا الأخير دعا إلى استغلال كل الأطروحات السابقة الذكر لتحقيق أكبر المنافع لتركيا .

فيقول: «الجامعة الإسلامية غير قابلة للتطبيق، وآفاقها محدودة ، لكن حاليا لا بد من الاستفادة من الامتيازات التي تؤمنها لنا ، القومية التركية مستقبل زاهر لكنها غير موجودة على ارض الواقع ، ولا يمكننا استغلال شيء غير موجود، لكن السياسة العثمانية، حتى لو أنها لا تضمن مستقبل متين وواعد، فهي السياسة الأكثر سهولة ، والأكثر نفعاً في أيامنا ، وهي شرط لاستمرار سياسة تركيا .»¹

2- في عهد حكومة الاتحاديين :

استمرت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية بعد خلع السلطان عبد الحميد الثاني ، وتسلم الاتحاديين الحكم في تركيا عام 1909. لكنها استغلت من طرف النظام الجديد لتحقيق مآرب خاصة، تجلت بالخصوص في دعم الموقف الخارجي للدولة ، كما هو الحال بالنسبة للاحتلال الايطالي لليبيا عام 1911 . وتجدد الأزمات البلقانية (1912-1913)، وأخيرا اندلاع الحرب العالمية الأولى (1914-1918)، وانخراط تركيا فيها إلى جانب ألمانيا ودول الوسط .

لقد ظنّ عدد من المفكرين العرب، أن الأمر يتعلق بنهاية الاستبداد الحميدي، وان صفحة جديدة ستفتح من الحريات والإصلاحات، لكنهم اطلعوا على الحقيقة المرة، المتمثلة في إلغاء الخلافة وإقامة الجمهورية التركية الحديثة بقيادة مصطفى كمال أتاتورك.

من ابر معالم المرحلة هو تفاهم سياسة التتريك، وتبنيها من طرف أصحاب النظام الجديد، وظهر معها التعصب للجنس التركي والقومية الطورانية²، كما وظهر تهاون حكومة حقي باشا (1863-1918) ، وتقصيرها في التعامل مع النفوذ الايطالي المتزايد، وحرمان إقليم إسلامي منكوب من وسائل الدفاع الضرورية، ما جعل ليبيا تسقط في يد الايطاليين، لكن هذه الفاجعة قد ألهمت مشاعر المسلمين الذين هبوا للدفاع عن ليبيا من كل حذب وصوب، خاصة وأنها تزامنت والأزمة البلقانية فكان من مظاهرها

-1 le panislamisme et le panturquisme ,op.cit., p200· x

-2 راجع تفاصيل المقال المذكور ، «الجامعة الإسلامية والجامعة التركية» بمجلة العالم الإسلامي ، مارس 1913.

ذلك التلاحم العربي التركي في وجه الغزاة، و"بروح عجيبة تبعثها فيهم دعوة الجامعة الإسلامية".¹ غير أن إمضاء معاهدة "أوشي" بسويسرا في 15 أكتوبر 1912، وتنازل الدولة العثمانية عن ليبيا، زاد من تأجج مشاعر الغضب، وأواصر التضامن والجامعة الإسلامية في آن واحد، وقد عبر عنها عمر بن قذور الجزائري بقوله: «إن الصلح عقده عار، وإمضاؤه يوار، ونتيجته اندعار، وحاصله وبال وانحدار».²

لقد شارك المسلمون من كل الأقطار في مقاومة المحتلين، وكان الأمير شكيب ارسلان احدهم. كما ألهمت حوادث البلقان مشاعرهم بالمثل، خاصة لما رأوا ميل مواقف الأوربيين وسياستهم في اتجاه دعم أمني ومطالب البلقانيين الانفصالية، ولمسوا فيها روحا صليبية لاغبار عليها، في الوقت الذي تميّز موقف الأوربيين على اختلافهم، بإسقاط حق العثمانيين بليبيا أو طرابلس الغرب حينها، وأيدوا احتلال إيطاليا لها بغير تحفظ.

وجاءت الحرب العالمية الأولى (1914-1918)، لتحمل معها قرارات الحسم في مواضيع عدة ظلت تؤرق الغرب الأوربي، ربّما قرونا ونعني هنا على الأخص الصراع الإسلامي -المسيحي المزمّن، والذي أطلق عليه مجازا أو تغليطا بالمسالة الشرقية.

انضمت الدولة العثمانية في تلك الحرب إلى جانب ألمانيا وحلفاءها، في 7 نوفمبر 1914. وكانت حكومة الاتحاديين تنظر إلى ألمانيا كقوة قاهرة، ستمكّن من دحر أعداءها، فألقت بثقلها باتجاهها، واصر شيخ الإسلام فتوى الجهاد وافقه عليها العلماء، وباركها السلطان محمد رشاد الخامس (1909-1918). وتبعت بدعاية هائلة من العثمانيين ودعاة الجامعة الإسلامية، في أوساط الجماهير الشعبية والجنود المشاركين إلى جانب الحلفاء، أو بعض العرب الذين أعلنوا الحرب إلى جانب الحلفاء مثل شريف مكة الحسين بن علي، بتأثير وتوجيه من الجاسوس البريطاني "لورانس" العرب.

تمكّنت الجامعة الإسلامية من تجنيد قوى المسلمين، وتوجيهها التوجيه المناسب في محاربة الحلفاء، وقد عبّر عن ذلك لوثرورب ستودارد بقوله: «كان الاضطراب شديدا أيما شدة، في كل بلاد إسلامية في حكم الحلفاء، فمصر باتت تغلي فيها عوامل الثورة غليان المرجل على الثار، خاصة عندما قتل علي بن دينار سلطان دارفور. وطرابلس ثارت ثورة عمياء وردت بها الطليان على أعقابهم حتى ساحل البحر. وإيران كانت على وشك الاتحاد مع تركيا».¹

1- ستودارد : حاضر العالم الاسلامي.. مصدر سابق، ج1، ص 312.

2- صالح خرفي : عمر بن قذور ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984 ، ص 105.

1- ستودارد : نفس المصدر ، ج1، ص316.

لكن في المقابل فان العديد من المفكرين والمؤرخين، قلّوا من شان دعوات الجهاد التي أطلقتها الدّولة العثمانيّة ودعاة الجامعة الإسلاميّة خلال الحرب، لأسباب عدة منها عدم استيفاء شروطها الشرعيّة، فهي تحت قيادة امة غير مسلمة هي ألمانيا، وأكّد هذه الحقيقة الألماني بول شميتر بقوله «إن نداء الجهاد لم يحدث صدى كبيرا بين المسلمين وبان الجامعة الإسلاميّة لم تحدث إلّا ريننا خافتا».²

وشهدت الجامعة الإسلاميّة إحدى أسوأ انتكاساتها، بإعلان الثورة العربيّة بقيادة الشريف حسين وأبنائه ضد العثمانيين، وسيرهم في ركاب الحلفاء. وهو الأمر الذي جعل والي الشام جمال باشا ينتقم بقسوة من أحرار سوريا، وهم (عبد الحميد الزهراوي*، سليم الجزائري، شكري العسلي، علي النّشاشيبي، سيف الدين الخطيب، شفيق المؤيّد، رشيد الشّمعة، احمد طبّارة)، وكان سبب تلك المجازر إخفاقه في دخول مصر، وعثوره بسوريا على وثائق عربيّة حول نشاطات الجمعيات السريّة العربيّة.³

انتهت الحرب في عام 1918، وظهر خسران جميع الأطراف سواء الموالية منها لقوى الوسط أو الحلفاء، فالدولة العثمانيّة فقدت مساحات واسعة من أراضيها، وأجبرت على تقديم تنازلات بالغة في الاهانة تجاه أعداءها التقليديين في البلقان، خاصة لليونانيين. وتبخرت أحلام الشريف حسين وطموحاته، « ولورانس من اجل تغزية الشريف حسين العجوز في تبديد حلمه في إمبراطورية عربيّة، منحه زورقا صغيرا راسيا في جدة وحين رفع ذلك الزورق الصغير مراسيه كتبت جريدة (أمّ القرى) التي أسّسها الشّيخ العقبي في مكّة تقول: "لقد استقل الأسطول الملكي البحر" .⁴

وصار المشرق العربي أو الهلال الخصيب، خاضعا للتّقوذين الفرنسي والبريطاني، وفق مخطّطات سريّة مدروسة سلفا (اتفاقيّة سايكس-بيكو) في عام 1915، تمّ تجسيدها في منتجع "سان ريمو"، بايطاليا في سنة 1920م. وبمباركة من عصبة الأمم، وليفتح المجال واسعا أمام النفوذ اليهودي بفلسطين، بعد

2- بول شميتر: الإسلام قوة الغد العالميّة، ت، محمد شامة، مكتبة وهبة، مصر، 1974، ص84.

* - عبد الحميد الزهراوي، (1871-1916)، من بناء النهضة السياسيّة في الشام (سوريا)، قاوم سياسة التتريك وعارض حكم السلطان عبد الحميد الثاني، اصدر عدة جرائد لنشر أفكاره، مثل "المنير" و"المعلومات" و"الحضارة" في اسطنبول. نفي إلى دمشق وكتب في "المقطم" المصريّة. انتخب رئيسا لأول مؤتمر عربي في باريس سنة 1913. اعدم شنقا في دمشق خلال الحرب العالميّة الأولى

3- جورج انطونيوس: يقظة العرب، تاريخ حركة قومية، ت: د.ناصر الدين الأسد ود.إحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت، 1966، ص282-283.

4- مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، دار الفكر، الجزائر، ج1(الطفل)، ط2، 1984، ص40.

دخول الجنرال البريطاني " أللبي " واندحار مقاومة الأتراك والوطنيين الباسلة، أمام أسوار القدس، كما يدخل الجنرال الفرنسي " غورو " إلى دمشق ويقف على قبر صلاح الدين ويصرخ: " إن حفيد قودفروي (Godefroy de bouillon) أمام قبرك، لقد انتهت الحرب الصليبية ".¹

أما جمعية الاتحاد والترقي العثمانية، فقد ذاقت وبال أمرها، أيضا وتفرق أعضاؤها فاسحين المجال أمام شخصيّة جديدة تظهر على مسرح الأحداث، انه مصطفى كمال أتاتورك (1881-1938).

3- إلغاء الخلافة وأثره :

كانت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية، احد العوامل التي لجا إليها خلفاء آل عثمان المتأخرين، لإعادة مجد الخلافة الإسلامية المتهاوي. لكن تطوّرات الأحداث خاصة خلال الحرب العالمية الأولى وما أعقبها من انعكاسات ونتائج كان كما رأينا، كان في غير مصلحة العثمانيين، الأمر الذي عجّل بانهميار مؤسّسة الخلافة، من طرف فئة من العناصر الطورانية المتأثرة بالفكر الغربي، والساعيّة إلى علمنة المجتمع والدولة في تركيا. وزادت الضغوط الدوليّة على تبني هذا الاتجاه في سيفر (أوت 1920). ولوزان (1923) بعد ذلك. غير أن بلاء مصطفى كمال، وتمكنه من قيادة الدولة في ظروف عصيبة جعل منه بطلا أسطوريا في نظر الأتراك فلقبوه بأتاتورك.²

والموقع أن تحدياته لمعاهدة "سيفر" "sèvres" والحلفاء وانتصاراته الباهرة على اليونانيين في سنة 1922 م. جعل منه -لفترة قصيرة- بطلا إسلاميا بلغ صدهاء معظم أصقاع العالم الإسلامي.

لكن إقدامه على إلغاء الخلافة، لقي استنكارا شديدا فتحوّل الإعجاب به إلى التّهمة عليه، ولم يكن لوجود السلطان "محمد السادس" وخلفه "عبد المجيد"، على عرش السلطنة حينها من معنى، إذ سرعان ما أطيح بالأول، الذي فرّ إلى مالطة، وطرده عبد المجيد آخر خلفاء بني عثمان وأسرته، وألغيت الخلافة في

1- بن نبي: مذكرات شاهد القرن، نفس المصدر، ص 40.

2- ولد مصطفى كمال (1881-1938) في سالونيك، من أسرة متوسطة الحال، انضم إلى الجيش وشارك في الحرب الإيطالية - العثمانية على طرابلس الغرب في (1911-1912). في سنة 1919 نظم المقاومة الوطنية، وخرج عن طاعة السلطان الذي عزله، ليعين في العام الموالي رئيس الجمعية الوطنية الكبرى بأنقرة، ومنح لقب الغازي في العام الموالي وترقيته إلى رتبة ماريشال لبلائه في الحرب ومواجهة الحلفاء واليونانيين. أعلن قيام الجمهورية التركية، والفصل بين السلطة والخلافة في 1922، وأصبح أول رئيس للجمهورية ألغى الخلافة في 3مارس 1924 يعاد انتخابه في 10نوفمبر 1927 ويمنح لقب أتاتورك في سنة 1934 توفي في 10 نوفمبر سنة

يوم 3 مارس سنة 1924م. وقد اعتبر رشيد رضا ذلك « من أكبر المحرمات التي تقترفها الحكومة التركية الحديثة »¹.

انبرى العديد من الكتاب والعلماء والصحفيين من الهند إلى مراكش، على نشر البيانات المنددة والمشجبة لتصرف كمال أتاتورك وأعوانه، ولم يخف عليهم مؤامرات الغرب، وخاصة بريطانيا، وتحولت مشاعر الأخوة في إطار الجامعة الإسلامية إلى فرقة مقيتة، لم تترك وطنا ولا بيتا إلا دخلته، ولا تزال الأمة الإسلامية تتجرّع ويلاتها إلى الآن.

كما توالى النداءات أيضا من طرف العلماء والمصلحين لعقد المؤتمرات، للتظير في مسألة الخلافة وكيفية إحيائها، وجاءت هذه النداءات خاصة من المراكز الدينية كالأزهر الشريف، و علماء الحرمين الشريفين . وقد عقد مؤتمري " القاهرة " و " مكة المكرمة " في عام 1926، وعلى الرغم من الحضور المكثف للعلماء والسياسيين والاهتمام الواسع بالموضوع، حتى من لدن بعض المثقفين الغربيين لأغراضهم الخاصة²، وكثرة المناقشات، إلا أنها لم تثمر إجراءات ملموسة، كما أن هناك بعض المثقفين الذين اثنا على مصطفى كمال ومشاريعه التحديثية، واعتبروا التجربة التركية نموذجا يحتذى، وقد ذهبوا في الشأن فريقيين :

فريق رأى أن الخلافة العثمانية في أوضاعها الرّاهنة، بالأخص في ظل سياسة التتريك التي كانت منتهجة آنذاك، وحالة الضعف والتقهقر المستشري في أوصال الدولة، قد فقدت مبررات استمرارها، ولم تعد تستجيب لتطلعات الشعوب المتباينة والأقاليم المتباعدة، التي تحكّمها ولا للتطورات الكبيرة الحاصلة في العالم. أما الفريق الثاني فقد جاهر بعدائه للخلافة والجامعة الإسلامية، ودعا إلى إقامة الدولة القومية والوطنية، وإلى إبعاد الدين عن معترك السياسة وشؤون الحياة، تماشيا مع ما يحدث من تطور وراقي في العالم الغربي.

1- المنار: المجلد 25، الجزء 4، ص 273. للاطلاع أكثر على تفاصيل الموضوع عد إلى مقالات مجلة المنار لسنوات 1923-1924 منها: الانقلاب الديني والسياسي في الجمهورية التركية .

2- من مظاهر الاهتمام الغربي بالمناقشات الدائرة حول إعادة مجد الخلافة الإسلامية، انفراد مجلة العالم الإسلامي بعدد خاص

بمؤتمري الخلافة، للمزيد انظر: Achille Sekaly .les deux congrès généraux de 1926, revue du monde musulman ,vol.

IV-مآل الجامعة الإسلامية:

لقد حصر الأستاذ أحمد أمين أسباب فشل الجامعة الإسلامية في قوله: "رجال عقد عليهم الأمل ثم غدروا وتكاسلوا في أداء المهمة النبيلة ، وفي شاه خائن ، وفي جريدة عطّلت ، وفي سلطان لا أمل فيه"¹. ولا شك أن إلغاء الخلافة الإسلامية في سنة 1924 ، وخضوع بقيّة الأقطار الإسلامية للاستعمار الغربي ، وتغلغل النّفوذ الصّهيوني في فلسطين، كلّها عوامل أسهمت أيضا في إفشال حركة الجامعة الإسلامية. في مقابل تكريس التشتت والانقسام، الأمر الذي أفضى إلى ظهور محاولات للوحدة والتعاون ، ذات منحنى عرقي أو جهوي. أو اقتصادي...

إن التقييم الموضوعي لفكرة الجامعة الإسلامية يتطلب من الباحث الإمام بمجموعة من المعطيات الأساسية تسهم في بناء حكم موضوعي بعيدا عن الذاتية والأفكار المسبقة إذ لا يمكن الحكم ببساطة على التجارب بالفشل دون وضع الأحداث في سياقها التاريخي يقول الأستاذ الدكتور مولود عويمر: "ولا يمكن أن نحكم بسهولة على كل التجارب بالفشل في تحقيق نهضة المسلمين في القرن العشرين ، إذ يجب أن نضع في الحسبان مجموعة من المعطيات التاريخية التي توضح أكثر كم عانت هذه المحاولات النهضوية بسبب ضربات داخلية ، وهجمات خارجية ، والتي كانت كفيّلة بإحباط كل الجهود المبذولة والمتراكمة لولا صلابة هذا الدين وقدرة رجاله المخلصين على المقاومة والوقوف بعد كل عثرة"²

لقد مثّلت الجامعة الإسلامية، لفترة طويلة من الزمن ، مصدرا للتضامن، وتعزيز مشاعر الأخوة بين المسلمين رغم تباعد المسافات، وسبيلا لتآزرهم خلال اشتداد المحن والرزايا، ولا يجوز التقليل من أهميتها ودورها الحيوي والحساس، في حماية الكيان الفكري والحضاري للأمة الإسلامية، وأثرها البالغ في قيام الحركات الوطنية وتيارات النهضة و الإصلاح، فلا نكاد نجد حركة أو منظمة أو حزبا ، إلا ويتشرف أصحابه بالانتساب لدعوة الجامعة الإسلامية، أو ينهلون من معينها، ومنها منظمة المؤتمر الإسلامي، التي تعد بصيغتها التنظيمية امتدادا لنشاط حركة الجامعة الإسلامية في الفترة المعاصرة.

وعلى الرغم من فشل حركة الجامعة الإسلامية في تحقيق معظم أهدافها إلا أنها كانت آلية صالحة ساهمت في النهضة والتغيير بكشفها عن أسباب الانحطاط وغوائل الداء في الأمة الإسلامية ، الداخلية منها والخارجية على السواء ولو أننا نعتقد أن الأمم الإسلامية لم تكن مؤهلة بالشكل الكافي لأداء وظيفتها المنوطة بها ومسيرة مجريات الأحداث الإنسانية .

1- احمد أمين: زعماء الإصلاح... مرجع سابق ، ص102.

2- مولود عويمر: حيوية المجتمع الإسلامي بين الماضي والمستقبل ، مجلة رؤى ، ع 15، السنة الثالثة -2002 ، ص53.

الفصل الثاني

صدى حركة الجامعة الإسلامية في الجزائر (1876-1924).

I-الجزائريون في عيون دعاة الجامعة الإسلامية

1- في عيون دعاة الجيل الأول

1- رأي الأستاذ أبو القاسم سعد الله.

2- في عيون دعاة الجيل الثاني

II- وسائل تسرب دعوة الجامعة الإسلامية إلى الجزائر:

1- الحج إلى البقاع المقدسة.

2- الهجرة الجزائرية نحو الديار الإسلامية وأثرها.

3- تأثير صحافة الجامعة الإسلامية

4- زيارة الشيخ محمد عبده إلى الجزائر في سنة 1903.

III- مظاهر تفاعل الجزائريين مع أفكار الجامعة الإسلامية:

1- ظلّ الجامعة الإسلامية في بعض المقاومات الوطنية المسلّحة.

2- الجزائريون والاحتلال الايطالي لليبي.

3- الجزائريون والحرب العالمية الأولى (1914-1918).

IV- الجزائريون ومسألة إلغاء الخلافة الإسلامية :

- آراء بعض المصلحين الجزائريين في إلغاء الخلافة الإسلامية سنة 1924 .

I- الجزائر في عيون دعاة الجامعة الإسلامية:

1- في عيون دعاة الجيل الأول :

إنّ الحديث عن حضور فكرة الجامعة الإسلامية وصدائها في الجزائر، يختلف عن بقيّة مناطق العالم الإسلامي، بل حتى منطقة المغرب العربي القريبة جغرافيًا ، حيث يحمل ذلك الحضور خصوصيّة، فهو حضور محتشم، يغلب عليه طابع التّكتم الشّديد والحذر الدّائم. ولم يتح له المجال للتّعبير عن نفسه بحريّة ، فغلب عليه طابع التّقية و المناورة، وهذا يعود في نظرنا إلى عوامل متعدّدة لعل أبرزها :
أولاً: إنّ الجزائر أوّل إقليم إسلامي يسقط في يد الاستعمار الغربي، في وقت مبكّر، لم تكن فكرة الجامعة الإسلاميّة قد ظهرت أو تبلورت بعد. أي (قبل ظهور حركة جمال الدّين الأفغاني وصاحبه، وتبّي السلطان العثماني لأفكارهما كما أسلفنا).

ثانيًا: مثل الاستعمار الفرنسي في الجزائر قّمة الغطرسة والاستبداد ، ولم يخف نزعته الصليبيّة المقيتة التي استهدفت، تدمير الكيان الرّوحي للأمة الجزائريّة، وقطع أواصر الأخوة ، وحبال الوصل مع الشّرق وأهله .

ثالثًا: غياب مرجعيّة دينيّة أو سياسيّة محوريّة في الجزائر ، يمكن الاستناد إليها، كما هو الحال في بقيّة البلدان الإسلاميّة ، سواء كمؤسّسات سياسيّة أو أطر دينيّة مؤثّرة، وغياب النّخبة التي من شأنها الاضطلاع بمهام الإصلاح والجامعة الإسلاميّة.¹ تلك النّخبة التي استهدفتها آلة الاحتلال منذ نجاح الحملة الفرنسيّة عام 1830 سواء بالقتل أو بالتّقي والتّهجير كما حدث لأعيان مدينة الجزائر والمفتيّن.

رابعًا : مارست فرنسا عن طريق خبراءها في شؤون الأهالي، تضليلا للرّأي العام الإسلامي، وحتى الدّولي، بشأن وضع الإسلام والثّقافة الإسلاميّة في الجزائر، أمكنها من تزييف العديد من الحقائق لدى جمهور واسع من المثقّفين والمصلحين العرب، الذين راحوا-ربما عن حسن النيّة - يتشدّقون بالوجه المضيء لفرنسا، الذي حجب عنهم رؤية الحقائق المريعة على الأرض.

1- بدأت هذه النخبة في البروز من جديد ، والتعبير عن نفسها وطموحاتها مع نهاية القرن التاسع عشر، وبالأخص في مطلع القرن العشرين، وكان لسياسة الحاكم العام (جونار) أثرا في ذلك، من خلال إفساح المجال أمام الحياة الثقافيّة للانتعاش مجددا - وهو توجه جديد في السياسة الفرنسيّة وليس منة - ، لكن بعض المفكرين والكتاب الفرنسيين، كثيرا ما يسعون إلى تزييف الحقائق، ونشر المغالطات التاريخيّة فيحاولون إبراز دورهم في خلق هذه النخبة وإخراجها من العدم ، وما يثير الانتباه فعلا هو القدرة العجيبة التي تمتع بها هؤلاء وثقافتهم الواسعة، وإدراكهم لما يحيط بهم في الغرب والشرق. وكمثال على ذلك فقط نجد محمد بن رحال في الغرب الجزائري و عباس بن حمّانة في الشرق الخ

خامسا: طبيعة العلاقات الفرنسية-العثمانية، التي كانت تتأرجح بين المودة حيناً، والصراع والتنافر أحيانا .

ولنا أن نتساءل عن مدى اهتمام دعاة الجامعة الإسلامية بالجزائر؟ والواقع أنه كان اهتماما محتشما- على الأقلّ خلال القرن التاسع عشر - . فالعروة الوثقى التي مثلت آنذاك صوت الجامعة الإسلامية والنّاطقة باسمها، لم تتحدّث عن الوضع في الجزائر، بل إنها تحاشيت التّعريض للاستعمار الفرنسي بسوء سواء في العالم العربي أو غيره. والمقال الوحيد الذي نشرته يتعلّق باحتلال الفرنسيين "لبانيكن" في الطونكين، بالهند الصينية بعد انتصارهم على الصينيين.¹

يعود سبب تغاضي المجلّة في التّعريض لفرنسا وسيّاستها الاستعماريّة، إلى اتّخاذ زعماء الجامعة الإسلاميّة من الأراضي الفرنسيّة، قاعدة للنشاط والانطلاق في دعوتهم.² لكنّ الظاهر أنّ الجامعة الإسلاميّة، في أواخر القرن التاسع عشر، وبالأخصّ في مطلع القرن العشرين، وجدت مسوغات للحديث عن الجزائر وتركيز دعوتها عليها، وقد كان للهجرة إلى الديار الإسلاميّة بالمشرق العربي، والصّحافة أثرا بالغا في هذا المجال، كمجلّة المنار للشيخ رشيد رضا مثلاً. كما مثلت زيارة الشيخ محمد عبده للجزائر في سنة 1903م. انطلاقة لذلك الاهتمام .

والواقع أنّ الجزائريين أنفسهم، أوصوا الشيخ محمد عبده خلال زيارته - التي سنتحدث عنها - بأن لا يتعرّض صاحب المنار، لفرنسا بسوء فتحرمهم منها، وهي على حدّ تعبيرهم "مدد الحياة لنا فإذا انقطع انقطعت الحياة عتاً".³

و لم تبدي الدّولة العثمانيّة اهتماما كثيرا للمصير الذي آلت إليه الجزائر بعد نهاية سلطتها فيها، في سنة 1830، وكان الأتراك يبررون عدم تدخلهم المباشر لصد العدوان الفرنسي، باعتقادهم أنّ "اوجاق الجزائر قادرون على صدّ العدوان".¹

1- الأفغاني و عبده : العروة الوثقى، مصدر سابق، ص 229.

2- أشار الأستاذ د.عمار طالبي في بحثه المتميز حول آثار الشيخ عبد الحميد ابن باديس، إلى وجود قراء للعروة الوثقى في الجزائر، رغم ضغوط الإدارة الاستعمارية. وذكر منهم المولود الزريبي المصلح مثلا: انظر د.عمار طالبي : ابن باديس حياته وآثاره، الجزء الأول، ص 26-27.

3- أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت -لبنان ، ج4، ص 587.

1- ارجمند كوران :السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر(1827-1847)، تر:عبد الجليل التميمي ،الشركة التونسية لفنون الرسم

تونس، ط2، 1974، ص 76-77.

والحق أنّ الجزائريين بعثوا مرارا بندايات الاستغاثة للسلطان العثماني، لتخليصهم من سلطة "الكفار" ،ومنها عريضة مدينة "باديز؟" penon de vadez، الواقعة في الغرب من الجزائر، إلى وزير البحرية، ويذكر أرحم كوران، أنّ العريضة كتبها حمدان أفندي بن عثمان خوجة، باسم إبراهيم باي بن مصطفى باشا، وقد أرسل وزير البحرية تلك العريضة إلى الباب العالي، ويشرح فيها ما يلاقه الجزائريين من ظلم الفرنسيين.²

تركزت جهود العثمانيين في البداية على الوسائل الدبلوماسية، من خلال تكثيف الاتصالات وشرح الموقف فرنسيًا وأوربيًا، بالتركيز خاصة على بريطانيا، "فقد سعى الباب العالي لتأمين مساعدة انكلترا طيلة استمرار القضية الجزائرية"³. وكان التفكير جارٍ في اسطنبول، حول استعمال الوسائل الحربية لاسترجاع الجزائر، خاصة بعد صد الغزو الفرنسي على قسنطينة في 1836. وبلاء احمد باي في ذلك، حتى أن السلطان قد أضفى عليه لقب الباشا، إلا أنّ اختلال موازين القوى بينها وبين فرنسا ومختلف القوى الأوروبية، لم يسمح بذلك. لكن وبعد جهود مضيئة "فهمت الدولة العثمانية أن استرداد الجزائر من فرنسا بالمباحثات السياسية فقط، غير ممكن"⁴ و"في أول حولية نشرتها الدولة العثمانية في سنة 1847، لم تكتب ولاية الجزائر في جدول الولايات العثمانية، وهذا يكون السلطان العثماني قد ودّع حقه بهذا القطر"⁵.

أرأي الأستاذ أبو القاسم سعد الله:

يقسم الأستاذ د. أبو القاسم سعد الله، مسيرة الجامعة الإسلامية في الجزائر⁶، إلى مراحل ثلاث، لكل منها خصوصياتها. هي:

تمتد المرحلة الأولى من (1830 إلى 1870). وقد ميّزها سعي فرنسا الدّوب لقطع كل قنوات الاتصال بين الجزائر و محيطها الحضاري العربي الإسلامي، تمهيدا لتحقيق الاندماج على أوسع نطاق. (فكري، اجتماعي، وإداري) واعترف العديد من الفرنسيين بصعوبة المهمة، فالإسلام كان حصنا منيعا

2- كوران : نفس المرجع ، ص 49.

3- نفسه ، ص 76.

4- نفسه، ص 59.

5- نفسه ، ص 76-77.

6- أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ج 5، ط1، 1998 ، ص ص 514-520.

للمجتمع الجزائري يحميه من محاولات الاندماج. وظلّ الجزائريون خلال المرحلة المذكورة في كَر وفر دائم مع آلة الاحتلال الفرنسي ، من خلال حركات المقاومة الشعبيّة.

وكانت نهاية الأمير عبد القادر سنة 1847 والحاج احمد باي سنة 1848. إيذانا بنجاح إستراتيجيّة الاحتلال الدموي التي انتهجتها فرنسا بقيادة الجنرال بيجو . Bugeaud.

وكانت حرب القرم (1853-1856)، التي قامت بين روسيا والدولة العثمانيّة ، مناسبة لربط الصلّة بالمشرق، وكانت فرصة استعاد فيها بعض الجزائريين ذكريات الماضي، كما التقى الأبناء بالآباء. لقد بقي الجزائريون المجنّدون عشرون شهرا على جبهات القتال، وكان عددهم 2200 جندي. وقد توهت الصحف حينها بشجاعتهم فيها، واستماتهم في الدّفاع عن الخلافة العثمانيّة، ضد الرّوس كما كتب محمد بن إسماعيل أشعاره الجميلة، تخليدا للذكرى. وقد اضطرت فرنسا لإعادة المجنّدين بحجّة عدم الكفاءة، لكن الواقع هو بسبب الخوف على تأجّج عواطفهم ومشاعرهم الدينيّة.

أما المرحلة الثانية ، فهي تشمل مرحلة السبعينيّات من القرن التاسع عشر، وفيها ظهرت بواكير الجامعة الإسلاميّة، من خلال جمعية العروة الوثقى ومجلّتها.

وقد ظهر بالجزائر نشاط مكثّف، تزامن مع ظهور الجامعة الإسلاميّة، وتمثّل على الأخصّ في نشاط الأمير محي الدين بن الأمير عبد القادر في الحدود الشرقيّة، انطلاقا من تونس وطرابلس الغرب، وتنسيقه للجهود الحربيّة مع بعض الرّعاء الدينيين منهم بوشوشة، وابن ناصر بن شهرة ، والرّحمانين،¹ كما بعث بالرسائل إلى القبائل والزوايا، يدعوها للجهاد ويبشرها بقدوم جيش تركي بقيادة نائب ملك مصر عبّاس باشا، للسيطرة على تونس وتحرير الجزائر.²

كما ظهرت في هذه الفترة الجمعية الخيريّة الإسلاميّة، والتي قدّمت عرائض عديدة للباب العالي، أهمّها عريضة مؤرّخة في 25 سبتمبر 1871 م، وأخرى في 28 مارس 1872 م، تتمحوران حول انتصارات بوشوشة و الأمير محي الدين بن عبد القادر الجزائري في أحداث الصّحراء، التي سبقت الإشارة إليها. وقد تضمّنت العرائض نجدة من السّلطان للتخلص من بطش فرنسا، والعودة إلى حظيرة الدّولة العثمانيّة العليّة.³

1- د. يحيى بوعزيز : وثائق جديدة عن محي الدين بن الأمير عبد القادر في ثورة 1871، وعن مواقف أبيه والسلطات التونسية

، الأصاله ، العدد 38 السنة 1396هـ/أكتوبر 1976، ص ص 25-62.

2- المقال نفسه ، ص 30.

3- سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج5، مرجع سابق ، ص 517-518.

أما المرحلة الثالثة، فبدأت في الثمانينات، وهي مرحلة خصبة في حقل العمل في إطار الجامعة الإسلامية، فقد تولّاها السلطان العثماني عبد الحميد الثاني نفسه، بعد تبنيّه لفكرة الجامعة الإسلامية، واتّخاذها سياسة رسمية للدولة، في مواجهة أعداء الإسلام والدولة العثمانية. كما جاءت بالأخص على اثر احتلال فرنسا لتونس عام 1881. الأمر الذي جعل الدولة العثمانية تركز جهودها على الجزائر، وفتحت المجال واسعا أمام هجرة الجزائريين إلى أقاليمها، وقدمت لذلك الغرض امتيازات معتبرة، كما عملت على إدماجهم وترقيتهم في المناصب الإدارية والعسكرية، ووظفت بعض أفراد عائلة الأمير عبد القادر للغرض ذاته، وكانت إحدى غاياتها، مواجهة الحملة الغربية الشرسة عليها، وإضعاف موقفها في مستعمراتها وعلى الصعيد الدولي.

2- في عيون دعاة الجيل الثاني:

حسب رأي استأذنا الدكتور أبو القاسم سعد الله، فان نشاط الجامعة الإسلامية تزايد بوصول السلطان عبد الحميد الثاني إلى الحكم، وهذا في الواقع شجع أيضا دعاة الجامعة الإسلامية للنسج على منواله، والانضواء تحت لوائه، فامتدّ اهتمام الجامعة الإسلامية في هذه المرحلة إلى الجزائر بشكل ملفت نسبيا، مقارنة بالفترات السابقة، وكان لبعض الطرق الدينية دورها البارز في انتعاش الدعوة لها، خاصة الطريقة السنوسية المعروفة بمواقفها المعارضة للاستعمار، كما كان أيضا للمهاجرين في دار الخلافة دور هائل في تفعيل نشاطاتها، كما نسج النشاط الحثيث لبعض دعاة هذا الجيل، ولعلّ من أبرزهم شكيب ارسلان وسليمان الباروني، كما شهدت الجزائر أيضا خلال هذه الفترة، وصول بعض أعلام الجامعة الإسلامية إليها، ولو من باب المجاملة لفرنسا أو بحثا عن دور لها، كما هو الشأن بالنسبة لمصطفى كامل زعيم الحزب الوطني المصري، وخلفه محمد فريد، وقد سجلا انطباعهما عن الحالة العامة في الجزائر، ووصفوها بالمرزية، أما الصحافة العربية فقد بدأ موضوع الجزائر يتردّد على أعمدتها كالمنازل والمؤيد واللواء... الخ.

و تميّزت مرحلة الثمانينات في الجزائر أيضا، بظهور مقاومة الشيخ بوعمامة، في الجنوب الوهراني ضدّ التوسّع الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري، ولم يخف بعض الباحثين والخبريين الأوربيين، وعلى رأسهم "لويس رين" ارتباطها بالجامعة الإسلامية. خاصة أنها تزامنت مع ثورة مهدي السودان ضد التوسّع الانجليزي، وثورة احمد عرابي في مصر، سنة 1882. كما تميّزت هذه المرحلة بتفانم هجرة الجزائريين إلى الديار الإسلامية، وما كان لها من اثر بالغ في دفع نشاط الجامعة الإسلامية بالجزائر. على الرغم من أنّ المؤرخ "أجيرون" ينفي أي ميل للجزائريين نحو الجامعة الإسلامية، ويعزو ذلك إلى مجرد عاطفة دينية

لا غير ، والأكثر من ذلك فهو ينسب نمو الشّعور الوطني للجزائريين ، إلى التطور الفكري القادم من أوروبا ، أي الفكرة القوميّة¹.

II- وسائل تسرب دعوة الجامعة الإسلاميّة إلى الجزائر:—

1- الحج إلى البقاع المقدّسة:

لا نبالغ إذا قلنا أن الحجّ إلى البقاع المقدّسة، بقصد الحج أو العمرة أو المجاورة ، هو إحدى الوسائل الهامة التي استعملها دعاة الجامعة الإسلاميّة، لتبليغ أفكارهم ونشر دعوتهم عبر الأقطار المتباعدة . والمعلوم أن إحدى غايات الحج الأساسيّة، هو تحقيق وحدة المسلمين، وتمتين أواصر الأخوة والتكافل بينهم، وأركان الحج المختلفة تكرّس هذه الأبعاد وتؤكدّها.

فالحجّ بالنسبة للمسلمين، « هو المؤتمر الإسلامي السنوي العام، فيه تتباحث الوفود الإسلاميّة والتّواب المسلمون الطّارئون من أقطار المعمور الإسلامي كافة، في مصالح الإسلام، وفيه يقوم هؤلاء بوضع الخطط، ورسم الطّرائق، للدّفاع عن بيضة الإسلام، والذبّ عن حياض المسلمين، ونشر الدّعوة في سبيل الرّسالة² ». و هو المدرسة التي تكوّن فيها رجالات الإصلاح، من محمّد بن عبد الوهّاب إلى الأفغاني، مروراً بالشيخ السنوسي، و ابن باديس... وغيرهم .

ومن رحم الحجّ خرجت الدّعوة إلى الجامعة الإسلاميّة، وهي التي أوحى إلى الأفغاني بتأسيس جمعيّة أمّ القرى، ثمّ العروة الوثقى، كما أوحى إلى الكواكبي بفكرة مؤتمر "أمّ القرى" فيما بعد.

ومواسم الحجّ تعتبر فرصة ثمينة وشعيرة عزيزة على كل مسلم، يتحتّتها طوال حياته، ويحتهد في تحصيل أسبابها وشروط أداءها، وتتوق نفسه لضيافة الرّحمان، فتخلوا نفسه من كلّ رغبة دنيويّة أو ضغينة تجاه المسلمين ، كما تتوق نفسه إلى لقاء إخوانه وأبناء ملّته، تحدوه الرّغبة في التعرّف إليهم ، والتّآلف معهم، وتلك هي أقصى غاية الجامعة الإسلاميّة وديدن دعائها على مرّ العصور ...

يحمل الحاجّ عندما يعود إلى أهله بعد قضاء المناسك، لقب الحاج، وهو تشريف عظيم بالنسبة له، ويترتّب على ذلك اللقب مزيداً الالتزام بمبادئ الإسلام، والوقار وحسن الخلق، وغيرها من الفضائل. كما يلتقّ من حوله الأقارب والأصدقاء وأهل بلدته، فيسرد على مسامعهم مشاهد موسم الحج ومشاعره، وبذلك فهو شاهد ومبلّغ، وحامل لرسائل عديدة ذات معاني دينيّة وسياسيّة أيضاً، يصبّ بعضها في إطار الدّعوة إلى الجامعة الإسلاميّة .

1- Ageron, Ch. R: *histoire de l'Algérie contemporaine*, paris ,p.u.f, tome 2(1871-1954), 1er éd, 1979, p 181. —

2- ستودارد : *مصدر سابق*، ج 1 ، ص 289.

لقد لخص احد الحكام الفرنسيين في منطقة غرب إفريقيا الفرنسية، هو السيد بوتي "ponty" سنة 1905، مدى تأثير الحج على رعايا فرنسا في المنطقة بقوله: " ولا ننس حج مكة، فانه في الآونة الحاضرة ، يؤثر تأثيرا مضرًا بنا بين رعايانا المسلمين ، ومع هذا ، فان البعض غافلون عن منع حج رعايانا إلى مكة ، وعمّا يحدثه هذا السفر من أسباب تشويش أذهانهم ، لما يسمعون فيه من الأخبار الملققة عن وقائع البلاد الإسلامية ، فمتى آبوا إلى ديارهم عادوا اقل ميلا إلينا ، فان الحاج يسمع في الحجاز أبناء عن جميع العالم لم تطع في صحيفة ، والأوربي مصور فيها بشكل ظالم غاصب (استغفر الله...هكذا) لا تحصى سيئته والمسلم مصور بشكل غالب ظافر لا بد أن يأخذ بثأره . " إلى أن يقول : " فيذهب الحاج من مستعمراتنا أمينا لنا ويعود غير ما ذهب ، بل يتبدل نفسه ، ويصير مبتهجا بنصرة أبناء ملته ، وتقوى فيه روح التضامن الإسلامي ، فيفرح بفوز أتباع محمد ، ويتمنى لهم الظفر النهائي . " كما دعا الاميرال "قيدون" geydon " في الجزائر الى عدم التساهل مع الحج ، "لان التجربة بينت انهم -أي الجزائريين- يعودون اكثر تطرفا ، واكل ميلا وطاعة لنا " ².

ولا أدل على أهمية الحج، كركن من أركان الجامعة الإسلامية، الاهتمام الكبير الذي عنيت به هذه العبادة من قبل المفكرين والمخبرين الغربيين، الذين طالما عكفوا على انجاز التقارير المفصلة حول الموضوع، وزودوه بتوصيات لحكوماتهم للأخذ بها، بل ولجأت بعض الدول إلى أيفاد مخبريها وجواسيسها إلى الأماكن المقدسة، والتقوا بمختلف الشيوخ والعلماء، واستصدروا منهم فتاوى تخدم أغراضهم الاستعمارية، كما سنرى في فصل لاحق، ويعتبر الفرنسيين من أوائل من تفتنوا لتأثير الحج وأهميته، ومدى تأثيره على رعاياهم الخاضعين لسيطرتهم.

وبناء على تلك التقارير المفصلة، فان الحكومات الفرنسية المختلفة، ومصالح الشؤون الأهلية بالجزائر، كثيرا ما كانت تعرقل الحج بجملة من الإجراءات التعسفية، فكانت أحيانا تمنع في منح رخص السفر إلى الحج إلا لمن ترضى عنهم الإدارة ويتمتعون بسيرة حسنة ؟؟؟ . كما أنها كانت تحجم قدر المستطاع منح رخصة الحج للشباب، وتكتفي بمنحها للشيوخ الكبار، الذين لا يقدرّون على الحركة والتأثير، وكثيرا ما لجأت إلى منع الحج صراحة، وأحيانا لمدة طويلة، كما الحال في سنوات (1900-1904). وتضع لذلك مبررات واهية للتأمويه والتضليل، مثل الظروف الصحية للحجيج، أمّا في سنة 1908. فقد منعت الحج نهائيا، بسبب ثورة الشبان الأتراك. ³

1- ستودارد: نفس المصدر ، ج1، ص 320.

2- Ageron, histoire de l'Algérie.....op.cit,p171.

3 - Ageron. Ch.R: les algériens musulmans et la France, tome2 ,p.u.f, France, 1968, pp 898-899.

وقد لقيت تلك التصرفات استهجانا داخليا، وحملة واسعة من طرف الصحافة العربيّة والعثمانيّة في المشرق، كما انهالت التقارير على حكومة "باريس" من طرف قناصلها في المشرق، تحذّر من مغبّة تضرّر سمعة فرنسا في العالم العربي.

2- الهجرة الجزائريّة نحو الديار الإسلاميّة وأثرها:

شكلت هجرة الجزائريين إلى الديار الإسلاميّة بالشرق الأدنى، في أواخر القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين، إحدى أكبر القضايا التي أثارت الاهتمام الواسع، من جوانبها المتعدّدة الفكريّة والسياسيّة والاجتماعيّة. ووضعت السّلطات الفرنسيّة الحاكمة في مأزق حقيقي وحرّج كبير، حتى أطلق عليه البعض "بالوباء الحقيقي". وقد تباينت التّحليل التي درست الموضوع، غير أنّ جُلّها تتفق على ضلوع الجامعة الإسلاميّة فيها، والتي تكون حرّضت عليها بغضّ التّظر عن دوافعها المختلفة، الكامنة وراءها أيضا من سياسيّة واقتصاديّة ودينيّة..

وقد شهدت فترة التّلك الأخير من القرن التاسع عشر، أكبر تلك الهجرات، حدّتها المصادر في سنوات؛ 1899، 1896، 1890، 1888. ثم أخيرا هجرة سنة 1911 الشهيرة، وكانت لكل هجرة أسبابها الخاصّة بها، حسب ظروفها المحيطة بها.¹

وقد ارجع الأستاذ علّال الفاسي، دوافع الهجرة الجزائريّة ما بين 1898 إلى 1899، نحو بلاد المشرق وتركيا إلى أسباب سياسيّة، تتمثل في عدم قبول ورفض الوجود الفرنسي، والفرار من بطشه.² أمّا الموجة الثّانية من الهجرة التي عرفتها الجزائر سنة 1911، فتعود أساسا إلى الإجراءات الفرنسيّة التعسّفية ضدّ الشّعب الجزائري، بعد إصدارها لقانون التّجنيد الإجماليّ التعسّفي، والذي يلزم المسلمين بالانخراط في صفوف الجيش الفرنسي (المسيحي)، والعمل كجندي لمُدّة ثلاث سنوات، الأمر الذي يعدّ في نظر الشّريعة الإسلاميّة، مخالفة لأوامر الله، ناهيك عمّا يترتب عنها من الدّخول في الحروب ضدّ إخوانهم. وقد هاجرت من تلمسان وحدها، حوالي ثمانمئة عائلة، نحو المشرق العربي كصر وسوريا، وأنّ هذه الفئّة من الجزائريين، رفضت الحرب تحت علم غير علم المسلمين.³

تشير بعض المصادر الفرنسيّة، إلى الدور الهائل الذي لعبته الزّاوية الرّحمانية ومقدّم الطّريقة الشّيخ المهدي السكلاوي في منطقة القبائل، بعد نجاح التّوسع الفرنسي هناك، فقد نصّح أهالي المنطقة بمغادرة

1- د.عمار هلال: الهجرة الجزائرية نحو الولايات العثمانية، (1847-1918)، مجلة الثقافة، العدد 82، يوليو-أغسطس 1984، ص 67.

2- علّال الفاسي: الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، دار الطباعة المغربية، تطوان، المغرب، 1984، ص 9.

3- علّال الفاسي: المغرب العربي منذ الحرب العالمية الأولى، معهد الدراسات العربية، ط 1، 1955، ص 17.

"الأرض المضطهدة، وان يهاجروا إلى الأراضي الإسلامية، ليحافظوا على دينهم وديانهم « rejoindre le foyer de l'islamisme »"¹

وبعد أن استقرّ الشيخ المهدي بالشّام التحق به عدد كبير من أهله وإتباعه، ويشير صاحبنا كتاب "الطرق الدينيّة في الجزائر" الذي صدر عام 1897. إلى تأثير المهدي الذي يستمدّ تأثيره أيضا من التراث، وأنّ الجزائريين ظلّوا ينتظرون صاحب السّاعة لينقذهم ممّا هم فيه، ويخلصهم من بطش الكفّار.² كما أنّ الجزائريين الفارين من حжим الاحتلال وجدوا أنفسهم، في ظروف أحسن على الأقل، من حيث توفّر أجواء الحرّيّة والكرامة، ما جعلهم يركّزون جهودهم على جلب ذويهم، وشنّوا حملة واسعة بدعم من السلّطات العثمانيّة، وعائلة الأمير عبد القادر التي كانت تقيم بالشّام، باتجاه تشجيع الهجرة نحو الديار الإسلاميّة.

شكّلت الصحافة إحدى الوسائل الفعّالة، المعتمدة في الدّعاية لهجرة الجزائريين نحو الشرق الأدنى، وخاصة نحو بلاد الشّام، التي ضمت حينها كل من سوريا ولبنان، بالإضافة إلى فلسطين والأردن. من أبرز الصّحف التي اضطلعت بموضوع الهجرة، صحيفة "المهاجر"، التي ظهرت في دمشق، سنة 1912، "أصدرها محمد بن التّهامي شطّة، وهو من المهاجرين الجزائريين، وقد حلّ بدمشق في سنة 1908، ليكنّ أبناءه من التّعليم الإسلامي. وفي دمشق اهتمّ بمشاكل بلاده والمهاجرين، وأثناء الحرب العثمانيّة-الايطاليّة في طرابلس الغرب، أسّس جمعيّة كانت تجمع التّبرعات من الجزائر وأحاء العالم الإسلامي لصالح القضيّة الليبيّة"، توقّفت جريدته بعد ثلاث سنوات، اصدر بعدها جريدة الاتّحاد الإسلامي في سنة 1915م.³

1 - O.Dupont et X. Coplani: **les confréries religieuses musulmanes**, A. Jourdan › Alger 1897, pp 260.

2- فكرة المهدي المنتظر أو "مول الساعة" في الجزائر ظلت لفترة من الزمن تعبر عن حضورها خاصة في الظروف الحوالك، حيث تتجسد الفكرة حول الزعيم الذي يظهر و يملا الأرض عدلا، كما ملأت جورا وهذا يعبر في صورة معينة عن شلل فكري واجتماعي وعجز الأمة عن مواجهة التحديات المفروضة. وارتباط بفكرة الزعيم والبطل والتي كثيرا ما جنت على الأمة الإسلامية وأعدتها عن تحمل مسؤولياتها التاريخية .

3- محمد بلقاسم:الاتجاه الوجودي في المغرب العربي (1910-1954)، ج2، رسالة ماجستير،جامعة الجزائر، 1994، ص35-36.

ومن الذين كانوا يشرفون عليها، ابنا الأمير عبد القادر، علي، ومحمد السعيد، وقد غذاها الأخير بمقالات عنيفة ضد سياسة الفرنسيين في المغرب العربي، ولا يستبعد الدكتور عمار هلال في دراسته عن موضوع الهجرة الجزائرية، أن يكون الأمير عبد القادر، هو من أسسها بماله الخاص.¹

علما أن الأمير مثل بشخصه وجهاده، مركز استقطاب للجزائريين المهاجرين إلى دمشق، ويبدو أيضا أنهم كانوا بأعداد معتبرة، وقد ذكرت بعض الدراسات أن الأمير عبد القادر، عندما أخذ فتنة دمشق، كان معه أكثر من ألف رجل منهم.² وتذكر المصادر أن غايته في ذلك هو صون الدولة العثمانية، فقد جاء في مذكرات ابنه محمد أن "الباعث له على تلك المشاق، تأييده الدولة العلية والدفاع عن حوزتها، إذ لو لم يقف في وجه الغوغاء، لاستأصلوا التصاري واستحملوهم، ونفاقم الأمر أكثر مما وقع، وبذلك يحصل من الارتباك ما لا يخفى³". وبغض النظر عما جاء في هذا التصريح، فإن التكوين الديني والثقافي للأمير، وشخصيته المتميزة، يكونان وراء ذلك العمل الإنساني والبطولي.

كما لعب الشيخ أحمد بن سالم، خليفة الأمير السابق على برج حمزة (البويرة)، دورا هاما في تشجيع الهجرة إلى الشام. وقد كان العديد من الجزائريين، يتحليون على السلطات الفرنسية، بالرغبة في الحج إلى البقاع المقدسة بمكة المكرمة والمدينة المنورة، ومن ثم يتوجهون إلى سوريا ويستقرون هناك، فشددت فرنسا إجراءات منح جوازات السفر لأداء فريضة الحج منذ عام 1858، ثم منعت الجزائريين من الذهاب إلى تونس، لأنها صارت منطقة عبور للمهاجرين.

لم تكن الأوضاع المادية للمهاجرين متيسرة، ولم يجد الكثير ممن وعدوا بالامتيازات المادية ضالتهم، فالدولة العثمانية تنصلت من التزاماتها في بعض الأحيان لأسباب مادية أيضا، فهي قد أثختها الحروب مع الروس، وأغرقتها مشاكل البلقان في محيطها الآسن، ناهيك عن تناقص موارد الدولة من الأموال والثروات كنتيجة حتمية للتخلف العلمي والاقتصادي.

على أن اعتلاء السلطان عبد الحميد الثاني، سدة الخلافة في عام 1876. أدى إلى تحسن أحوال المهاجرين نسبيا، وانتعاش الهجرة، ذلك أن السلطان، وفي إطار سياسة الجامعة الإسلامية التي انتهجها، استند على كل العناصر والفئات، التي يمكن أن تسدي خدمة لسلطته وتوظيفها لمواجهة المؤامرات الخارجية، خاصة الفرنسية والبريطانية. فشرع في سنّ قوانين جديدة ومراسيم إدارية، تتعلق

1- د. عمار هلال: أصداء الهجرة الجزائرية نحو الشرق العربي في بعض التقارير الرسمية الفرنسية، الثقافة، العدد 88، يوليو - أغسطس 1985، ص 69.

2- نفس المقال، ص 74.

3- محمد بن عبد القادر الجزائري: تحفة الزائر، منشورات ثالة، الابيار، الجزائر، ج2، 2007، ص 141-142.

بتنظيم الهجرة، استهدفت بالأساس تشجيع الهجرة، والعمل على إدماج المهاجرين و تتركهم. وهو ما كان يعني، ضرب التفوذ الفرنسي في المشرق العربي في العمق، ناهيك عن استنزاف الموارد البشرية والعمالة الرخيصة التي كانت تحت تصرف المعمرين. وقد سعت فرنسا بكل الوسائل إلى إحباطها، حيث تدخل الحاكم العام "شانزي" في سنة 1875، لمنع الهجرة تماما، كما تدخل "جول كامبون"، في سنة 1895م لنفس الغرض، وكان "كامبون" يعتقد أن الزاوية الرحمانية لها ضلع في الهجرة، وربما استند إلى تأثير الشيخ المهدي السكلاوي السابق الذكر، كما أنّ تركّز الهجرة بشكل واسع في منطقة القبائل، جعل من الفرضية ممكنة، وأكد ذلك أيضا "لويس رين" في بحثه "المرابطون والإخوان" و"باردان" (المهاجرون) و"اجيرون" (المسلمون الجزائريون وفرنسا).

لجأ الفرنسيون في سبيل تثبيط الهجرة وكبح جماحها، إلى استصدار فتاوى من علماء الدين بالمشرق العربي. وفي سنة 1911م، لجأ الحاكم "شارل جونار" إلى غلق الحدود الجزائرية، خاصة مع تونس.¹ أنشأ السلطان العثماني، لجنة دائمة مكلفة بشؤون الهجرة والمهاجرين، وقد ضمت اللجنة في عضويتها شخصيات بارزة، وأوصى بمعاملة المهاجرين بنفس معاملة الأتراك، خاصة بالنسبة للذين يقبلون الجنسية العثمانية.² كما احتدم التنافس بين الفرنسيين والعثمانيين، حول الظفر بولاء أبناء الأمير عبد القادر، وقد جاء في رسالة رسمية، موجهة من الباب العالي إلى حاكم سوريا سنة 1884 «يجب عليكم أن تعملوا بسرعة، وتبدلوا كلّ ما في وسعكم، لفصل عائلة الأمير عن فرنسا نهائيا، عدوها بالرتب العسكرية السامية، وبالعطاء الجزيل، فإذا ما توصلتم إلى ذلك تكون النتيجة هامة جدا، إذ بواسطة عائلة الأمير تتمكن بدون شك من جلب كلّ الجزائريين في سوريا إلى صفوفنا، وهذه هي الوسيلة الوحيدة التي نستطيع بواسطتها تجريد فرنسا من ادعاءاتها، التي تتذرع بها للتدخل بالمنطقة.»³ والحق أنّ أبناء الأمير عبد القادر، لعبوا دورا هاما في تشجيع الهجرة والدعاية للجامعة الإسلامية، ومجمل الحياة السياسية في الدولة العثمانية والمشرق العربي، خلال حكم السلطان عبد الحميد الثاني، خاصة الأميرين علي ومحمد.

والواقع أن الهجرة الجزائرية، لم تتركز فقط بالشام، رغم أنّها ظلت قبلة رئيسية للمهاجرين، بل إنّها شملت أيضا مناطق أخرى، كالحجاز واسطنبول ومصر والدول المجاورة، كالمغرب وتونس بطبيعة الحال، فرغم أنّ الحجاز آنذاك كانت أرضا جدباء، شحيحة الموارد المادية، وتفتتت أساسا من أوقاف الحرمين

1- سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج5، مرجع سابق ، ص 476.

2- هلال : أصداء الهجرة... ، نفس المقال ، ص 83 .

3- نفسه ، ص 87 .

وما تدرّه مواسم الحجّ والعمرة، إلاّ أنّها كانت قبلة لعدد هامّ من الجزائريين الفارين من بطش الاحتلال ، و الرّاعبين في زيارة تلك الرّبوع الطّاهرة التّقيّة ، سواء من اجل التّعلم أو العبادة أو التّجارة. وقد غدت بقاعها منبرا آخر لدعاية الجامعة الإسلاميّة، خاصّة خلال مواسم الحجّ .ومن ابرز الذين هاجروا إلى هناك من الجزائريين نجد عائلة الشّيخ الطّيب العقبّي.^{1*} وقد أرّخ العقبّي لهجرة عائلته بقوله: «انتقلت عائلتنا مهاجرة من بلدة سيدي عقبة إلى الحجاز، بقضها وقضيضها، أئناها وذكرها، كبيرها وصغيرها سنة 1313 هـ، قاصدة مكّة المكرّمة.»² لكن ارتباط الشّيخ العقبّي ، بأمرأ الحجاز ذوي الميول الانفصالية، جلب عليه نقمة العثمانيين ،فرضت عليه الإقامة الجبريّة.³

ومن المناطق التي شدّ الجزائريون الرّحال إليها الأستانة،عاصمة دار الخلافة، ويعتبر حمدان بن عثمان خوجة، والأمير عبد القادر وبعض أولادها من بعدهما، ممن طاب لهم المقام بها، إضافة إلى بعض العائلات ذات الأصل التّركي .

ومن الذين زاروا عاصمة الخلافة أيضا، الشّيخ احمد بن مصطفى بن عليوة، مؤسس الطريقة العليوية- الشاذلية في الجزائر، وقد كانت الطّريقة العليويّة من الطّرق الموالية للجامعة الإسلاميّة لارتباطها بالطّريقة المدنيّة، التي كانت على عهد شيخها محمّد ظافر المدني، من أنشط الطرق الموالية للعثمانيّة والجامعة الإسلاميّة، وكان هو من المقربين للسلطان العثماني عبد الحميد الثاني.⁴ غير انه لم ترخ نفسه لتلك البلاد، لما رآه من التفسّخ الخلقي نتيجة تسرب أفكار الحداثة، التي روج لها الشّبان الأتراك حينها، وربّما من سوء حظّ بن عليوة، أن زيارته تزامنت والانتقال على السلطان عبد الحميد الثاني، وتولّي السلطان محمّد الخامس الحكم، وكان أضعف شأنًا من سلفه. فعاد إلى الجزائر ونفسه مشمّرة ، والحق أن المهاجرين الجزائريين في دار الخلافة ، كانوا في خدمة الدّولة العثمانيّة، وبرز نشاطهم بشكل

* الشّيخ الطّيب العقبّي ،من أقطاب الحركة الإصلاحية السلفية بالجزائر في مطلع القرن العشرين ، ولد في سيدي عقبة (نواحي بسكرة) ، وتلقى تعليمه الأولي هناك ، لينتقل رفقة عائلته إلى الحجاز في أين أكمل دراسته وتفقّه عقله ، وكان في كل ذلك على اطلاع بما يدور في العالم الإسلامي ن وحركات الإصلاح والجامعة الإسلاميّة ، بل ومساهما بها من خلال التدريس والصحافة حيث اصدر هناك جريدة القبلة ، انحاز إلى الشريف حسين خلال الحرب العالميّة الأولى ، عاد إلى الجزائر في سنة ، واضطلع بمهام الإصلاح بالعاصمة ، وكان من أقطاب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، توفي في سنة .

1- احمد مريوش : الطّيب العقبّي ودوره في الحركة الوطنيّة، الجزائر، دار هومة ، ط1، 2007، ص 39.

2- نفس المرجع، ص 39.

3- Ben chaouki arlsan, cheikh el-okbi , l'islamiste, el-watan, no:14, 28/9/2005.

4- سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 5 ، مرجع سابق، ص 503-504.

جليّ خلال فترة الحرب العالميّة الأولى ، حيث اعتبروها فرصة سانحة، لمواجهة عدوهم اللدود فرنسا ، على أمل استرجاع ارض الأجداد من الغاصبين، ومن أهم هؤلاء ، المكيّ بن عزوز وصالح الشريف ومحمد الخضر حسين و الأمير علي الجزائري... وغيرهم.

لقد لاحظ السيد لوسيان¹ ، خلال تحقيقه حول هجرة الجزائريين من منطقة الوسط (بالأخص الشلف) في سنة 1899. وجود ارتباط وثيق بين حركة الهجرة وانتشار الصحافة، كوسيلة من وسائل الدعاية الهامة التي لجأ إليها دعاة الهجرة والجامعة الإسلامية آنذاك، والسيد لوسيان يعد من خبراء مصالح الشؤون الأهلية المرتبطة بالحكومة العامة بالجزائر ، و تقريره حول الهجرة المذكورة من أهم مصادر الموضوع.

يقع التقرير في واحد وثلاثين صفحة، وكتب في 14 فبراير عام 1899م. وهو بعد أن بيّن أنّ الهجرة الجزائرية تندرج ضمن حركة عامّة ومنظمة ، وأنّ الآلاف كانوا ينتظرون دورهم للحصول على رخص السفر إلى المشرق، وخاصة إلى الشام ، يذكر أنّ الصحف كانت تعمل على تحريض الأهالي على الهجرة إلى أرض الإسلام. ويقول إن « الدعاية العثمانية هدفت إلى إثارة الشعور الديني لدى مسلمي المستعمرات الفرنسية خاصة ». ² لقد لعبت الصحف الشرقية، دورا هاما في الدعاية ، ومن أهم الصحف التي شكّلت منبرا لذلك ، نجد الملائمة (الأستانة) ، ثمرة الفنون (بيروت)، والإسلام (الإسكندرية)، يضاف إلى ذلك دور الجواسيس والمخبرين والزوار ومريدي الطرق الصوفية . ولم يكن تقرير لوسيان الوحيد، لكنه كان الأهم، ومن التقارير الأخرى التي عالجت موضوع الهجرة وأدلت بدلوها فيه نجد، تقرير "هاباتي" وتقرير "بارباديت" حول هجرة تلمسان الشهيرة وتقرير الرائد "كادي" ... الخ

3- تأثير صحافة الجامعة الإسلامية :

مثلت الصحف أفضل وسائل التبليغ والدعاية للجامعة الإسلامية، خاصة في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. وقد انبرى زعماء الإصلاح ورجال السياسة والفكر، إلى اتخاذ المنابر الصحفية للترويج لأفكارهم والدعاية لها، وبالمثل حاولت القوى الاستعمارية استئجار بعض الأقلام العميلة، والضّمان المبتنة، وتسخيرها في الدعوة المضادة، بإبراز محاسن الاستعمار. ؟؟

1- دومينيك لوسيانى (1851- 1919) من مواليد كورسيكا، التحق بعد الدراسة بقسنطينة أين بدأ العمل بإدارة العمالة، تولى بعدها إدارة البلديات المختلطة لكل من عين مليلة (1877) وباتنة (1880) وأولاد عطية بالقل (1885) ثم التحق بالإدارة المركزية بالحكومة العامة بالجزائر، عين بعد ذلك مديرا لديوان الحاكم العام ريفوال سنة (1899) وكان لوسيانى أول مدير للشؤون الأهلية (1901/12/30).

2- محمد غالم : الوثائق الفرنسية والهجرة إلى الديار الإسلامية، الجزائر، مجلة الدراسات التاريخية، العدد 5، 1988 ، ص 202.

لقد رأينا في الفصل السابق، الأثر الذي أحدثته مجلة كالعروة الوثقى في العالم الإسلامي، وهي بالرغم من تغاضيها عن المأساة الجزائرية، إلا أنّ كثيرا من الجزائريين وجدوا فيها الزّاد الرّوحي والمعنوي لهم ، وبفضلها صاروا على دراية بأحوال أمّتهم وأبناء ملّتهم، كما اهتمّ السّلطان عبد الحميد الثّاني بتوظيف هذه الوسيلة الفعّالة(الصّحف) أقصى توظيف، منذ تبني سياسة الجامعة الإسلاميّة . كان هناك نوعين من أنواع الدّعاية الصحفيّة آنذاك:

1- دعاية صحفيّة رسميّة: وهي تلك التي أنشأتها الدّولة العثمانيّة، وتنفق عليها وتطبع بمطابعها.

وأهمّها :

-الكوكب العثماني: وهي صحيفة رسميّة، " خادمة للملّة الإسلاميّة والجامعة الإسلاميّة " ظهرت في عام 1898 بالأستانة، وكان لها رواج واسع في العالم الإسلامي، وباعتبار رواجها بتونس، فقد كان لها قراء في الجزائر، على اعتبار أنّ تونس كانت دوما مركز عبور للصّحف والمنشورات الصّادرة بالمشرق بطرق شتى .

-المعلومات : كانت تصدر باسطنبول، وهي جريدة عربيّة إسلاميّة سياسيّة، مديرتها محمد الطّاهر باي، وهي بدورها " خادمة لمنافع الخلافة المعظّمة الإسلاميّة والدّولة العليّة العثمانيّة "، وقد صدرت في مايو 1898. وكان لها حضور معتبر في الجزائر، وقد عبّر عن ذلك نائب عمالة الجزائر بقوله: « إن كثيرا من الجزائريين يشتركون للحصول عليها، وأنها تصلهم باستمرار، كما أشار أنّها كانت تباع في مدينة الجزائر في الوراقة العربيّة، الموجودة بشارع "راندون" والتي كانت على ملك المدعو احمد بن تركي. »¹

ويمكن إدراج صحيفة أخرى ذات أهميّة بالغة في الدعاية للدّولة العثمانية والجامعة الإسلاميّة، وهي "الجوائب" لصاحبها أحمد فارس الشّدياق. وقد كانت تتلقّى الإعانات من الدّولة العثمانية وتطبع بمطابعها، وهي مجلّة أسبوعيّة، وقد ملكت شهرة لم تنلها غيرها في وقتها، ولها قراء في معظم الأقطار الإسلاميّة بما فيها الجزائر.²

2- صحافة موالية: ومنها

-جريدة طرابلس : وكانت تصدر في طرابلس الشام، في سنة 1893. وطغت عليها أفكار ومفاهيم الجامعة الإسلاميّة.

1- أشار إلى ذلك السيد لوسيانى، مدير الشؤون الأهلية في تقريره حول هجرة الجزائريين من منطقة الوسط، وخاصة من حوض الشلف، عام 1898م. للمزيد انظر: د.عمار هلال : صدى الهجرة الجزائرية ، مرجع سابق ، ص 157.

2- العجيلي : صدى الجامعة الإسلامية، مرجع سابق ، ص 101 .

-ثمرات الفنون: وانشأت سنة 1875. وكانت تصدر في بيروت كلّ اثنين، عملت على تنبيه المسلمين إلى الأخطار المحدقة بهم، معتبرة أنّ نجاتهم منها متوقفة على تمسكهم بالدولة العثمانيّة، وسياسة الجامعة الإسلاميّة.¹

-المنار: وهي من ابرز المجلات وأكثرها تأثيرا وأطولها عمرا (1898-1939). وقد تمكنت إلى حدّ كبير أن تخلف مجلة العروة الوثقى التي توقّفت في 1884، وسبقت الإشارة إليها .

تبنت " المنار " سياسة الجامعة الإسلاميّة، وسخرت منبرها لخدمة الخلافة العثمانيّة، والسّلطان عبد الحميد الثاني حينها ، وكانت المجلة واسعة التّرواج في الجزائر، ولها قراء كثيرون، وهي التي ستمهد الطّريق لزيارة الشيخ محمد عبده التاريخيّة للجزائر، في صيف 1903 م، كما سنرى ، وهيئّت العقول لتقبّل وانتشار أفكاره الإصلاحية، حتى قيل أن الشّيخ محمد عبده، وجد في الجزائر حزبا ينتمي إليه.

كانت فرنسا تسمح بدخول المنار إلى تونس والجزائر، لأنّها في نظرها جريدة مسالمة، وتعبّر عن وجهة نظر الشيخ عبده، المعروف عند الفرنسيين بالاعتدال، وإدراك فضل الحضارة الغربيّة على التّقدم والرقي.²

كانت المنار تتابع أخبار الجزائر، فقد كتب رشيد رضا مقالا حول "فرنسا والإسلام" اتهم فيه فرنسا بأنها تتبّع سياسة خرقاء في إفريقيا ومنها الجزائر، وأنها سلكت مع المسلمين طريقة العنف والقهر، كما أنها حالت بينهم وبين التّعليم، و يتحدّث المقال عن بغض الفرنسيين للإسلام، وتحاملهم عليه ظلما وعدوانا، ويشير إلى حذر الفرنسيين الشّديد تجاه الشّيخ السنوسي.³

نجحت المنار " إلى حدّ بعيد، وتركت بصماتها على الجيل الذي تولى قيادة الاصلاح بعد الحرب العالميّة الأولى، ومن آثار ذلك نشأة الصّحافة الإسلاميّة ذات التّوجه الإصلاحي في الجزائر، مثل " الفاروق " لعمر بن قدور و " ذو الفقار " لعمر راسم ، اللتان أعلنتا أنّهما تسييران في ركاب الفكر العبدوي.⁴

والى جانب ذلك، وجدت صحف أخرى، كجريدة السّعادة، والسّلام، واكتسبت جريدة الحضارة التي كانت تصدر في اسطنبول مكانة معتبرة، وكانت أعمدتها مفتوحة للقراء، فكتب فيها عمر بن قدور. وكذلك جريدة الحاضرة التونسيّة، والتي كانت هي الأخرى تعبّر عن مشاغل الجزائريين وتفتح صفحاتها

1- العجيلي: نفس المرجع ، ص 102.

2- د.أبو القاسم سعد الله : بحوث في التاريخ العربي الإسلامي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، لبنان ، ط1، 2003 ، ص106-125.

3- المنار: 5م، ج8، ص 292.

4- د.محمد ناصر : عمر راسم ،المصلح الثائر ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر ، 1984 ، ص 10 .

لأقلام جزائرية، كما تعتبر تونس بوابة الصحافة الشرقية إلى الجزائر، فكانت تصل إليها بواسطتها الجرائد المصرية خصوصا ، مصباح الشرق، الهلال ، الأهرام، الفلاح، اللواء والمؤيد.

وكان عمر بن قنور يكتب بهذه الأخيرة، كما منعت اللواء من دخول الجزائر في عام 1908، ثم أن السلطات الفرنسية صارت تقوم بانتقاء الجرائد الشرقية وتمنع المحرّضة منها؟ وتعاقب على اقتناءها.¹

كان الجزائريون يتابعون بشغف أحداث العالم الإسلامي وأخبار الدولة العثمانية، فيفرحون لانتصاراتها ويكتئبون لهزيمتها، فقد أدّى انتصار العثمانيين على اليونانيين في عام 1897. حول جزيرة "كريت" إلى فرحة عارمة، جعلت من السلطان العثماني في نظرهم هو "شيخ الإسلام".²

لقد كان الجزائريون على دراية ووعي تام بخطور المؤامرات الأوربية على الدولة العثمانية، رغم جهلهم بشؤون السياسة والعلاقات الدولية، وتبين لهم أن هناك تحالف على الإسلام من قبل الدول الأوربية المسيحية، وأنه لا بدّ أن يقابله تضامن المسلمين في إطار جامعتهم الإسلامية، والالتفاف حول خليفة المسلمين ومؤازرته، والتضامن الفعّال مع قضايا المسلمين في أصقاع الأرض، من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادي ..

4- زيارة الشيخ محمد عبده الى الجزائر وأثرها (1903) :

اكتست زيارة الشيخ محمد عبده للجزائر أهمية خاصة، من منطلق أنّ الشيخ عبده، كان يمثّل آنذاك أكبر شخصية دينية في العالم الإسلامي، ويتمتع بسمعة طيبة في الأوساط الإسلامية، كما في الأوساط الغربية على حدّ سواء، نظرا لما امتاز به من رجاحة الفكر، وجرأة الاجتهاد، وبعد نظر في الدعوة والإصلاح، وقد ارتبط اسمه بصلته مع باعث النهضة الحديثة في العالم الإسلامي، الشيخ جمال الدين الأفغاني و حركة الجامعة الإسلامية.

لقد بدت الجزائر في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وكان أمرها آيل إلى الزوال، وإن شخصيتها الدينية والحضارية غدت أثرا بعد عين. وقد دأب حكامها العامون منذ فترة (خاصة في ظلّ الجمهورية الثالثة) وفق خطة منهجية ومدروسة، بدعم من المعمّرين على تنفيذ مشاريعهم التدميرية على أوسع نطاق، خاصة في عهد الحاكمين " تيرمان"، و"كامبون" في أواخر القرن التاسع عشر. لكن بحلول القرن العشرين بدأت بعض ملامح التغيير الايجابي تظهر على سياسة الحكومة العامة، وظهر مناخ

1- العجيلي : مرجع سابق ، ص 105.

سياسي مشجع بفضل إصلاحات الحاكم العام "جونار" خاصة خلال فترة حكمه الثانية(1902-1911)، ساهم في قيام تلك الزيارة التاريخية المباركة.¹

تعرف الشيخ محمد عبده على الجزائر من خلال عائلة الأمير عبد القادر، الذي كانت تربطه بها علاقات خاصة، وجرت بينهما مراسلات عديدة، وفي مواضيع شتى كالإصلاح والجامعة الإسلامية. ويبدو أن الأمير كان عضواً في جمعية العروة الوثقى، وأنه هو وبعض أبنائه كانوا من المتحمسين للإصلاح، والمخلصين لفكرة الجامعة الإسلامية.²

كما أن زيارته لتونس خلال الثمانينات، أعطت له فكرة عن الجزائر، حيث يكون التقى بالطلبة الجزائريين في جامعة الزيتونة، وتحادث معهم بشأن أحوال الإسلام والمسلمين بالجزائر، وقد انطلق في زيارته من فرنسا في صيف عام 1903، حيث يذكر اجيرون "أن تاريخ نزوله في الجزائر هو 27 أوت 1903 م"³. بعد أن منحته السلطات الفرنسية رخصة الدخول للجزائر.

رافقه الشيخ أبو القاسم الحفناوي من مرسيليا إلى الجزائر، وكان الحفناوي يكتب آنذاك بجريدة "المبشر" الحكومية، وقد وضع تحت مراقبة صارمة، كما أحيط بترسانة من المخبرين الذين يتتبعون كل خطواته، ويكتبون التقارير المفصلة بذلك الشأن، و اتسمت زيارته بالسرية والتكتم سواء من طرفه خشية تأليب السلطات الفرنسية ضده،⁴ و يتضح هذا في تكتم "مجلة المنار" وصاحبها رشيد رضا على الزيارة، أو حتى من السلطات الفرنسية، التي لم ترغب في إعطاء الزيارة الطابع الرسمي، وكان السيد "لوسيان" هو من تكفل بمتابعة مجريات الزيارة

لقد مهدت "المنار" لتلك الزيارة بمقال عنوانه: "فرنسا والجزائر"، بتاريخ 4 ابريل 1903، جاء فيه بعض التصائح للسلطات الفرنسية بان «تعامل مسلمي مستعمراتها بالحسنى لتملك قلوبهم وتأمين غائلتهم».⁵ حلّ الشيخ محمد عبده بالجزائر في 27 أوت 1903، على الساعة الثانية زوالاً، ونزل أولاً في فندق الواحات، قبل أن ينزل ضيفاً على السيد مصطفى بن الأكل، وقد شرع في التجول بالعاصمة، ويلتقي أعيانها ومشايخها، مثل ابن زكور، إمام المسجد الكبير، والمفتي بوقندورة، كما زار المكتبة الوطنية ومسجد

1- Ali Merad : "enseignement politique de Mohamed Abdou aux algériens 1903" in orient, no 28 , 4è trim. , 1964, pp 75-123.

2- سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، مرجع سابق، ص 584.

3- Ageron: histoire de l'Algérie contemporaine t2,op.cit,p180.

4 - د.احمد صاري: "الجديد عن زيارة محمد عبده إلى الجزائر قسنطينة"،مجلة الآداب والعلوم الإنسانية،جامعة قسنطينة، العدد 2،

مارس 2003،ص16 .

5- المنار : 4 افريل 1903 ،ص 79-80.

سيدي عبد الرّحمان، وأقيمت مأدبة عشاء على شرفه، عند السيّد الأكل بلجي بلكور، حضرها أعيان العاصمة، ووجهائها من مختلف التيارات، ودار نقاش فلسفي حاد بين الشيخ محمد عبده و احمد بن بريهات المتجنس. والذي تحامل على الاتجاه الإصلاحى.¹

وفي أولّ سبتمبر، اجتمع حول الشيخ أزيد من مائة وخمسون شخصا (150)، عند السيّد الكحل يسألونه في مسائل دينية مختلفة، وقضايا فقهية متنوّعة، تخصّ العادات والعبادات كما يقال.

ويبدو أنّ الشيخ كان ينوي القيام بزيارة إلى تلمسان ووهران أيضا، لكنّه عدل عن ذلك، وهو ما جعله يطلب مجي مفتي وهران علي بن عبد الرّحمان إلى العاصمة، كما حضر الحاج موسى، وكيل جامع سيدي عبد الرّحمان،² وقد واصل الشيخ إلقاء دروسه ومواعظه بالمساجد، والتي لقيت في معظمها استحسانا وإعجابا من طرف الجمهور، واعتقد البعض أنّه مرسل من طرف السلطان العثماني للاطلاع على أحوال الرعية ومطالبهم، كما لقيت بعض فتاويه الاستغراب من طرف الناس، كأكل لحم أهل الكتاب في الضرورة، وعدم تحريم لبس القبعة.

وإذا كانت زيارة الشيخ عبده للجزائر العاصمة، قد تناولها الباحثون وأسهبوا في بحث تفاصيلها، فإنّ زيارته لقسنطينة لم تسلط عليها الأضواء بشكل كاف لنقص المادة التاريخية، ولعل مقال الدكتور احمد صاري السالف الذكر يكون قد سلط بعض الضوء عليها، استنادا إلى الأرشيف الفرنسي. فقد وصل الشيخ -حسبه- إلى قسنطينة في 6 سبتمبر سنة 1903، أي اثر نهاية زيارته إلى الجزائر العاصمة، واستمرّت إلى 9 سبتمبر من نفس السنة، وكان في ضيافته موبري خليل بن عمر الدزيري، وهو تاجر بالقنطرة، كما يكون قد زار مدرسة قسنطينة رفقة الشيخ المولود ابن الموهوب، وتعرّف على ظروف الطلاب بها، وتحدّث مع إمام المسجد الكبير، كما زار أيضا المكتبة العربيّة، وحثّ الطلبة على ضرورة التمكن من تكوين ديني صلب.³ وقد كان الشيخ يرى في التكوين الديني الصّحيح، بمثابة القاعدة الصّلبة التي يتوقف عليها الإصلاح، كما وجه نقدا لاذعا للطرقية، واطهر بعض الاستياء من التوجهات السياسية للشبان الجزائريين.⁴

لقد اكتشف الشيخ محمد عبده، حسب أستاذنا أبو القاسم سعد الله واستنادا إلى جريدة "لوتان" الفرنسية، le temps، عن وجود حزب إصلاحى كبير ينتمي إليه، من أبرز وجوهه ذكرت المصادر،

1 - صاري : الجديد عن زيارة محمد عبده إلى الجزائر قسنطينة، المقال نفسه، ص 16.

2- نفسه ، ص 17 .

3- نفسه ، ص 20 .

4 - Ageron: histoire de l'Algérie contemporaine t2, op.cit,p181. - 4

ثلاثة مصلحين هم محمد بن الخوجة الملقب بمصطفى الكمال، ويكنى أيضا بالمضربة ، وعبد الحليم بن سماية، وعمر بن قدور، وإذا كانت المصادر قد ركزت على هؤلاء فقد كان هناك العديد من أتريهم لم تسعفهم ظروف الاستعمار وضغوطه على البروز، ولنا أن نتساءل عن كيفية تكون هذا الحزب الإصلاحى ؟

تشير المصادر إلى الدور الهام الذي لعبته مجلة المنار، وإذا كان هذا الأمر صحيحا فان هناك في اعتقادنا أسباب أخرى ساهمت في تكون هذا الحزب قبل المنار، منها مجلة العروة الوثقى التي كانت تصل إلى بعض الجزائريين ويقرؤونها بنهم وشغف ، كما أنّ الجزائريين كانوا على اطلاع بما يجري من حولهم بوسائل شتى، بل ويساهمون في مختلف الأحداث بطريقتهم وهذا ما سنبينه في حينه .

لقد طالب الاصلاحيون بعدم التعرض لفرنسا في صفحات مجلة المنار، كي لا تمنع دخولها إلى الجزائر، فهي كما قالوا "مدد الحياة لنا فإذا انقطعت، انقطعت الحياة عنّا"¹، أشار صاحب المنار أن الشيخ محمد عبده حقق أهدافه من الزيارة، ولخص ذلك في ثلاث نقاط هي:

1-الجدّ في تحصيل العلوم الدينيّة والدينيوية من طرقها القريبة.

2-الجدّ في الكسب وعمران البلاد من الطّرق المشروعة الشّريفة، مع الاقتصاد في المعيشة.

3-مسالمة الحكومة، وترك الاشتغال بالسياسة²

والواقع أن فكرته الأخيرة بمسالمة الحكومة، وترك الاشتغال بالسياسة – والتي تمثل التوجه الجديد للشيخ بعد انفصاله عن الأفغاني- قد لقيت لدى البعض نوعا من الاستهجان، عبر عنه الأستاذ محمد قنانش في نبرة حادة –بعد أن استعرض معاناة الشعب الجزائري وكفاحه المستميت، والمحن التي لاقاها في سبيل ذلك، بقوله: «كلّ هذا لم يؤثّر في هذا الشعب المقاوم ولم يرضخ للقوّة، ولا اعترف بالأمر الواقع، حتى جاءه زعيم شرقي، كان ينتظره ليعث فيه روح المقاومة من جديد، ويهديه طريق الحرّية والخلاص، فجاءه بصفة مستعمر يدعوه إلى المسالمة، وترك الاشتغال بالسياسة، وكأنّه شعب لا يستحقّ الحياة»³.

اختار الشيخ محمد عبده سبيل الإصلاح الهادئ المثمر ، وكان يرى الأفيد في مسالمة الحكومة كي لا تعرقل جهود الإصلاح ، وربما وقع ضحية مغالطات وأكاذيب دهاه السياسة الفرنسية، و مصالح الشؤون الأهلية، ومنهم السيد لوسيانى.

1- سعد الله : بحوث في التاريخ العربي.....مرجع سابق ،ص 116.

2-رشيد رضا : المنار ، 1903 .

3-محمد قنانش : المواقف السياسية... ، مرجع سابق، ص 59.

كما أنّ المتعمّن يرى أنّ هناك أبعاد في زيارة الشّيخ محمد عبده للجزائر، لا تخلوا من الفعل السياسي على المدى البعيد، التقت فيه مآرب الشّيخ الإصلاحية، في هذا القطر النائي والمتأمّ وإغراض فرنسية من الزيارة لخصها الدكتور أبو القاسم سعد الله في أمرين :

دولي: ويتمثل في مقاومة الدّعوة إلى الجامعة الإسلامية، التي كان السلطان عبد الحميد الثاني يحمل شعارها فوق الاختيار على الشّيخ لتحويل الأنظار.

محلي: ويتمثل في تحجيم دور الطّرق الصّوفية، في إطار سياسة جديدة تهدف إلى ترويضها أو إزالة تأثيرها.¹

و قد كان مجموعة من الباحثين والخبراء والمستشرقين، قد أكّدوا في بعض الدراسات الهامّة على خطر الطّرق الدّينية والمرابطون ، على امن و استقرار فرنسا بالجزائر.²

قام الشّيخ محمد عبده في الجزائر بتفسير سورة "العصر"، في جامع السيد الأكل بالحمّامة، وقد فهم البعض أنّه يدل على التزام بعدم التّدخل في السياسة، والاهتمام بالإيمان والصّبر، وقد عدنا إلى تفسير السّورة بالمنار، ورأينا الشّيخ يستخلص منها حكما ومواعظ لا حصر لها.³ وقد اخذ أتباعه يقرءونها على المنابر ويقرضونها .

وقد أرشدنا مقال الشّيخ المهدي البوعبدلي حول "الجوانب المجهولة من آثار زيارة الشّيخ عبده للجزائر 1903" إلى الكشف عن مجاهل عدّة ، وتعلّق بالجوانب المجهولة منها ، في رسالة من الشّيخ علي بن محمد مفتي وهران، الذي لم تسعفه الظروف لحضور مجالس الشّيخ عبده بالعاصمة إلى صديقه ورفيق الشّيخ عبده عبد الحليم بن سماية بخصوص ضيفهم الكريم وأمره الذي "كثرت علينا القلاقل في شأنه ."

وقد كان جواب الشّيخ بن سماية غاية في الدّقة والبيان، لخصّ فكر الشّيخ عبده كما لم يفعل غيره، وظهر اطلاق بن سماية الواسع بدقائق الفكر الإصلاحي والجامعة الإسلاميّة. تحدث بن سماية في الرّسالة المذكورة ، عن العروة الوثقى وصاحبها الشّيخ جمال الدين الأفغاني، ثمّ يستطرد في إزالة اللبس عن فكر الشّيخ عبده، فيقول :

« إلا أنّ الرجل لما كان ينزل في كلامه للعقول بما ألفته من الإنكار والأفكار والانضار في العلوم الجارية، وكثيرا ما يجارى الإفهام بما ألفته، فتجد الناس في أمرهم بين فرقتين : فرقة ألّفت التّعبير بالعبارات

1 - سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، ج 5 ، مرجع سابق، ص 587.

2- ابرز تلك الدراسات التي تسنى لنا الاطلاع عليها هي : "لويس رين ، المرابطون والإخوان و ديبون وكوبلاني ، الطّرق

الدّينية الإسلامية في الجزائر. وهي معروضة في شبكة الانترنت في الموقع الآتي: www.algerieancienne.fr

3- انظر تفسير السورة ، بمجلة المنار . 1903

القديمة وكادت أن تتخذ عندهم مما يتعبد بذكره، ولا تحصل البركة والتفجع إلا بلفظه، فرمما تطرق إلى أذهانهم أنه زنديق، يحاول بعباراته تدرج الناس إلى الأخلاق والأفكار الأوربيّة. وفرقة ألفت هذه الأفكار الجديدة والقوانين الحادثة، فهم كلّما سمعوا كلامه اخذ بمجامع قلوبهم وعظم في صدورهم.¹ «
و يذكر الشّيخ بن سماية أنّ من أهمّ ما ركّز عليه الشّيخ في حديثه معه، مسألة اللّسان العربي، فقال : « وإنّا لنرى أنّ تحصيل اللّغة على الوجه المطلوب، هو رابطة هذا الدّين القويم، واغرورقت عيناه بالدموع، وهو يجتهد إلا يظهر عليه اثر ذلك، وبالجملة، الذي يتلخص من أحوال هذا الرّجل انه لا يرضى لهذه الأمّة من علم اللّسان إلا أفصحه، ومن علم العقائد إلا أوثقه وأصدقه، ومن علم الفقه إلا أوفقه واجمعه وأبعده من الخلاف. »².

ومن آثار الشّيخ عبده على الجزائريين، ردّه المفحم بالحجّة القاطعة، على المؤرّخ والسياسي الفرنسي "هانوتو"، على اثر تهجّمه على الإسلام والجامعة الإسلاميّة في سنة 1900م.
ومن جملة ما قاله الشّيخ عبده: « لو أسلمت الأمّة الفرنسيّة بأسرها، وفي مقدّمها مسيو "هانوتو"، وكانت معاملتها لغير الفرنسيين على ما نعهد في الجزائر ومداغسکر -هل ترجوا من سكان مستعمراتها، أن يميلوا إليها، وان لا ينتهزوا الفرصة للتّورة عليها».³
من اللآفت للانتباه كما اشرنا آنفا أن التّخبة الجزائريّة، على قلتها، ورغم الحصار المفروض عليها، إلا أنّها كانت على درجة كبيرة من الوعي الفكري والحضاري، وعلى علم بمجريات الأحداث بالعالمين العربي والإسلامي، وظلّت قلوبها مشرّبة نحو دار الخلافة، وتنتظر لحظة الخلاص، مثل ما كانت الجماهير العريضة ترقّب " رجل السّاعة" لخلاصها، كما لم تغير منها سياسة الاندماج المنتهجة فيها قيد أمّلة .
إلى أيّ مدى أسهمت الزيارة في بلورة الاتجاه نحو الجامعة الإسلاميّة ؟

إنّ مجرد نزول شخصيّة في وزن الشّيخ محمد عبده، وهو من أكبر الشخصيّات الإصلاحية و دعاة الجامعة الإسلاميّة، ضيفا على الجزائر وحديثه إلى أعيانها وشيوخها، أضفي عليها خصوصية الجامعة والوحدة وتقوية أواصر الأخوة والتضامن بين المسلمين في الجزائر، وإخوانهم بالشرق. كما أن الزيارة أدّت بلا شكّ كما أثبتته المصادر، إلى تقوية الحزب العبدوي في الجزائر، في مواجهة التّيار التّقليدي المتمثّل في الطّرق الصّوفية، والتّيار التّغريبي المدعوم من الاستعمار، وإطلاق العنان للصحف العربيّة

1- المهدي البوعبدلي : جوانب مجهولة من زيارة الشّيخ محمد عبده إلى الجزائر 1903 ، الأصالة ، العددان 54-55 ، مايو 1978 ،

ص81.

2- نفس المقال، ص81-82 .

3- د.محمد برج : الجزائر في كتابات محمد عبده ، الأصالة ، العدد 52 ، ديسمبر 1977 ، الجزائر، ص 15 .

وعلى رأسها مجلة المنار، والصحافة الإسلامية الأخرى بالجزائر نسيبا، أسهم في تقوية هذا الاتجاه وتعزيزه، كما لا بدّ من الإشارة إلى أنّه في حالة الجزائر كان الحديث عن الجامعة الإسلامية، بمفهومها الواسع والسياسي الطموح من باب فضول القول، في ظلّ الأوضاع الفكرية والسياسية السائدة بها آنذاك، وبالتالي فالحديث عنها من قبيل تمّتين أو اصر الأخوة وربط وشائجها مع بقية الأمة الإسلامية. غير ان للمؤرخ الفرنسي شارل أندري جوليان، رأي آخر، حين يقول: « ففي 1904، لم يثر مرور الشيخ محمد عبده انتباها خاصا، وقد تحدّث المفتي أمام جمع صغير من المستمعين بمسجد متواضع من حيّ بلكور، ولم يخطر ببال احد على ما يظهر، أنّ ذلك العالم المفسّر، كان باعث التّهضة السياسيّة والدينيّة والثقافيّة الإسلاميّة، ما عدا في قسنطينة حيث تفتحت بعد بعض الأفكار النيّرة إلى تأثيرات الشرق.¹ »

وهو رأي يبدو لنا أن فيه بعض الإجحاف والتّنقيص من الحقائق، التي تقرّها المصادر الفرنسيّة ذاتها، إذ كيف يكون ذلك الانطباع صحيحا والدراسات المختلفة تؤكّد على تأجج العاطفة الدينيّة عند الجزائريين، سواء المثقّفين منهم أم الأميون على حدّ سواء.

ثم إنّ المنار التي غطّت تفاصيل الزيارة بيّنت الحفاوة التي لقيها الشيخ عبده خلال زيارته، أمّا ما يتعلّق بالإقبال على دروسه، فذلك لم يكن متيسّرا لأنّ سلطات الاحتلال نفسها تكتمت عن الزيارة ولم تعطها طابعها الرسمي، وأحاطتها بعدد هائل من المخبرين والجواسيس يلتقطون على الناس أنفاسهم.

لقد شهدت الجزائر أيضا زيارات أخرى مماثلة، مع مطلع القرن العشرين، نذكر منها زيارة محمد فريد بك زعيم الحزب الوطني المصري، وخليفة مصطفى كامل سنة 1901.

وانتقد الزعيم المصري السياسة الفرنسيّة، وتأثّر كثيرا لاختفاء مظاهر الحضارة العربيّة الإسلاميّة في أوساط الجزائريين، ونجاح سياسة الاندماج حسب رأيه؟ وقد عاود الزيارة مرّتين في عام 1902م ثمّ في سنة 1905م. أين حضر مؤتمر المستشرقين.² ومن الذين زاروا الجزائر أيضا محمد بيرم الخامس التّونسي في سنة 1878م، والأخوان رودوسي من رودس، بغرض الاستقرار في نهاية القرن التاسع عشر، ومحمد الخضر حسين، الجزائري الأصل وشيخ الأزهر لاحقا، والمكيّ بن عزوز، وعبد العزيز الثعالبي

1- شارل أندري جوليان : إفريقيا الشماليّة تسير، ترجمة: المنجي سليم وآخرون، الدار التونسيّة للنشر، تونس، الشركة الوطنيّة

للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1976، ص 125.

2 - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، مرجع سابق، ص 580.

،وسليمان الباروني، وسلطان محمد، وصديق احمد، وعبد العزيز جاويش، وجورج ابيض، واحمد شوقي، ويوسف وهبي، وفاطمة رشدي.¹

والواقع أنّ الفضل يعود إلى الاتجاه الإصلاحى فى إعادة بعث الأمة الجزائرية، وربطها بالعالم الإسلامى، وهذا الاتجاه مدين أيضا لتيار الجامعة الإسلامية، سواء من خلال روادها الأوائل الأفغانى وعبد، ولكن بشكل أكثر عمقا من الجيل الثانى كما سنفضل لاحقا وبالأخص الأمير شكيب ارسلان فى مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى، وان كانت تلك النهضة المحتشمة، على حد تعبير اجيرون، "قد دقت ناقوس الخطر بالنسبة للأوربيين، الذين لم يروا فيها سوى شكل آخر للجامعة الإسلامية" وقد وصل التخوف إلى حدّ أنّ مدير تحرير جريدة "لا ديبيش دي كونستونتين" نشر كتاب بعنوان "الخطر القادم، الوطنية الإسلامية" فى سنة 1913.²

III- مظاهر تفاعل الجزائريين مع دعوة الجامعة الإسلامية:

1- ظلّ الجامعة الإسلامية فى بعض المقاومات الوطنية المسلحة :

أحد الأسئلة الهامة التى تطرح على بساط البحث فى موضوع الجامعة الإسلامية، هى علاقة بعض النشاطات الثورية و المقاومات المسلحة التى شهدتها الجزائر فى أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وتحديد الفترة موضوع الدراسة (1876-1924) بحركة الجامعة الإسلامية ؟

المعروف أنّ الجزائريين عبّروا عن استنكارهم ورفضهم للوجود الفرنسى، وابدوا رغبتهم الملحة

والدّعوة فى التخلص من شروره بوسائل شتى، سواء عن طريق الوسائل السياسية والسلمية

كالعرائض والشكاوى والخروج والهجرة، لكن مما لاشكّ فيه أنّ المقاومة والتضال المسلّح، ظلّت

إحدى السبل المهمة التى لجا إليها الجزائريون أو اضطروا إليها، للدّفاع عن كرامتهم المفقودة، واستعادة

حقوقهم المسلوبة، ولم يثبم عن ذلك خذلان الأصدقاء ولا شماتة الأعداء .

صحيح إنّ ثورة الحاج محمد المقرانى فى عام 1871، شكّلت إحدى آخر الحلقات ضمن سلسلة

الثورات الكبرى فى الجزائر، والتى ترتب عنها عواقب وخيمة، تركت آثارها على أجيال بأكملها فيما بعد،

لكنها لم تكن آخرها، فما إن ينادى المنادى فى الناس بالثورة، إلّا كانت الاستجابة العفوية من الناس

وكان الجزائريون يعرفون المنادى عادة ب(مول السّاعة) أو فى مناطق أخرى بالمهدي المنتظر، الذى

يملا الدنيا عدلا بعد ما ملأت جورا.

1 - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافى، ج5، نفس المرجع، ص ص 570-595 .

2 - Ageron: histoire de l'Algérie contemporaine t2, op.cit,p181.-

رأينا فيما سبق أن نشاط الجامعة الإسلامية تصاعد بشكل لافت ، خلال فترة السلطان عبد الحميد الثاني ، الذي لم يدخر جهدا في سبيل تفويض دعائم الاستعمار الفرنسي والبريطاني ، بتأليب الشعوب العربية والإسلامية المستعمرة ضده ، وانبرى دعاة الجامعة الإسلامية يتسابقون لأداء مهمّة الدعاية ، بشتى الوسائل ، والتبشير بقرب النصر ، وانفراج الأوضاع على يد خليفة المسلمين .

ولا شك أنّ فئات عريضة علقت آمالا عريضة على تلك الدعاية ، و حركة الأمير محي الدين بن الأمير عبد القادر ، ونشاطه الثوري المناطق الشرقية انطلاقا من ليبيا وتونس ، واتصالاته الحثيثة بزعماء المنطقة ، أمثال الشريف بن عبد الله والشريف بوشوشة تدخل في ذلك الإطار ، والمعلوم أن الأمير محي الدين ، يعتبر من أعوان الدولة العثمانية ، و دعاة الجامعة الإسلامية.¹

لقد كان احتلال فرنسا لتونس سنة 1881 ، وفرض الحماية البريطانية على مصر في السنة الموالية أي في عام 1882 . بمثابة الفاجعة أو المصيبة الكبرى ، التي حلّت بالمسلمين في أواخر القرن التاسع عشر . وتذكر المصادر أنّ الجزائريين تأثروا كثيرا لاحتلال البلاد التونسية ، وعبروا عن ذلك بوسائل مختلفة ، ولعلّ منها اندلاع ثورة الشيخ بوعمامة في الغرب الجزائري ، بعد أن سحبت فرنسا جزءا من قواتها من المنطقة الوهرانية للمشاركة في الاحتلال² . والتي اعتبرت من أطول الثورات ، حيث استمرت حتى وفاة قائدها الشيخ بوعمامة في سنة 1906م ، لقد تزامنت الثورة مع ثورات أخرى أهمها ثورة الشيخ المهدي في السودان ، والثورة العرابية بقيادة احمد عرابي في مصر . ويشير الدكتور أبو القاسم سعد الله إلى أنّ ثورة الشيخ بوعمامة بلغ صداها إلى البلاد المصرية ، وظلّ يتمتع بسمعة هائلة لدى المصريين ، وأشارت المصادر التي تحدثت عن الثورة إلى وجود تأثير الجامعة الإسلامية وأفكارها ومن الذين درسوها "لويس رين " وقد أشار إلى ذلك التأثير عدد من الباحثين .

لقد تواصل نشاط الجامعة الإسلامية ، في الدعوة للمقاومة والثورة ضدّ الوجود الفرنسي خلال مطلع القرن العشرين ، فأثمرت في ظهور بعض الثورات المحليّة . كان أهمها ثورة " مارقريت " قرب مليانة في سنة 1901م . رغم أنّ بعض المؤرّخين الفرنسيين ، وعلى رأسهم المؤرّخ " أجيرون " ، ينفي صلتها بالجامعة الإسلامية ، ويعوزها إلى تعسف الإدارة ، وتدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية بالمنطقة ،

1- يحيى بوعزيز: وثائق جديدة عن دور محي الدين بن الأمير عبد القادر في ثورة 1871 ، وعن موقف أبيه والسلطات التونسية منه ، الأصالـــــة ، العدد 38 ، أكتوبر 1976 ، الجزائر ، ص ص 25-64 .

2- يحيى بوعزيز: ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين ، منشورات المتحف الوطني للمجاهد ، الجزائر ، ج1 ، ط 2

معتقدا أنّ فكرة الجامعة الإسلاميّة تكون وظّفت بغير وجه حق، من طرف الإدارة لتمرير بعض مشاريعها الاستعماريّة .

أمّا ثورة الاوراس التي انطلقت في سنة 1916م ، وهي آخر انتفاضة مسلّحة في الجزائر، قبل قيام الثّورة التحريريّة المظفّرة ، فقد أشارت بعض التّقارير الفرنسيّة أيضا، إلى ضلوع الجامعة الإسلاميّة في قيامها وانتشارها، ومنها تقرير السيّد اوكتاف ديون الخبير في الشّؤون الأهليّة، الذي عزاها إلى الطّرق الدينيّة والدّعاية الألمانيّة والعثمانيّة، ويقول أنّ الجزائريّين كانوا يعتقدون، أنّ ألمانيا على وشك الانتصار في الحرب، وإنّهم سيسترجعون أملاكهم وأراضيهم بمساعدتهم بعد وقت قليل. كما أكد الوالي العام " ليطو lutaud" إن « ثورة الاوراس كان ينتظرها الألمان. »¹

ولم تستبعد بعض التّقارير أن يكون الأمير خالد الهاشمي حفيد الأمير عبد القادر متورطا بشكل أو بآخر ، وربما يكون آزر عمّه الأمير عبد المالك، الذي أعلن الجهاد والثّورة بالريف المغربي، وكان يستهدف نقل عمليّاته إلى داخل الجزائر، وإنشاء مملكة واحدة من المغرب والجزائر.²

2-الجزائريّون والاحتلال الايطالي لطرابلس الغرب :

مثّل الاحتلال الايطالي لليبيا ، انتكاسة أخرى للعالم الإسلامي في مواجهة الزحف الأوربي، ولكنّه شكّل في آن واحد ملحمة حقيقيّة من ملاحم الجامعة الإسلاميّة، توحدت فيها الأمة الإسلاميّة من الملايو إلى مرّاكش، يحدوها الأمل في الحفاظ على آخر الثّغور الإسلاميّة ورمز الخلافة العثمانيّة، وقد لعب الجزائريّون دورا هائلا، على اعتبار الأخوة الدينيّة والجنسيّة، إضافة إلى الجوار الجغرافي الذي يحمّ عليهم - مع إخوانهم التونسيين اعباء إضافية - فضربوا أروع الأمثلة في التّضامن والتّجدة .

والمعلوم أنّ الدّول الأوربيّة الكبرى، كانت تسارع الخطى في مطلع القرن العشرين، لاستكمال آخر فصول المسألة الشّرقية، وتقسيم تركة الدّولة العثمانيّة، التي أصابها الإنهاك من جرّاء توالي الخطوب عليها من الدّاخل والخارج على السّواء، >>واتجه الطرفان الفرنسي والبريطاني إلى الدخول في مفاوضات تمهيدية، حددت المشكلات الرئيسيّة المعلقة، وانتهت هذه المفاوضات بعقد الوفاق الودي في 8 ابريل

1- شارل روبر ابيرون: الاضطرابات الثّورية في الجنوب القسنطيني، (نوفمبر 1916- يناير 1917)، الأصاله ، العددان (62-63) ، أكتوبر، نوفمبر 1978 ، الجزائر، ص ص 21-24 .

2- أبو القاسم سعد الله : وثائق جديدة عن ثورة الأمير عبد المالك الجزائري بالغرب ، الأصاله، العدد 33 ، مايو 1976 ، الجزائر، ص ص 30-47 .

1904.>>¹ . ليضع حدًا لصراع مرير بين الدولتين حول التنافس الاستعماري، وتنبئ الدولتان أسلوب الترضيات والمفاهات، لضمان بقاء سيطرتها الخارجية في إفريقيا واسبيا، خاصة بعد ظهور ألمانيا كقوة عالمية جديدة، وشروعها في ضمان نصيبها مما تبقى من التركة الاستعمارية.

وكان مؤتمر الجزيرة الخضراء، الذي عقد في اسبانيا عام 1906 .تكريسا لمبدأ التفاهات السرية، فقد تم الاتفاق على إطلاق يد ايطاليا في ليبيا، ليتسنى لها نيل حصتها الاستعمارية، وربما التفكير في لعب ادوار رئيسية –تتجاوز حجمها-على الساحتين الأوربية والعالمية كما يرى البعض، خاصة وانها تلقت هزيمة نكراء على يد الأحباش في أواخر القرن التاسع عشر، «وكانت صفة لادعاءاتها الإمبراطورية ولهيبتها في ميدان القوة»²

بادرت ايطاليا يوم 25سبتمبر عام 1911م، إلى توجيه إنذار للحكومة العثمانية، ذهبت فيه إلى تأكيد أهمية طرابلس الغرب، بالنسبة لها، وان اعتراض الحكومة العثمانية على تطوير مؤسساتها، جعلها مضطرة إلى المبادرة بالاحتلال، ثم الشروع في التفاوض، وقد كتبت "مجلة المنار" مقالا مطولا حول ذلك الموضوع بعنوان المسألة الشرقية.³

لقد كانت الحكومة العثمانية على دراية بالمخطط الايطالي، سواء عن طريق ممثلها في "فيانا" أو من الجرائد الايطالية نفسها، التي كانت تحت حكومتهم على تنفيذ الاحتلال، ورغم ذلك فلم تسعى إلى تقوية تحصيناتها، بل وسحبت الوالي العثماني منها، مما يوحي وكأن حكومة الاتحاديين تمصت من التزاماتها السياسية والأخلاقية تجاه بلد إسلامي، وفوق هذا مقاطعة عثمانية، الأمر الذي خلف شعورا بالاستياء العام في طرابلس الغرب، وحتى في مجموع العالم الإسلامي. كان من نتائج ذلك الغضب، استقالة حكومة حقي باشا، واستلام سعيد باشا الحكومة التي عملت على حفظ ماء الوجه، فقامت باستدعاء الشبان العسكريين من أوروبا للالتحاق بطرابلس الغرب وبنغازي.

حاصر الجيش الايطالي مدينة طرابلس في 30سبتمبر 1911، وشرع في قنبلتها يوم 3أكتوبر 1911 ظانًا أن عملية الاحتلال ستكون سهلة، بل مجرد "فسحة عسكرية"، لكنه عجز تماما عن التوغل داخل البلاد لشدة المقاومة، وتوحد المسلمين باتجاه نصره إخوانهم، وقد عبّر الشيخ عبد العزيز الثعالبي عن ذلك التآزر بقوله –موجها كلامه للأوربيين:

1- عبد العزيز نوار، محمود محمد جمال الدين: التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي، مصر، 1999، ص421.

2- جمال حمدان : إستراتيجية الاستعمار والتحرير، مرجع سابق، ص 124.

3 المنار : م14، ج10، ص 782 .

«إذا رأوا قلوب المسلمين ترفرف بأجنحتها حول هذا العرش فزعا مما أصاب الدولة، من اعتداء إيطاليا على طرابلس ، أو ليس المعتدي على خليفة المسلمين، حامي حماهم ويقاعهم المقدسة، هو معتد على دين الإسلام والمسلمين؟». ¹ وقد ذكر الشيخ أحمد توفيق المدني تفاصيل تلك الملحمة ومشاركته بها رغم صغر سنه، رفقة زملائه من الشبان التونسيين، بجمع التبرعات للمجاهدين، وإثارة حماس الجماهير وكان الشعر الملحمي والحماسي إحدى وسائل الإثارة الهامة، وقد أطلق شاعر العروبة حينها الشاعر العراقي معروف الرصافي العنان لحماسته الشعرية فقال في بعض قصائده :

ألا انهض وشمّر أيها الشرق للحرب وقبّل غرار السيف واسل هوى الكتب
ولا تغترر إن قيل عصر تمدّن فقد بان ما قالوه من أكذب الكذب
الست تراهم بين مصر وتونس أباحوا حمى الإسلام بالقتل والنهب
ولا اقصد الطليان بالذنب وحدهم ولكن جميع الغرب اقصد بالذنب ²

لقد عبّر الجزائريون عن تضامنهم مع إخوانهم بطرق مختلفة، ابسطها التعاطف مع محنتهم والدعاء لهم في المساجد، وكانت حديث العام والخاص في الشوارع والمقاهي والأسواق، واعتبرت المناطق الشرقية المحاذية للحدود التونسية والليبية أكثر تأثراً بالإحداث.

وقد أشار "أجيرون" أنّ عمالة قسنطينة وحدها أسهمت بثلاثمائة وأربع وأربعون (344) ألف فرنك، من المساعدات المالية، لفائدة الهلال الأحمر -لفائدة الطرابلسيين- من مجموع أربعائة وعشرة (410) آلاف فرنك. ³

يعتبر عمر بن قدور، وهو من دعاة الجامعة الإسلامية في الجزائر، من الشخصيات الهامة التي اهتمت بقضية الاحتلال الايطالي لطرابلس الغرب، فقد انبرى بقلمه يكتب المقالات الطوال في جرائد مختلفة، منبهاً إلى خطر ضياع طرابلس على الخلافة الإسلامية، نشر مقالا في مجلة الحضارة "الاسطنبولية" في عددها (132) بعنوان " ليتقوا الله في طرابلس " حذر فيه الاتحاديين من ضياع طرابلس الغرب، معتبرا أنّ « ضياع طرابلس الغرب ویرقة، يؤدّي إلى ضياع الشرق، وتصبح الأبعاد الإسلامية منصرفة عن مركز الخلافة ». ⁴

1 - العجيلي: صدى الجامعة الإسلامية ، مرجع سابق، ص 147 .

2 - أحمد توفيق المدني : حياة كفاح ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ، ج1 (في تونس 1905-1925)، ص 38.

3 - Ageron : les algériens musulmans et la France ,op.cit., p 912.

4 - عمر بن قدور : ليتقوا الله في طرابلس ، مجلة الثقافة ، الجزائر ، العدد الأول ، مارس 1971 ، ص 151.

كما شغلته تفاصيلها فسخر جريدة الفاروق كمنبر إعلامي لنصرة قضية طرابلس الغرب، وقد رأى في الحرب «بداية انقراط العقد الإسلامي، وبداية سقوط حباته الواحدة تلو الأخرى،" كما اعتبر تلك الحرب "الفرصة الأخيرة لوثبة العالم الإسلامي من كبوته، أو دخوله مرحلة الانتحار».¹

وكان الشيخ القطب (اطفيش)، من ابرز رجالات الإصلاح الذين تحمّسوا للقضية الطرابلسية أيضا ودعا الجزائريين للتبرع بالمال والسلاح للمجاهدين الطرابلسيين، يذكر الأستاذ محمد علي دبور، أنه تلقى نيشانا علميا رفيعا من طرف السلطان عبد الحميد الثاني، نظير خدماته الجليلة لصالح الإسلام والجامعة الإسلامية.²

كما حملت جريدة الحق الصادرة بوهران، لواء التضامن لفائدة الجرحى الطرابلسيين، وساهم العديد من الجزائريين خاصة بالنواحي الشرقية في الجهاد، وكانت تونس هي المعبر للمتطوعين ولعب "على باش حامية" التونسي دورا رائدا في مجال التعبئة والدعاية لقضية طرابلس الغرب، وهو من أكبر المتحمسين لفكرة الجامعة الإسلامية، كما ساهمت شخصيات عربية وإسلامية مرموقة في الجهاد، منها الأمير علي بن الأمير عبد القادر، والأمير شكيب ارسلان، ومصطفى كمال، وسليمان الباروني، وصالح الشريف.³ إضافة إلى متطوعين من مختلف البلاد الإسلامية، من ترك وعرب وأفغان، وقد عبر عن ذلك المشهد مؤلف كتاب حاضر العالم الإسلامي، بقوله:

« انبرى العرب والترك، يقاتلون جنبا إلى جنب، بروح عجيبة بعثتها فيهم دعوة الجامعة الإسلامية، من بعد ما كانوا قبيل ذلك على حال من الازورار والتنافر شديدة.»⁴

كما تجدر الإشارة إلى وقوف بعض عناصر النخبة المتأثرة بالثقافة الفرنسية، إلى جانب قضايا الأمة الإسلامية، رغم ازدرائهم لها وهذا فرحات عباس، يكتب مقالاته باسم مستعار، هو كمال بن سراج للدلالة على تأثره بالزعيم مصطفى كمال، وتأسّيه به نظرا لدوره الكبير في الدفاع عن الدولة العثمانية، في تلك الظروف العصيبة، كما أنّ حركة الشبان الجزائريين حذت حذو الشبان الأتراك، وما تجدر الإشارة إلى استمرار دعم المقاومة الليبية في مواجهة الاستعمار الايطالي الغاشم، بقيادة عمر المختار والسنوسيين، وفي نفس الوقت كان لجهاد عمر المختار صدى هام في الجزائر، وبالأخص في المناطق الشرقية والمحاذية

1 - بن قنور: نفس المقال، ص 152 .

2 - محمد علي دبور: نهضة الجزائر وثورتها المباركة، المطبعة التعاونية، الجزائر، ج1، ط1، 1965، ص 356 .

3- نفس المرجع، ص 157 .

4 - ستودارد: حاضر العالم الإسلامي، مصدر سابق، ج1، ص 312 .

للحدود الليبية.¹ ، وكانوا يصفون موسوليني بـ "العدو الأكبر للإسلام" ، وكثيرا ما كانت تحدث مناوشات بين جزائريين وإيطاليين (معمّرين) ، حول سياسة إيطاليا العدوانيّة في ليبيا. كما استنكروا كثيرا إقدام الإيطاليين على إعدام عمر المختار، الذي لم يشفع لهم مقامه ولا سنّه، ويذكر ديارمي أنّ الشّهاد عمر المختار، كان محبوبا جدّا في الجزائر.²

3- الجزائريون والحرب العالميّة الأولى (1914-1918):

مثلت الحرب العالميّة الأولى فصلا هامّا من فصول الصّراع بين الجامعة الإسلاميّة والدّول الغربيّة، والحقّ أنّ هذا الفصل كان حاسما ومصيريا إلى حد كبير ، نظرا للطابع العالمي للحرب ، والنتائج التي ترتبت عنها، وقد لجأ كلّ طرف فيها إلى تسخير ما لديه من إمكانيات معتبرة، مادية ومعنوية لكسبها، وإذا كان الصّراع في ظاهره، يبدو ذو أسباب قوميّة تتعلّق بمنطقة البلقان وتناقضاتها الدينيّة والعرقية والاقتصاديّة، ومقتل ولي عهد النمسا الارشيدوق فرديناند في " سراييفو " ، لكن جوهر الصّراع كان استعماريّا تنافسيّا، مع التّركيز على الشرق الادنى وتصفيّة المسألة الشرقيّة ، وكانت الدّولة العثمانيّة احد الأطراف الأساسيّة فيها ، وقد أعلنت عن تحالفها مع دول الوسط ، وعلى رأسها ألمانيا ، في مواجهة مع أعدائها التقليديين فرنسا وبريطانيا.

أعلن السّلطان العثماني دخول تركيا الحرب، على اثر التحرشات الروسية على حد قوله، وقد طلبت الدول الكبرى من سفرائها مغادرة تركيا، ثم ضربت أساطيلها مضيق الدردنيل ، وهي اعتداءات أوجبت " اخذ السلاح والخروج إلى الهجوم، حيث صدر الإذن بانضمام جيوش الدّولة العليّة إلى جيوش ألمانيا والنمسا.³ واستنهاضا منه للجيوش ورفع الهمم، خاطبها السّلطان بقوله: « عساكرنا الشّجعان والأبطال، إنّ الدين والوطن صاحا صيحة كبرى، وطلبا منكم التّضحية بأرواحكم من اجل نصرتهما. " أن ثلاثة مائة مليون من المسلمين، أنظارهم متوجهة إلى الله والكعبة ، ثمّ أليكم ، اتم أنجال السلف الصّالح، الذين كان يحترّمهم جميع الأعداء، كما أنهم دافعوا عن البلاد المقدسة والقبر النبوي الشريف ، إنّنا انضمنا إلى أحسن وأقوى جيش في العالم اجمع، وبفضل الله نخرج من الدّل والمقت.»⁴

1- للمزيد انظر: د. ناصر الدين سعيدوني: صدي كفاح عمر المختار في الجزائر، الثقافة، عدد 56، مارس-أبريل 1980، الجزائر، ص

ص99-114.

2- سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية، ج2 ، مرجع سابق ، ص 334.

3 - العجيلي : صدى حركة الجامعة الإسلامية ، مرجع سابق، ص 225 .

4- نفس المرجع ، ص 226.

كما بادرت الدولة العثمانية إلى إصدار فتاوى، تتعلق بإعلان الجهاد للمسلمين ككل، وهناك اختلاف حول تاريخ ذلك، فقد ذهب "أجيرون" إلى إن الإعلان كان في 21 نوفمبر 1914، في حين يذهب الأستاذ علي مراد،، إلى أن ذلك كان في 23 من نوفمبر، وهي كلها تواريخ تبدو غير صحيحة، وأن التاريخ الأدق ربما، يكون هو الجمعة 14 نوفمبر، حسب تحليل الأستاذ التليلي العجيلي¹، في أجواء احتفالية كبيرة .

كان الإعلان بمسجد السلطان الغازي محمد الفاتح، وهناك جرائد معاصرة تؤكد ذلك، كالاتحاد العثماني البيروتية ليوم 20 نوفمبر، وكذلك صحيفة الإصلاح، التي نشرت نص الفتوى في عددها ليوم 18 نوفمبر. ، وقد حرّر الفتوى آنذاك الشيخ "خيرى بن عون الأركوبي"، من عائلة عون المنافسة لبني هاشم، في شكل خمسة أسئلة وقعت الإجابة عليها .

واعتبرت الفتوى أن مهاجمة الديار الإسلامية، والغارة عليها مع ما ترتب عنها من غضب للممالك الإسلامية، واصر المسلمين وسبيهم يفرض عليهم الجهاد جميعا، وهو فرض عين على القادرين بالمال والتففس، وإن كل انخراط في صفوف الأعداء، يعدّ إثما عظيما، ومعصية وحرام شرعا.² كما لاحظنا تركيز الفتوى على الدول الثلاث روسيا، وفرنسا، وبريطانيا، دون الإشارة إلى إيطاليا والظاهر أن السبب كان رغبة الدولة العثمانية وألمانيا، ضمان تحييد إيطاليا في الحرب، وميّزت فترة إعلان الحرب أيضا جملة من البيانات والدعاية الواسعة، مستندة إلى آيات قرآنية وأحاديث نبوية للحث على الجهاد، ودخول الحرب ضدّ الحلفاء.³

لقد وجدت السلطات الفرنسية نفسها أمام وضع صعب ومعقد، نتيجة الدعاية العثمانية المركزة، وتكمن الصعوبة أساسا في صعوبة إقناع المجندين من الجزائريين للتوجه نحو جبهات القتال بأوربا، والتي كانت تعني الموت المحتم، بالأخص في "الأشهر⁴ الأولى من الحرب التي كانت مأسوية"، حيث تسربت المعلومات حول حجم الخسائر، وبالأخص في صفوف الرماة الجزائريين، وبناء على ذلك عمدت تلك السلطات إلى وسائل متعددة ترغيبا وترهيبا، "فالقِياد صاروا يعينون في وظائفهم حسب عدد المجندين، وزعماء الطرق يدعمون التجنيد بمحملات دعائية".⁵ وظهر الاستياء العام في جبهات القتال،

1- العجيلي، مرجع سابق، ص 226.

2- نفس المرجع، ص 228-229 .

3- نفسه، ص 233-238.

4- Ageron: histoire de l'Algérie contemporaine,t1,op.cit, p256. -

5- ibid,p256. -

حيث رفضت بعض الوحدات القتالية أن تقاتل ، أمّا البعض الآخر فقد فرّت من ميادين المعركة ، باتجاه القوات الألمانية والعثمانية. أوضح الجنرال "جوفر" ، أنّ القانون العسكري لن يتسامح مع الفارين ، وأنّ مصيرهم الموت ، و رغم إعدام اثنا عشر مجنّدا حاولوا الفرار من المعسكر، يقول احد الضباط فإنّ عمليات الفرار استمرّت ، وهو يشير إلى تأثير الدّعاية المضادّة للجامعة الإسلاميّة ، وعموما فالفرنسيّين يعترفون بأنّ الأهالي لم يكونوا مخلصين لهم مطلقا.¹

وفي مواجهة الدّعاية العثمانيّة ، لجأت فرنسا إلى محاولة الظّفر بتأييد بعض أبناء الأمير عبد القادر الجزائري ، لما تتمتع به عائلة الأمير من تقدير واحترام، وكانت المنافسة شديدة حول هذا الموضوع ، والظّاهر أنّ فرنسا ظفرت بتأييد الأميرين عمر (أكرمت الأمير عمر بالأوسمة و النياشين) والظّاهر، لكنّها كانا تحت الرّقابة الشّديدة، لم يسعفهما تقديم الدّعم للفرنسيّين، وقد تمّ إعدام الأمير عمر ، مع رموز الحركة العربيّة في سنة 1916، من طرف والي الشّام جمال باشا ، كما استمالت إليها أيضا الأمير سعيد ومنحته مرتبا شهريا معتبرا.² لكنّه هو الآخر اعدم في سنة 1916.

وقد وظّفت الدّولة العثمانيّة الرّعاء والوجهاء من المهاجرين والمهجّرين، ومن ابرز الأمثلة بعض أبناء الأمير عبد القادر، فقد صدرت تعليمات من الباب العالي إلى والي دمشق، بالعمل على استمالة أبناء الأمير عبد القادر بأيّة وسيلة، فرقي الأمير "علي" من نائب على دمشق، إلى نائب رئيس المجلس العثماني.³ و استمالوا إليهم الأمراء الأربعة محمد، محي الدين، عبد المالك، وعلي باشا.

لعبت الصّحف دورا كبيرا في نشر الفتوى الشريفيّة وترجمتها إلى مختلف اللّغات، وطلب من الأئمّة والخطباء الترويج لها في المساجد، كما طبعت في مئات الآلاف من النّسخ المطبوعة ووزّعها لجان الدّعاية، وقد اختارت لجنة الدّفاع القومي بالقسطنطينيّة، والمتكوّنة من شيخ الإسلام وأنور باشا وسفير ألمانيا العناصر المكلفة بالدّعاية ، ومنهم : شريف عادل باشا، وشريف علي مظهر، وعبد الرحمان باشا، وكلهم من أعيان دمشق، مكلفين بمصر وتونس والجزائر، وفي سبيل اختراق المستعمرات الفرنسيّة والبريطانيّة استعملت الدّولة العثمانيّة كلّ الوسائل الممكنة للغرض،⁴ كما جنّدت كلّ فئات المجتمع من (الصّحفيين ، الدّعاة والعلماء ، الجواسيس ، المستشرقين الألمان...الخ). وقد ظهرت لجنة علماء

1- Ageron: histoire de l'Algérie contemp...., op.cit,p256.

2- هلال : الهجرة الجزائرية...،مقال سابق، ص 88 ، هامش 56 .

3 - سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية، ج2 ، مرجع سابق ، ص 258 .

4 - الحسنواوي : المقاومة العربية ،مرجع سابق،ص 161-162 .

المسلمين، وحرّرت نداء وجهته إلى المسلمين الخاضعين لفرنسا وبريطانيا وروسيا، وتتألف من شخصيات هامة ونافذة على غرار احمد الشريف التونسي، والمدعو عمر الورغي من الجزائر أيضا، (لم يتسنى لنا التعرف عليه)، وغيرها من الشخصيات.¹

ويعتبر علي باشا من أكثر أبناء الأمير نشاطا وأقواهم شخصيّة -باعتراف الفرنسيين - فهو يمتاز بعد النظر وسعة التقوّد، ولم يخضع لإغراءات الفرنسيين ودعايتهم، وكان يتمتّع بنفوذ كبير في سوريا، تمّت ترقّيته إلى باشا في عام 1896. وعيّن (قائمقام) القنيطرة، كما أنّ زواجه من أخت عزّت باشا جعله قريبا من السلطان عبد الحميد الثاني.²

وجهته السّلاطات العثمانيّة إلى برلين، لزيارة اسري شمال إفريقيا، وحملهم على الانضمام للجيش العثماني، وهو ما حققه، وقد حضر تدشين مسجد للأسرى المسلمين في محتشد (زوسن) قرب برلين، وألقى خطابا على الأسرى الجزائريين يحثهم على محاربة فرنسا اللعينة، ويكون ربّما نجاح في تكوين كتبية من الرماة اغلبهم من الجزائريين، كما بادر علي باشا إلى تكذيب ادّعاءات بعض الصّحف المغرّضة مثل " la dépêche marocaine" التي تحدّثت على أنّ الأمير وأبناءؤه، كانوا محبّين لفرنسا وموالين لها، مبرزا أنّ الأمير عبد القادر والده، ظلّ يحارب فرنسا فترة طويلة وانه ناصبها العدا، وإنّ أبناءه وحاشيته على مذهبه، لأنهم لم يروا منها إلا الظلم والبلاء، وإنّ أهالي الجزائر وتونس يشهدون على ذلك، ثمّ هي ساقتهم إلى محاربة إخوانهم في الدين، لقضاء مصالحها، ثمّ أشاد بالمعاملة الحسنة على يد الألمان لأسرى المسلمين، حتى أنهم أصبحوا على حد قوله :

" يدعون للدولتين الألمانيّة والعثمانيّة بالنّصر والتّمكن، ويتمّون لو أنّهم كانوا في صفوف إخوانهم يقاتلون معهم جنبا إلى جنب، أعداءهم وأعداء الإسلام، ليظهروا أنفسهم من الإثم والوزر، الذي جرّهم إليه أعداؤهم"، ومن أبناء الأمير أيضا الأمير عبد المالك، وهو الابن الثاني قبل الأخير للأمير عبد القادر، وهو من اشدّ المتحمّسين للجامعة الإسلاميّة، وقد عاصرها وكان شديد العدا لفرنسا.³

"كان الأمير عبد المالك عقيدا في الجيش العثماني، ومع ذلك سعت فرنسا لاستماتته فعرضت عليه دخول الجزائر والانخراط في صفوف جيشها، وهو ما تمّ فعلا، لكنّه لم يفعل ذلك عن قناعة بل لحاجة في نفسه، فالرجل كان يضمّر الصّغينة للفرنسيين ويتربّص بهم الدوائر، واطر مؤتمّر " طنجة" عينته قائدا

1- العجيلي : مرجع سابق ، ص 240.

2- ذهب بعض المصادر إلى التشكيك في ولائه للعثمانيين، وانه ظل على اتصال بالفرنسيين وطلب منهم جراية والده مرات عديدة، لكنهم رفضوا ذلك بكونه يحمل جنسية عثمانية.انظر،

3- العجيلي : نفس المرجع ،ص 249.

للشرطة الشريفية بطنجة " ¹ لكنه كان يعدّ العدة للثورة ضدها، ووضع خطة مشتركة مع سفير ألمانيا بمديرد، لفتح جبهة حربية ضدّ الفرنسيين، وفي صورة نجاح الخطة، تعمل الدولة العثمانية وألمانيا على إقامة مملكة واحدة تضمّ المغرب والجزائر. ²

دخل الأمير عبد المالك أراضي المغرب الأقصى في أواخر سنة 1914، وكون في بني "مستارة" أول قوة لمقاومة الفرنسيين بالمغرب، لم تلبث أن اندلعت في "تازة"، قريبا من الحدود الجزائرية ويضمّ جيشه ضباطا أتراك وألمان، ³ ونجح في استمالة الأمير الريفي عبد الكريم الخطابي وزعماء آخرون، منهم الهنية، الشنكيتي، الريسوني. ⁴ وتمكّن من تحقيق انتصارات عديدة، والاستيلاء على أموال وذخائر معتبرة.

لقد كان حريصا على إعادة أمجاد الماضي، فكانت تأخذه نشوة ذلك فبييت مفكرا حتى الصباح، وحرصه على ذلك جعله يضع آمالا عريضة على الجامعة الإسلامية والتحالف الألماني-العثماني، فأرسل الرّسل إلى الجزائر وتونس لإعلان أهلها الجهاد، معتبرا أنّ اليوم المنتظر صار قريبا جدّا ويعلم « أعداء الإسلام في العالم أنّ قلوب الملايين من المسلمين، تخفق اليوم بكلمة الجهاد المقدّس. » ⁵

ومن الذين نشطوا في الحرب لصالح الدولة العثمانية والجامعة الإسلامية، نذكر الشيخ سليمان الباروني، ⁶ وأشارت المصادر الفرنسية أيضا إلى المدعو الحاج عبد الله بوكابوية، الذي ألف كراسين احدهما بعنوان " الإسلام في الجيش الفرنسي " ، والكراس الثاني هو : " الجنود المسلمون في خدمة فرنسا les soldats musulmans au service de la France . شهر فيه بالمعاملة السيئة لجنود شمال إفريقيا، وركّز أيضا على العلاقات الوطيدة لمسلمي شمال إفريقيا بتريكا، والتي يعتبرونها مصدر فخر واعتزاز لهم ⁷ .

1- سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، مرجع سابق، ص 259 .

2- سعد الله : وثائق جديدة عن ثورة عبد المالك، مقال سابق ، ص 54 .

3 نفس المقال ، ص 56 .

4- سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، نفس المرجع، ص 261 .

5- سعد الله : وثائق جديدة ... ، نفس المقال ، ص 60 .

6- سليمان الباروني، من قبيلة البارونيين بعمان، ولد بجبل نفوسة بليبيا في 1870 . اباضي المذهب، تعلم في تونس ومصر والجزائر (ميزاب) . كان كثير الترحال، عمل في مصر وبغداد ومسقط، وحارب في طرابلس الغرب ، توفي في بومباي بالهند . 1940. ويعتبر من اكبر المنافحين عن الدولة العثمانية والمدافعين عن الجامعة الإسلامية بقلمه وفكره . للمزيد : انظر :

سعد الله أبو القاسم ، سليمان الباروني أضواء وملاحظات ، الثقافة، العددان (110-111) سبتمبر-ديسمبر 1995، الجزائر ص231-258 .

7- العجيلي : مرجع سابق ، ص 268 .

ومن الشخصيات التي لعبت دورا في هذا المجال أيضا، الشيخ محمد الخضر حسين -الذي صار لاحقا شيخا للأزهر الشريف- ، والذي كان رفقة الشيخ صالح الشريف وإسماعيل الصفايحي، واتجهوا إلى ألمانيا للاتصال بالجنود المغربية المأسورين هناك، وحضر يوم 14 جويلية سنة 1915، بحضور سفير تركيا في برلين، تدشين مسجد في معسكر الهلال بفزندورف wunsdorf، لقد ألقى كلمة بالمناسبة، موضّحا أنّه " في الوقت الذي بنت فيه ألمانيا مسجدا للمسلمين، عمدت فرنسا إلى تحويل جامع صالح باي بقسنطينة والجامع الكبير بعنّابه إلى ثكنة، حشدت فيها جنودها " ¹. ويذكر المصدر أنّ الكلمة أُلقيت على الجنود الشّمال إفريقيين في جبهات القتال، على شكل نسخ تحريضية بواسطة قنابل يدوية .

وقد كانت معاملة الألمان، للأسرى الجزائريين خلال الحرب حسنة ، وقد وُجّهوا بعد ذلك إلى جبهات القتال في الشرق الأدنى إلى جانب الأتراك، أو وُظّفوا لمحاربة الفرنسيين في جبهات أخرى، وبين سنتي 1915 و1916، انشأت في برلين "اللجنة الإسلامية لاستقلال إفريقيا الشمالية" وحضر احتفال انشائها الأمير علي بن الأمير عبد القادر الجزائري ، واجتمعت هذه اللجنة في سنة 1916، لوضع خطة عمل ضدّ فرنسا في المغرب العربي ، كما عين السلطان العثماني الشيخ سليمان الباروني، خليفة له في طرابلس الغرب ، وبتعليمات لتشجيع الثورات بالمنطقة ². ولا يستبعد أن تكون الاضطرابات التي شهدتها بعض مناطق الجزائر (الاوراس والهقار) في تلك الفترة انعكاسا لذلك.

كما أنّ تمجيد ألمانيا والدولة العثمانية كان حاضرا في الأوساط الشعبية ، ففي سطيف- استمع في أواخر سنة 1914 - إلى أصوات تهتف "تحيا ألمانيا، تحيا اسطنبول ، تسقط فرنسا. كما أنّه كانت هناك إشاعات تشير إلى "وصول الجيش التركي" ، وتحرك السنوسيين باتجاه ورقلة، الأمر الذي ألهب حماس الجزائريين في المناطق المذكورة للجهاد، كما كان هناك أيضا حضور قوي لألمانيا في الأغنية الشعبية ، والغناء الشعبي هو متنفس الجماهير، وأسلوب هام في التعبير عن إشجانهم وأمانهم.

لقد صوّرت المقاطع الغنائية في الجزائر، "غليوم الثاني" إمبراطور ألمانيا، قويا مثل الفهد ⁴ ولقّب بالقاب "المنصور" و"قدور" ⁵. وهي ألقاب حافلة بمعاني القوّة والاعتداد بالنفس، وإشادة بقوّة ألمانيا

1- العجيلي: نفس المرجع ، ص 268 .

2- سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ج2، مرجع سابق ، ص 258 .

3- العجيلي : نفس المرجع ، ص285.

4 - Ageron : les algériens musulmans et la France, t 2 , op.cit, p1176.

5 - Gilbert Meynier : l'Algérie révélée, la guerre de 1914-1918 et le premier quart du XXe siècle , -

Genève ,librairie drez, 1981,p 620.

وإمبراطورها في أوساط الأهالي، وكانت أغانيهم تجمع على انهزام الفرنسيين وانتصار الألمان، الذين سيزحفون على فرنسا ويدمرون باريس، كل ذلك بفعل غليوم المرعب الذي يضرب في السماء بمناطيدته، وتحت الماء بغواصاته، وعلى سطح الأرض بواسطة عيارات "420".¹ كما استعملت وسائل الدعاية المختلفة من جانب ألمانيا و الدولة العثمانية، وعلى رأسها الصحف التي فتحت صفحاتها للكتاب من العالم العربي وشمال إفريقيا بالخصوص، ونالت ألمانيا بفضل دعمها للخلافة العثمانية تقديرا لا نظير له، بلغ حدّ الأسطورة. وتعتبر أسطورة الحاج "غليوم" إحداها، وقد كتب ديارمي Desparmet، وهو احد المهتمين بموضوع الجامعة الإسلامية وتأثيرها، مقالا نشر بالمجلة الإفريقية *la revue africaine* لسنة 1932، بعنوان "أغنية الجزائر (العاصمة) أثناء الحرب الكبرى"، أورد فيها تلك الأغنية المعروفة ب"أغنية الحاج غيوم".

وهي قصيدة طويلة تنقسم إلى سبعة وثلاثون 37 مقطع، تختلف عدد الأبيات بالمقطع الواحد من بيت إلى عشرة أبيات حتى يسهل تلحينها ينتهي المقطع عادة بيت مشترك مثل قوله :

أي أي كي نعمل له ** الحاج قيوم يطع سعده

يشير صاحب المقال إلى أنّ هذه الأغنية «سمعت في الأيام الأولى من إعلان التعبئة العامة في الحي العربي بالجزائر العاصمة، على شفاه الأهالي، وقد ملأت الأحياء والمقاهي والأزقة، وتلقاها مسامعنا بواسطة اليهود والأسبان العاملين في باب الواد وتلاميذ المدارس، ثمّ ما لبثت أن انتشرت كالهشيم في أوساط التاطقين بالعربية حتى الصحراء، وفي أوساط البربر حتى بجاية، وفي تونس، وانتشرت غربا إلى سهل الشّلف ومعسكر، ووهران، وتلمسان، وتازة، ولم أبحث فيما وراء ذلك»²، لكنّه يستدرك فيقول: «إننا نعلم انه بواسطة الزّواف والزّماة، قد انتشرت في أوروبا والمشرق العربي أيضا».

وبعد أن يحلّل الأغنية من جوانبها الفنيّة، يقول «إنّ الأغنية كانت واسعة الانتشار، وإنّ الناس كانوا فعلا يأملون في الخلاص، وينتظرون رجل الساعة، الذي هو عندهم السّلطان العثماني، والحاج قيوم(الإمبراطور الألماني غليوم الثاني). ولم يصدق سكان القرى نهاية أسطورة "قيوم" وضلوا يرددونها رغم مضي ثلاث سنوات على نهاية الحرب، أمّا سكّان المدن فقد كفّوا عن ترديدها منذ سنة 1917، ويقول إنّ إحدى وسائل انتشارها، هم المداحين الذين كانوا يجوبون الأسواق»³.

1 - Ageron : les algérienst2.. op.cit., p1177 . - 1

2 - Desparmet: la chanson d'Alger pendant la grande guerre, in *revue africaine*, no. 73, 1932 , pp 59. - 2

3 - *ibid*, p 59. - 3

كما يتحدث المقال عن «ظهور بعض الانتفاضات بسبب تلك الدعاية العثمانية في بني شقران بمعسكر وفي الجنوب التونسي وثوراة الأوراس في 1916»¹ .

ثم يسرد الأبيات المختلفة للأغنية وتظهر فيها عبارات الحرب، منها الشخصيات كالحاج "قيوم(غليوم الثاني) ، سلطان الترك ، الجنرال "جوفر" ، والمواقع المعلمية ، والمدن الهامة، مثل: " الدردنيل، برلين ، اسطنبول باريس . والدول المشاركة من الجانبين مثل : " فرنسا، لانجليز، لالمان، الطليان، لوتريش،(النمسا) والموسكوفة (الروس). كما تبرز في القصيدة بعض الأبيات بالأمازيغية، وتحمل نفس معاني الأبيات باللغة العربية .

ولا تبدو الأغنية متجانسة في كل مقاطعها، وتتكلم عن أحداث شتى، وأحيانا تخلط بين السياسة والغرام، وهذا ما اسماه الكاتب بالمعاني أو الرموز، وتختتم بأبيات على شكل دعوات بالنصر للألمان ومعسكرهم .ونجد فيها :

يا حي ياقيوم ** الله ينصر الملك قيوم
يا ربي يا ذا الملك ** الله يخذل جيش الموسكو
نتوسل لك بالخواص ** الله يذل اجيوش لافرانس
يا جبار يا عزيز ** اخلي الملك من جنس لانجليز
أمين أمين امين ** امين يا رب العالمين²

وقد أكد المفكر مالك بن نبي قصة الحاج قيوم في مذكراته، بقوله: « وفي تلك الظروف بدأت تظهر أسطورة (الحاج غليوم) وبدأ الشعراء الشعبيون، يمجّدونه مستعينين لذلك بالأدب الشعبي القديم يبعثونه من سباته " إلى أن يقول "هذه الأوهام ظلّت فترة في أذهان الجماهير»³.

كما انتشرت صور السلطان العثماني في كلّ مكان ، وكانت العديد من البيوت تعلق صورة السلطان على جدرانها وفي أسفلها عبارة "اللهم انصر سلطاننا"⁴. وهو دليل على الولاء للدولة العثمانية ومبادئ الجامعة الإسلامية .

1 - Desparmet: la chanson d'Alger pendant la grande guerre , op.cit , p60 .

2 - Ibid, p83 .

3- مالك بن نبي : مذكرات شاهد القرن ، مصدر سابق ، ص 30 .

4 - Meynier : l' Algérie révélée, op.cit., p 622 .

لقد مثلت الحرب العالميّة الأولى فعلا، فترة خصبة لدعاة الجامعة الإسلاميّة، الذين شتّوا حربا فكرية وميدانية ضدّ الحلفاء المعادين للدّولة العثمانيّة والمسلمين عامّة، وبمباركة الخلافة العثمانيّة وتأييد ألمانيا، وكأنيّ بلسان حالهم يقول، أنّ هذه المجابهة مصيرية إلى ابعد الحدود، وأنّ خسارتها سيترتب عنها ما لا يحمد عقباه. ولم تكن الدّولة العثمانيّة، وهي تحالف ألمانيا ليغيب عنها ما يحاك ضدّها في الخفاء، فقد كانت على علم بالمؤامرات الفرنسيّة-البريطانيّة السريّة، باقتسام ما تبقى من تركة الرّجل المريض في المشرق العربي، وبعود الانجليز لليهود بالوطن القومي في فلسطين، بل تكون حذرت الشّريف حسين، زعيم الثّورة العربيّة، من مغبّة الوقوع في شركهم، لكن ربّما كانت أكاذيب ومناورات الجاسوس البريطانيّ "لورانس" العربي، لدى الأمراء العرب، اصدق من نصائح العثمانيّين .

أدرك الجزائريّون بالفطرة، أنّ هزيمة تركيا وحلفائها، سيكون وبالا على الأمتة بأكملها، وقد تمّرسوا على أكاذيب الفرنسيّين، ويعلمون أنّ لا ميثاق لهم. لذا فقد كانت نظرتهم إلى عرب المشرق المنضوين تحت لواء الشّريف حسين، نظرة ازدراء واحتقار في الغالب، وما إن وضعت الحرب أوزارها حتى تبين الغثّ من السّمين، وظهر لدعاة الجامعة الإسلاميّة وغيرهم صدق ما كانوا يجذرون .

IV- الجزائريّون ومسألة إلغاء الخلافة الإسلاميّة :

-آراء بعض الجزائريّين في إلغاء الخلافة الإسلاميّة سنة 1924:

من بين الأحداث البارزة التي ميّزت السّاحة العربيّة والإسلاميّة، غداة نهاية الحرب العالميّة الأولى، موضوع إلغاء الخلافة الإسلاميّة في تركيا، واستبدالها بالنّظام العلماني الجديد، بزعامة مصطفى كمال الملقب ب " أتاتورك "، فقد توالى المواقف وردود الأفعال على ذلك الحدث الكبير في أقطار العالم الإسلامي قاطبة، كما في الجزائر أيضا، لقد كان موقف الجزائريّين، خاصّة النّخبة الإصلاحيّة المتشعّبة بالثقافة العربيّة الإسلاميّة، معارضا لإلغاء الخلافة باعتبارها قلعة الإسلام الحصينة، لكنّها في الوقت ذاته تعبّر عن الإعجاب بشخصية القائد مصطفى كمال، بالنّظر لانتصاراته الباهرة على اليونانيّين، وجهوده الكبيرة لتطوير تركيا علميا وفكريّا واقتصاديّا، أما الشّبّان المثقّفين بالفرنسيّة، المتأثرين بالثقافة الغربيّة، فلم يعيروا للموضوع أهميّة، بل رأوا في جهود الكماليين التحديثيّة والعلمانيّة، مثلا للاحتذاء، وسلوكا للتّقدير والإعجاب، أن نستعرض موقف الشّيخ عبد الحميد بن باديس من مسألة إلغاء الخلافة .

لقد تأثر الإمام ابن باديس كغيره من رجالات الإصلاح بألم، انقسام عرى الوحدة والتّضامن الإسلامي التي ألمّت بالأمتة الإسلاميّة منذ سقوط الخلافة عام 1924م، وتكالب قوى الاستعمار على ما تبقى من أقطاره، والتي دخلت هي الأخرى، تحت الدّائرة المباشرة للاستعمارين الإنجليزي والفرنسي، وهي أقطار بلاد الشّام والعراق، وذلك على اثر فرض الانتداب عليها برعاية عصبة الأمم.

لقد قرأ الإمام عبد الحميد بن باديس موضوع إلغاء الخلافة الإسلامية على يد مصطفى كمال أتاتورك من زاوية خاصة، عرضها في صفحات مقالاته المتعددة سواء في جرائد حرة أو جرائد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فيما بعد، لقد كانت الانطباعات الأولى متطابقة مع وجهات النظر المختلفة في الساحة العربية الإسلامية، وخاصة وجهة نظر الإصلاحيين، التي عمّت العالم الإسلامي، والتي عبرت عن السخط والتنديد بالحدث. لقد نشر انطباعاته بعنوان " الفاجعة الكبرى ، أو جنایات الكماليين على الإسلام والمسلمين ومروقههم عن الدين " مؤرخة في 8 شعبان، ونشرتها جريدة "التجّاح " عدد 52 بتاريخ، 28 مارس 1924، فقال « إن الإسلام لا يقدر الرجال - وإنما يسير الأعمال- فلئن والينا الكماليين بالأمر جناهم فلائهم قاموا يذبون عن حمى الخلافة، وينتشلون أمة إسلامية عظيمة من مخالب الظالمين، وقد سمعناهم يقولون في دستورهم (إنّ دين الدولة الرسمي هو الإسلام)، ولئن تبرأنا منهم اليوم وعاديناهم، فلائهم تبرّأوا من الدين وخلعوا خليفة المسلمين، فكانوا ممن عمل بعمل أهل الجنة حتى لم يبق بينه وبينها إلا ذراع، فعمل بعمل أهل النار فكان من الخاسرين، وإنما الأمور بخواتمها والعاقبة للمتقين.»¹ وقد لخص الإمام جنایات الكماليين على الأمة الإسلامية في التقاط التالية:-

الجنایة الأولى على الخلافة: الرباط الروحي للأمة الإسلامية .

-الجنایة الثانية على الخليفة، رغم موالاته للكماليين، وهو الناطق الرسمي، الذي أعلن الجهاد في الحرب العالمية الأولى كما تبرزه الوثائق.

-الجنایة الثالثة: إهانة عائلة الخليفة و طردها نحو الغرب .

-الجنایة الرابعة على الدين: تعطيل أحكام الإسلام و طرد طلاب العلوم الدينية و غلق المدارس الإسلامية و تشبّعهم بإلحاد أوروبا .

ثم تلى الإمام على مقاله السالف بمقال آخر عنوانه: " على مقالنا السابق في جنایات الكماليين ومروقههم " نشر في جريدة النجاح العدد 153 بتاريخ 4 أبريل 1924م، وفيه قراءة تراثية لمنصب الإمامة أو الخلافة، تدلّ على براعة ابن باديس في توظيف ثقافته الإسلامية، وفهمه العميق للسياسة الشرعية، بل وتفوّقه في رسم قواعد النظام السياسي الإسلامي الأصيل. وانتقد فيه " الخلافة الروحية " أي تنزيل منصب الإمامة على منصب البابوية بالغرب المسيحي الكاثوليكي، ثم قال: «... وبعد فإنّ الإسلام دين الحقائق والعلوم، لا دين التقاليد والرّسوم فلنرفض الأوهام، و إن لأمتنا - ولنقبل الحقائق وإن آلمتنا - ولنقل عن علم وإنصاف أنّ خلافة الكماليين باطلة من أصلها، وأنّ لا خلافة اليوم، هذا وأنّ العالم

الإسلامي، لا يسكت عن مسألة الخلافة، ولا يهمل أمرها، وإن أعظم الرجاء معلق على الأمة العربيّة أمة كنانة الله، الأمة المصريّة العزيزة، مصدر العلم و التّهذيب للعالم الإسلامي، أيام بؤسها، ومصدر الحرية والنّهوض، هذه الأيام أيام عزّها واستقلالها، وقد حمل البرق نبأ تعلق علماء الأزهر الشّريف على عقد مؤتمر إسلامي لهذا الأمر، وأنّه يكون في شهر مارس من السنة القابلة - وإن غدا لناظره قريب - ونحن من المنتظرين والله ولي المؤمنين.¹»

على اثر وفاة مصطفى كمال أتاتورك، باني نهضة تركيا الحديثة، في نوفمبر 1938، كتب الشيخ ابن باديس مقالا مطولا نعى فيه مصطفى كمال، وقد حمل المقال تغيرا جليا في موقف الشيخ من مسألة الغاء الخلافة، حيث صار لا يرى جدوى من مؤسسة الخلافة.²

نفس الرّأي يشاطره فيه أحد رجال الإصلاح في الجزائر، هو الشّيخ ابن العابد الجلاّلي³. فقد كتب مقالا في مجلّة الشّهاب عدد رمضان -نوفمبر 1357هـ /1938م، بمناسبة وفاة مصطفى كمال أتاتورك جاء فيه: "...دعونا أيّها الثّاقمون على مصطفى، نقول كلمة الحقّ في جانبه، فلان نقول كلمة الحق في جانب مصطفى، أجمل وأحفظ للكرامة من أن نقول الحقّ في جانب غيره، دعوا من أراد النهوض ينهض على صوت هذا الداعي، ولا تشوشوا عليه، تأملوا جيدا لعلمكم قد جنيتم عليه وعرقلتم نهوضه، حين تبالغون في إبداء مخاوفكم على دينه وعقيدته من اندفاعه مع مبادئ الخلاص التي وضعها مصطفى وهي مبادئ الإسلام في جملتها لو تأملتموها، ومن ذا الذي سبق الإسلام في تحرير العقول وتقرير الحقوق؟" إلى أن يقول: "فان الخير كل الخير فيما جاء عن طريق الحرية ولا خير ولا دين ولا عقيدة مع النذل والعبودية"⁴.

ويواصل الرد على الناقمين على أتاتورك ولو كان فيهم أمثال شكيب ارسلان أو شيخ الإسلام في تركيا أو شيخ الأزهر في مصر، بقوله: "إن مثل كلمة، لبس القبعة أو بدل الحروف، أو وجدته يشرب

1- النجاح، عدد 153.4 أبريل 1924.

2 - الشّهاب، ج 2، م 13، مايو 1938، ص 61-62. للمزيد انظر الملحق 2.

3- ولد سنة 1890 ببلدة أولاد جلال من عائلة عريقة في العلم والكفاح ضد الظلم تعلم بمسقط رأسه ثم انتقل إلى قسنطينة بعد الحرب العالمية الأولى ولازم الشيخ ابن باديس واتصل بكبار الشخصيات آنذاك أمثال ابن رحال وابن سماية والحفناوي وعاشور ثم الإبراهيمي اشتغل بالتعليم والصحافة انضم إلى حركة الانتصار بعد حوادث 8/مايو 1945 التحق بالثورة التحريرية في بدايتها والقي عليه القبض وبعد الاستقلال عاد إلى التعليم توفي في 2/2/1967.

4- محمد الصالح رمضان : ابن العابد الجلاّلي، الثقافة، عدد 82، 1984، الجزائر، ص 192.

(البيرة) لا يساوي كلمة ، ابعء الأجل ورد الأمل وحطم الأغلال ، ورفع راية الحرية والاستقلال
...فراجعوا أنفسكم أيها السادة ، واخلصوا النصح لامتكم أرشدكم الله وارشد بكم¹.
والواقع أن تلك المواقف على ما بها من صراحة ووضوح ، قد بيدوان للبعض ، تراجعاً في فكر الشيخين
، إلا أنها في الواقع تعبر عن تدمر من محاولات الإصلاح العقيمة من جهة، وعن تشبث بفكرة الحرية
التي طالما حلم بها الإنسان الجزائري، في ظل سلطة الاحتلال الغاشمة .

الفصل الثالث: ث:

تأثير حركة الجامعة الإسلامية في الحركة الوطنية

I- إرْتسام معالم النهضة في الجزائر:

1- ظهور كتلة المحافظين .

2- ترجمة لبعض زعماء الاتجاه.

أ- عبد الحليم بن سماية

ب- محمد بن مصطفى بن الخوجة

3- تأثير الجامعة الإسلامية في تبلور الاتجاه الاصلاحى

4- نشأة الصحافة الوطنية او (الأهليّة).

II- تموقع الجامعة الإسلامية في المغرب العربي:

1- المغرب العربي بؤرة للنشاط وساحة للدعاية

2- الأخوة الجزائرية-التونسية .

III- نظرة على مساهمة بعض دعاة الجامعة الإسلامية في الحركة الوطنية:

1- دور الأمير شكيب ارسـلان.

2- تأثير الشيخ سليمّان البارونى .

IV- الجامعة الإسلامية وبوادر النشاط السياسى في الجزائر:

1- حركة الشبان الجزائريين والجامعة الإسلامية

2- نظرة على نشاط الأمير خالد الهاشمى .

V- نماذج رائدة في الدفاع عن قضايا الإسلام و العروبة:

أ- خوالدية صالح بن عمار

ب- احمد توفيق المدني

1- إرثام معالم النهضة في الجزائر: 1- ظهور كتلة المحافظين:

شكلت حركة الجامعة الإسلامية خلال أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، أحد منابع الأفكار التحررية والإصلاحية، وإن كانت اتخذت أحيانا الطابع القومي أو الوطني أو حتى الاشتراكي، بعد انتصار الثورة البلشفية في روسيا سنة 1917، والتي رفعت شعارات الحرية والثورة على الظلم، والواقع أنّ تناغمها مع التيارات القومية والوطنية الجديدة، كان بفعل تراجع دورها، وضعف حيلة أتباعها، من جهة، ومن جهة أخرى، لأنّ هناك قواسم مشتركة مع تلك الاتجاهات، مع الاحتفاظ بالخصوصية. وتكرس الأمر أكثر بإلغاء الخلافة الإسلامية عام 1924، ولعلّ ما يمكن إدراجه في إطار هذه التوجهات الجديدة في منطقة المغرب العربي، هو نشاط الأميرين عبد المالك بن عبد القادر الجزائري، وابن أخيه الأمير خالد بن الهاشمي، ونستطيع تلمس ذلك من خلال نوعيّة الخطاب السياسي المستخدم آنذاك، فحتى بالنسبة لخطاب انصار الحركة الشيوعية بالمنطقة، يحمل عبارات ذات محتوى تحرري وديني، كعبارة (إخواننا المسلمين) عند مخاطبة الأهالي، رغم ما بين الحركتين من اختلاف، ويلاحظ الأستاذ أبو القاسم سعد الله أنّ الحركة الوطنية في الجزائر ظلّت بعيدة عن الفكر القومي ومتشبّثة أكثر بأفكار الجامعة الإسلامية. و«كانت لا تفكر في حدودها الطبيعية، ولكن في الحدود التي تفصل بين الإسلام والمسيحية فقط».¹ وتفسير ذلك في اعتقادنا هو أنّ التوجهات القومية لم تكن مطروحة بحدّة في الجزائر وفي المغرب العربي عامة، ونظرة الناس هنا إلى الدولة العثمانية والخلافة ظلّت محتفظة ببريقها وقدسيّتها إلى آخر لحظة، كما أنّ الجزائريين وبمختلف اتجاهاتهم، بما في ذلك المتشبّعين بالثقافة الفرنسية، كانوا مؤمنين بأنّ الإسلام هو الهوية الحضارية والسياسية لكل الأهالي، وأنه الماضي والأجداد التاريخية، وهو في قلب المعركة التحررية في الجزائر، في مواجهة الاستعمار الفرنسي، ولعلّ هذا يعود إلى طبيعة هذا الاستعمار نفسه، والذي لم يخف يوما نزعته الصليبية الحاقدة. وهذا فرحات عباس أحد زعماء النخبة الاندماجية وهذا فرحات عباس يكتب مقالا في سنة 1926، عنوانه "الاستعمار، والأحقاد الدينية ضدّ الإسلام" يقول: "الإسلام ظلّ إيماننا الثابت، والعقيدة التي تعطي لوجودنا معنى، أنّه وطننا الروحي، والقانون الإسلامي هو بلدنا الحقيقي".²

1- سعد الله : الحركة الوطنية ، ج2 ، مرجع سابق ، ص 124 .

2- Benjamin Stora et zakia daoud , Ferhat Abbas , une autre Algérie , édition casbah , Alger 1995,p39.

هناك ملاحظتان يمكن استخلاصهما؛ الأولى اختلاف الرؤية بالنسبة لمنتسبي الجامعة الإسلامية وروادها بين مختلف الأقطار العربية والإسلامية، بحسب درجة الوعي الاجتماعي والتضج السياسي، ففي الجزائر كان ديدن المصلحين فيها، منصبًا حول الحفاظ على الكيان الإسلامي، وصون اللسان العربي، أو ما يسمى " بالوطن الروحي " من الزوال والاندثار، نتيجة الممارسات الاستعمارية الصليبية والاندماجية، خلال عقود من الزمن، جعلت الإسلام غريبا في دياره وبين أهله، على حين أنّ شعوبا وهيئات أخرى بما فيها المجاورة للجزائر، فقد كانت اهتمامها متجاوزة مجرد فكرة الحفاظ على الكيان الروحي إلى ترقّيته و البحث عن الكيان السياسي.

أما الثانية فتتمثل في تغيير طبيعة الخطاب السياسي لأصحاب هذا الاتجاه من قطر لآخر، ومن فترة إلى أخرى، وهذا ما يقودنا إلى إعادة التذكير بطبيعة الجامعة الإسلامية في حد ذاتها، كونها عبارة عن تيار عريض وواسع انضوت تحت لوائه مختلف الاتجاهات والحركات القومية والوطنية.

كما أنّ حركة الجامعة الإسلامية، فقدت قوتها وفعاليتها، التي كانت على عهد مؤسسها الأوائل بعد وفاة الشيخ جمال الدين الأفغاني -باعث النهضة الحديثة - وازدادت في التراجع بسقوط السلطان عبد الحميد الثاني في سنة 1908م. والحق أنّ تراجع مؤسسة الخلافة عن دورها الجامع والقيادي، كان له بالغ الأثر في تراجع الجامعة الإسلامية، ذلك أنّ المتأخرين من رواد الجامعة الإسلامية ربطوا بشكل عضوي بينها وبين فكرة الخلافة الإسلامية، ولعل هذا ما كان الرواد الأوائل كالأفغاني وحتى الإمام محمد عبده يجذران منه، إذ أنّ ربطها بمؤسسة الخلافة، جعلها مرهونة بها في حالة النجاح كما في حالة الفشل، بل ذهب محمد عبده أكثر من ذلك لما نهى عن الاشتغال بالسياسة.

ضربت فرنسا طوقا حقيقيا على أفكار الجامعة الإسلامية لمنعها من التسرّب إلى الجزائر، بالتضييق على أدوات ووسائل تسرّبها وانتشارها، كالصحافة والدعاة والهجرة، ومع ذلك فقد وجدت الحركة متنقّسا لها في الجزائر، ولم تنقطع أسباب الوصل وخيوط المودة، وقد كانت لزيارة الشيخ محمد عبده في مطلع القرن العشرين، وانتشار مجلّة المنار للشيخ رشيد رضا، أثرها البالغ في هذا المجال، مثل ما كانت لسياسة الحاكم العام "ش.جونار" Charles jonnart (أكتوبر 1900 - جوان 1901)، ثم (مايو 1903- مايو 1911)، ، أثرها أيضا -إلا أنّ ذلك لا يدعونا إلى التّغاضي عن الإجراءات الاضطهادية التي أصدرها، أو أمر بها كإنشاء المحاكم التعسّفية وتوسيع صلاحيات المسؤولين الإداريين لقمع الأهالي، ومنع الجزائريين من أداء فريضة الحج وغيرها....

من الثار اليانعة لنشاط حركة الجامعة الإسلامية في الجزائر، بزوغ فجر النهضة الإصلاحية وظهور أولى طلائعها، متمثلة في كتلة المحافظين، وقد أشارت الدكتورة زاهية قدورة إلى أنّه ومنذ سنة 1910،

تجمّعت فئة حول العمل الوطني ، عرف أفرادها بدعاة الجامعة الإسلاميّة " وكان هؤلاء يدعون إلى نهج انتشر في أنحاء أخرى من العالم الإسلامي ، وبخاصّة في المشرق ، وكان الهدف منه تجميع قوى المسلمين لمواجهة الاستعمار الغربي .¹ وتضيف أيضا أنّهم : " عندما سمعوا بحركة الجامعة الإسلاميّة في أواخر القرن الماضي ، انجذب بعضهم إلى المذهب الجديد ، وحاول أن يستعمله من أجل أهداف إصلاحية في الجزائر . " ²

ضمّت كتلة المحافظين ، حسب الدكتور أبو القاسم سعد الله «كلّ الطبقات الجزائريّة التي قبلت المحافظة ، وكانت هذه الكتلة تتكوّن من المثقّفين التقليديّين أو العلماء ، ومن المحاربين القدماء ، ومن زعماء الدّين ، وبعض الإقطاعيّين والمرابطين وقد كان بعض هؤلاء معلّمين ، وممثّلين نيابيّين ، معيّنين تعيينا ، ومصالحين يؤمنون بالجامعة الإسلاميّة ... » ³ .

وقد كان لهجرة الجزائريّين نحو المشرق ، والرغبة في تلقّي العلوم المختلفة ، عاملا مهمّا أدّى إلى احتكاكهم بأفكار الجامعة الإسلاميّة ، ولا يختلف معظم الدارسون للحركة الوطنيّة بشقّها الإصلاحي السلفي في الإشادة والتّنبؤ بدور حركة الجامعة الإسلاميّة ، و الحركة الوهابية في قيامها .

ضمّ تيار المحافظين أو ما يسميه الدكتور أبو القاسم سعد الله "الحزب الإصلاحي" ، شخصيّات بارزة ومؤثّرة ، منها الشّيخ عبد القادر المجاوي و عبد الحليم بن سماية و محمد بن مصطفى بن الخوجة المدعو (المضربة) والمولود ابن الموهوب و حمدان الونيسي و محمد بن رحّال و عمر بن قدّور . وغيرهم .

غير أنّ هذه الفئة من المصلحين ظلّ تأثيرها ضئيلا ، خاصّة في الأوساط الشعبيّة التي كانت متحفّظة تجاهها ، ويشير الدكتور تركي راجح إلى أنّ «الحركة الإصلاحيّة قبل ابن باديس ، لم يكتب لها النّجاح وظلّت محدودة الانتشار ، بسبب أنّ المصلحين كانوا موظّفين لدى الإدارة الفرنسيّة ، كالمجاوي وابن الموهوب وابن سماية وابن الخوجة .»⁴ وهذا في الواقع جعل أولئك العلماء المصلحين ينتهجون أسلوب التّقيّة في مخاطبة قومهم ، وهم معذورون في ذلك ، إذ كيف يمكن الجهر بالأفكار الإصلاحيّة والأمنيّة التحرّرية في ظلّ مراقبة شديدة ، وخطرسة إدارة الاحتلال ، وتشديد الخناق على كل صوت حر أو تعبير صادق أو شعور وطني مخلص .

1- د. زاهية قدورة : تاريخ العرب الحديث ، دار النهضة العربيّة ، بيروت-لبنان (د.ت) ، ص 512 .

2 - نفس المرجع ، ص 409 .

3- سعد الله: الحركة الوطنيّة الجزائريّة ، ج2 ، مرجع سابق ، ص 152 .

4- د. راجح تركي : ابن باديس ونشأة الحركة الإصلاحيّة في الجزائر ، الأصالة ، العدد 24 ، مارس ، ابريل 1975 ، ص 79 .

لقد كانت الإدارة الاستعمارية، تلجأ إلى أساليب لا تخطر على بال، في عقابها للوطنيين، أو كل من تسوّل له نفسه التعرّض لفرنسا وسياستها، وتعتبر محنة المصلحان عمر بن قدير وعمر راسم، خلال الحرب العالمية الأولى كما سنرى، دليل على ذلك، لكن دعنا نستدرك فنقول أنّه رغم الرّقابة والضّغط فقد وصل صوت الإصلاحيين إلى آذان وقلوب الجزائريين، وكانت تمثل على الأقل بداية اليقظة والصّحوة، أضفت لها جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين فيما بعد، بصماتها البارزة، وقد تقطن العلماء إلى خطورة الوظيفة لدى إدارة الاحتلال، وما ينجسّ عنها من مآسي فلم تقبل بها، وظلّت تفتت من مصادرها الخاصّة .

2- ترجمة لبعض زعماء الاتجاه :

1- عبد الحليم بن سماية:

ولد الشّيخ عبد الحليم بن سماية سنة 1866 م، تعتبر عائلته من أشهر العائلات العاصميّة، ينحدر أصلها من بلدة أزميز التركية، وتنسب إلى حسن خوجة قاطع السكة بدار الإمارة على عهد الأتراك، اعتنى والده بتربيته دينيّة وخلقية سليمة، فعهد به إلى كتابت القرآن ومجالس العلم، ينهل منها شتى المعارف والعلوم الدينيّة واللّغوية (كالعربية والفقه والتوحيد ..) وعلوم أخرى (كالفلك والمنطق والحساب...) التي كانت سائدة في عصره، ثم انصرف إلى دراسة الفلسفة فشدّ الرّحال إلى تونس ليتلقّى العلم على يد الشّيخ محمد بن عيسى، وكان صديقا لأبيه، كما أخذ عن الشّيخ محمد المكيّ بن عزّوز، خلال زيارته المتكررة من تونس إلى الجزائر.1 تولى خطة التدريس بالمدرسة الرّسمية في 4 من ديسمبر سنة 1896م. ويعتبر من أوائل من درس رسالة التوحيد للإمام محمد عبده. 2.

يقول الشّيخ عبد الرّحمان الجيلالي في وصف شيخه «وإذا ذكر الشّيخ عبد الحليم بن سماية لدى من رآه أو عرفه أو عاصره أو سمع به، فلسرعان ما ينهر لسماع اسمه، وينصرف ذهنه في الحال إلى ما يتصوّره أو يمثّله في ذهنه ومخيّلته، من المثل العليا في التّبوغ والفضل والعلم الصحيح، والتّقوى والشّجاعة والوطنية، والكمال التّقساني وطهارة الرّوح ودماثة الخلق والتّبل والنّزاهة والإيباء»3.

وقد عرف الشّيخ بن سماية بالثبات على المواقف، وإخلاصه لمبادئه، التي يؤمن بها ولم يثنه عن ذلك، غطرسة الإدارة الاستعمارية وبطشها، ومن المواقف التي تسجّل للشّيخ عبد الحليم، موقفه من

1- عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ج4، ط2، 1982

ص406.

2- نفس المرجع والصفحة.

3- نفسه، ص 400-401.

مسألة التجنيد الإجباري للمسلمين الجزائريين، في صفوف الجيش الفرنسي، على أعتاب الحرب العالمية الأولى، فقد تكلم في جمع غفير وأمام كبار الضباط الفرنسيين حول موضوع التجنيد في يوم 25 جويلية 1911. بين الشيخ في كلمته أن الجزائريين لا يكونون مسلمين بمعنى الكلمة، إن هم ارتضوا الخدمة العسكرية للدولة الفرنسية. وقد ردّ على بعض دعاة الإدماج المتحمسين لموضوع التجنيد، الآملين في الإصلاحات والمساواة بقوله: «ودعوى أن ذلك يدفع بفرنسا إلى منح الحرية السياسية للمسلمين، فهي دعوى باطلّة، واعلموا أنّه إذا منح لهم ذلك مقابل تجنيدهم، تكون هنالك الضربة القاضية على القومية الإسلامية والجنسية معا، إذ يقع بذلك اندماجهم في الأمة الفرنسية نهائيا»¹.

يتبين من خلال التحليل الذي قدمه الشيخ بن سماية، مدى تشبّعه بأفكار الجامعة الإسلامية، الرامية إلى الإبقاء على هوية الأمة، من خلال رفض الأفكار الاندماجية، التي من شأنها القضاء على الكيان الروحي والأدبي للأمة الجزائرية المسلمة، وإدراكه الواسع لمرامي تلك السياسة، وهذا في الحقيقة يعود إلى ثقافته الواسعة، وإمامه الكبير بنحبايا الأمور.

لقد كان بن سماية من العلماء العاملين، حسب شهادة الشيخ عبد الحميد بن باديس، الذي يقول عنه أنّه «عالم عامل غيور على دينه ووطنه مخلص لهما»².

أما الأستاذ محمد علي دبوز فيقول «كان بن سماية واسع الأفق، يقرأ الجرائد العربية الكبرى والفرنسية، الواردة من كل الأقطار العربية، ويعرف أحداث العالم، ويهتم كل الاهتمام بالعالم الإسلامي كله، ويتمنى له النهوض والتحرّر من الجهل ورقة الدين والاستعمار، كان واسع الوطنية، لا يدين بالقوميات الضيقة يرى العالم الإسلامي كله وطنه والمسلمون كلهم قومه، طريقه في الإصلاح هو طريق الشيخ محمد عبده إصلاح النفوس بالدين الصحيح، والقضاء على البدع وتحسين طرق التعليم بالعربية، وإنشاء شباب مسلم عربي ممتلئ بدينه، يفهم القرآن ويجعله دستوراً، وهو أول من درّس رسالة التوحيد، وكان يتراسل مع الشيخ ومع غيره كرشيد رضا وغيرهما من العلماء، وكان بن سماية رئيس لجنة العلماء الذين استقبلوا الشيخ عبده أثناء زيارته في 1903³. وظلّ ملازماً له، يأخذ من بحر علومه وذخائر حكمته، وقد مدحه بقصيدة شهيرة، بعث بها إلى مجلة "المنار" المصرية منها هذه الأبيات:

1- الجبالي: تاريخ الجزائر العام، ج4، نفس المرجع، ص 401.

2- الشهاب، ج9، ص2.

3- دبوز: نهضة الجزائر وثورتها المباركة، ج1، مرجع سابق، ص 124.

فأنت لنا شمس تنير على المدى ✖ أتي نورها من غير أن نتلّعا
أدير بذكراك الذي منك قد مضى ✖ فاشرب كأسا بالصّفاء مشعشا
يذكر فيك المجد والعلم والتّقى ✖ فانظر من عليك عرشا مرفّعا
وتلوي إلى تلك المجالس فكري ✖ فترك قلبي بالخيال ممتّعا
محافل كان العلم فيها مجالسي ✖ اسامير بدر بالجلال تقنّعا
فاسمع فضلا من حكيم وحكمة ✖ إذا ما بدت خرت ذوي الزّور ركعا
فما بال أقوام هدى الله عقلهم ✖ يمارون فيه والسحاب تقشّعا¹

وقد أتى عليه الشّيخ رشيد رضا في مجلّة "المنار"، ووصفه بالرجل الفاضل والمصلح، كما بعث الإمام محمد عبده برسالة إلى الشّيخ بن سماية وهو في مدينة "بالرم" الايطالية جاء فيها:

« حضرة الأستاذ الفاضل الشّيخ عبد الحلیم بن سماية... لا يزال يؤنّسني مثال من علمك وفضلك، ويعجبني رفيق رقيق من كمالك ونبلك، وما كان ذلك ليفارقني بعد أن صار بضعة منّي، ولو كشفت لك من نفسك ما كشف لي منها، لعلمت مقدار ما أتاك الله من نعمة العقل والأدب، ولعرفت أنّك ستكون إمام قومك تهديهم إن شاء الله سبل الرشاد، وتبصّرهم بما يوفّر عليهم الحظّين، حظّ المعاش وحظّ المعاد، وهذا هو أمني الذي أسأل الله تحقيقه، فخذ من الوسائل ما يبلغك بفضل الله غاية ما يرمي إليه استعدادك...»²

وأثنى عليه أيضا الشّيخ محمد الخضر حسين في مجلّة "السّعادة العظمى"، التي كان يصدرها في تونس، وكان قد اجتمع بالشّيخ بن سماية في الجزائر عام 1904، حيث قال: «فالتقينا بالشّيخ عبد الحلیم بن سماية، فغمرنا بنفحات خلقه الناضر، واختلب البابنا بفصاحة لسانه الساحر»³.
والظاهر أنّ اشتغاله الواسع بميدان التدريس، أعاقه عن التّأليف والكتابة، فلم يؤثّر عنه سوى بعض الرّسائل والمقالات، وقد نشرت له جريدة "الإقدام"، مقالات عدّة في السّياسة والاجتماع والأخلاق.
كان يتحمّس لثورات المسلمين على الاستعمار، وعلّق آمالا عريضة على ثورة عبد الكريم الخطابي في المغرب، ويقال أنّه مرض بعقله، بعد فشل ثورة الرّيف بالمغرب الأقصى⁴. فصار لا يبالي بهندامه، ولا

1- الجليلي: تاريخ الجزائر العام، ج4، مرجع سابق، ص 407.

2- محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام، ج2 ط/القاهرة 1344هـ، ص 617.

3- الجليلي: نفس المرجع، ص 408.

4- دبور: نهضة الجزائر وثورتها المباركة، ج1، مرجع سابق، ص 124.

يلتفت إلى مظهره وسلوكه ، وكان يمتطي الحصان، ويمتشق السيْف، ويكثر من التَّجوال في ضواحي المتَّيجة ، وكان النَّاس يعلمون قدره، فيجلُّوه رغم ما ألمَّ به من علة .

توفي في 5 رمضان 1351هـ/الموافق ل1.1933/1/2 أما الأستاذ دَبَّوز فيؤرِّخ لوفاته بسنة 1931، ويشير إلى أنَّ المرض الذي أصابه كان مرضاً وراثياً.²

ب- محمد بن مصطفى بن الخوجة (الكمال):

يعتبر الشَّيخ محمد بن مصطفى بن الخوجة، من كبار علماء عصره ، ولد بالجزائر العاصمة في 1282هـ/الموافق لسنة 1865م . وتلقَّى علومه الأولى على مشايخها وعلمائها، أمثال الشَّيخ قدور باصوم والشَّيخ محمد القزادري وعلي بن سماية وعلي بن الحاج موسى، ومحمد السَّعيد الزَّواوي والشَّيخ علي بن الحفاف وغيرهم.³

لقد أخبر عنه الزَّعيم الوطني و المصلح المصري، محمد فريد بك في كتابه "من مصر إلى مصر" ،على اثر زيارته للجزائر بقوله: «ومَن تعرفت بهم من أفاضل القوم بواسطة سيدي علي بن الحدَّاد ، الكمال محمد بن مصطفى، المحرِّر بإدارة الجريدة المسماة (المبشر) ،وهو شابٌّ لا يبلغ الخامسة والثلاثين ، عالم بعلوم العربيَّة، لدرجة لا يجاريه فيها غيره من علماء الجزائر .»⁴

لما زار الإمام محمد عبده الجزائر صيف 1903 ،كان الشَّيخ مصطفى بن الخوجة ،من اخصَّ العلماء الذين رافقوه ولازموه طيلة إقامته ، وقد ذكر ذلك الشَّيخ محمد رشيد رضا، في مجلَّة المنار فقال :«وقد نال - يقصد الشَّيخ عبده- مراده، فاجتمع بخيار العلماء والعقلاء، الذين يقدرُّون الإصلاح قدره، ومن خيارهم في الجزائر، الشَّيخ محمد بن الخوجة صاحب المصنَّفات..»⁵

وكان الشَّيخ محمد بن الخوجة، أكثر الأساتذة حرصا على مطالعة كلِّ ما يرد من المشرق، من الكتب والمجلَّات والجرائد ،وخاصَّة كتب الشَّيخ محمد عبده ، وكان له شغف كبير بقراءة "العروة الوثقى" و"المنار" .قال عنه عمر راسم :«الشَّيخ محمد بن مصطفى شاعر الجزائر في وقته وأفصح علماءها ، وأعلمهم بتراجم علماء الجزائر ، كثير الاطلاع ، ولوع بالكتب العصريَّة ، شغوف بمحبَّة الشَّيخ عبده، وهو الذي ادخل مذهبه إلى الجزائر ، وعرف الناس به وبجمال الدين الأفغاني وأصحابها ، يعرف الشَّرق

1- الجبلاي : تاريخ الجزائر العام،ج4، المرجع السابق ،ص 420.

2- دبوز: نهضة الجزائر وثورتها المباركة،ج1، نفس المرجع ، ص 125 .

3 - الجبلاي : نفس المرجع ، ص 452.

4- محمد فريد بك : من مصر إلى مصر ، القاهرة، 1319هـ ، ص 70.

5-المنار،ج1 ، السنة1903، ص 872.

كأنه عاشره مائة سنة ، حلو الكلام ، كان إذا خطب يستدلّ بالآيات والأحاديث ، كان القرآن وكتب الآثار مرآة أمام عينيه.1»

ومّا يدلّ على تعلق الشيخ بمبدأ الإصلاح الديني على منهج الأستاذ محمد عبده، هو رسالته التي وجهها إليه يثني عليه، بعد نشر تفسير سورة "العصر" في المنار، وقد قرظها الشيخ ابن الخوجة في وقت قياسي، ونشر حينها في المنار.2

واثر وفاة الشيخ محمد عبده-رحمه الله-، رثاه الشيخ محمد بن مصطفى بن الخوجة، بقصيدة بليغة ننتقي منها هذه الأبيات :

وأسلمنا قهرا لحكم المقادير	✖	مصاب جسيم عمّ كلّ العشائر
فجعنا برزء ماله من مناظر	✖	رمينا بخطب لا يقاس بغيره
وأعيننا مثل العيون الهوامر	✖	وأكبادنا ذابت أسي وكأبوة
ومن كان للإسلام نور البصائر	✖	على موت مفتي المسلمين وفخرهم
وأبناؤها من كلّ باد وحاضر	✖	بكت مصر والدنيا جميعا لفقده
واجروا دموعا كالغيث المواطر	✖	وأبدى جميع الناس حزنا وحسرة
ثناء جميلا طيبا كالغنابر3	✖	واثوا عليه بالذي هو أهله

يقول الأستاذ عمار طالبي: «والحقيقة أنّ هذه القصيدة أكبر برهان ، على أن محمد عبده له مدرسة في الجزائر، وعلى رأسها محمد بن مصطفى بن الخوجة، وهذا عنصر من أهم العناصر في النهضة الإسلامية الحديثة في الجزائر.4»

وقد خلف الشيخ محمد بن مصطفى بن الخوجة تآليف كثيرة أهمّها:

1- إقامة البراهين العظام على نفي التعصّب الديني في الإسلام. طبع في الجزائر سنة 1902.
والحقّ أن الشيخ رشيد رضا له ماخذ على الكتاب، بعد أن قرأه وقرظه، فيقول: «فينبغي لهذا الشيخ وأمثاله، إذا كلّفوا بالكتابة في مثل هذا المقام، أن يقتصدوا ويقفوا عند حدّ معلوم.5»

1- دبوز ، نهضة الجزائر وثورتها المباركة، ج1، نفس المرجع ، ص 131.

2- انظر التقرير بمجلة المنار .

3- المنار .

4- طالبي، ابن باديس ، حياته وآثاره ، ج1، مرجع سابق ، ص 39.

5- الجبالي : تاريخ الجزائر العام ، ج4، نفس المرجع ، ص 450-451.

2-الاكتراث في حقوق الإناث، طبع بالجزائر 1895م.

3-اللّباب في أحكام الزّينة واللّباس والاحتجاب .ط.1907

4-نبذة وجيزة في معنى الدّين والفقّه.ط..1902

5-تنوير الأذهان في الحث على التحرّز وحفظ الأبدان .ط.الجزائر. 1896

6-عقود الجواهر في حلول الوفد المغربي بالجزائر .ط.1902.

كما حقّق عددا من الكتب منها ، الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، للشّيخ عبد الرّحمان الثّعالي ، وقد طبع في أربعة أجزاء سنة 1905-1909.

كما كتب في صحيفة "المبشّر" من (1886-1901)، ودرّس في مسجد سفير من سنة 1895. واشتغل وكيلا لمقام سيدي عبد الرّحمان الثّعالي في 1909. توفيّ سنة 1917 بالجزائر العاصمة.

3-تأثير الجامعة الإسلامية في تبلور الاتجاه الإصلاحية :

يقول الشّيخ البشير الإبراهيمي ، تعليقا على تباشير النّهضة في الجزائر : " إنّ أوّل صيحة ارتفعت في العالم الإسلامي بلزوم الإصلاح ، هي صيحة إمام المصلحين الشّيخ محمد عبده ، " وانه جاهر بدعوة المسلمين في المشارق والمغرب ، إلى الرّجوع للدّين الصّحيح ، والتّماس الهداية من القرآن والسّنة ، وانّ لا فلاح لهم في دنياهم وأخراهم ، إلّا بالعودة إلى تلك المنابع الصّافية " ، ويقول " إنّ تلك الصّيحة كانت صرخة في آذان المتربّصين بالإسلام ، ولآذان المبطلين من تجار الولاية والكرامات ، وللعلماء الجامدين أيضا ، لذلك كذبوه وعارضوه وقاوموا حركته ، " ويضيف : " وحمل لواء الإصلاح بعده تلميذه الأكبر ، ووارث علومه السيد محمد رشيد رضا ، وقد كان ترجمان أفكاره والمناخ والمدافع عنه ، فأكمل تفسيره الذي كان بداهه ، وكتب حياة الإمام ، وكمل مسيرة مجلة المنار " . 1 .

ويلخّص الإبراهيمي أيضا عوامل نشوء الحركة الإصلاحية في النّقاط الآتية :

1-زيارة الشّيخ محمد عبده وما تركته من اثر.

2-قراءة مجلة المنار.

ويضيف عوامل أخرى تتعلق بالحركة الإصلاحية الجديدة هي :

دروس الشّيخ ابن باديس والتطور الفكري بعد الحرب العالمية الأولى ، وعودة فئة من أبناء الجزائر في

بلاد الحجاز. 2

1- محمد البشير الإبراهيمي: آثار محمد البشير الإبراهيمي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ج1، 1978 ، ص 113 .

2- نفسه، ص 114 .

لقد كانت المراكز الدينيّة والعلميّة في العالم الإسلامي (كالبقاع المقدّسة بمكّة والمدينة المنورة والحجاز عامة وتونس والشام ومصر واسطنبول...) ، منارات هداية بالنسبة للعديد من الجزائريين، سواء الفارين من بطش الاستعمار وقوانينه التعسفية، كقانون التجنيد الإجباري عشية اندلاع الحرب العالميّة الأولى، أو أولئك الراغبين في أن يكرعوا من مناهل العلوم المختلفة الدينيّة والأدبيّة ومثّل هؤلاء المهاجرون دعائم الحركة الإصلاحية في الجزائر وأهمهم الشيخ عبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي والطيب العقيبي .

تربّى الشيخ الطيب العقيبي في بيئة وهّابية صرفة، خالية من البدعة والطّرقية، فأخذ من مبادئها وأفكارها، واتّضح ذلك في نشاطه الإصلاحي فيما بعد، والذي امتاز بالتشدد في الدين، حتى لقب بالوهّابي و كان اشدّ ما يكون في أمور العقيدة، محاربا للشرك ومظاهره، غير مبال بالأخطار. و في شعره الديني الغزير، ما يوحي بذلك، فيقول في إحدى قصائده :

لم اطف قط بقبر ، لا * ولا ارتجى ما كان من نوع الجماد
لست أكسوا بحجير جدثا * نخرت أعظمه من عهد عاد

وكان يعتبر الطّرقية من أكبر عوامل فساد العقيدة الإسلامية، كما كان يرى أن لا صلاح للمجتمع إلا بصلاح عقيدته¹. كما كان على علاقة متميزة برجال الإصلاح، و دعاة الجامعة الإسلامية و منهم الأمير شكيب ارسلان . كما كانت له مراسلات مع الشيخ المكيّ بن عزوز.* وكانت المراسلات بين الرجلين تتناول مختلف القضايا التي تهم الوطن الأسير، وقضايا العالم الإسلامي ومسائل النهضة، وأشار العقيبي إلى تلك العلاقة بقوله: «وكان ممن يعز علي كثيرا لما بيني وبينه من المؤانسة وعظيم الوداد.»²

4- نشأة الصحافة الوطنيّة أو (الأهلية) :

تطرقنا سابقا إلى تأثير الصحافة العربيّة والإسلامية على النهضة والإصلاح في الجزائر، وكذا في نشر الدعوة إلى الجامعة الإسلامية، خاصة من خلال الإشارة إلى التأثير الكبير الذي خلفته "العروة الوثقى"

1- مريوش : الطيب العقيبي... ، مرجع سابق، ص 49.

*محمد المكي بن مصطفى بن عزوز (1854-1916) من مواليد نفظه بتونس واصله من طولقة (نواحي بسكرة) بالجزائر، تعلم في زاوية أبيه ، ومنها انتقل إلى جامع الزيتونة حيث تلقى في تحصيل مختلف العلوم الدينيّة .وفي 1881 ولي الإفتاء ثم القضاء بنفظه .زار الجزائر مرارا لكنه كان في كل مرة يتلقى مضايقات عديدة من مصالح المخابرات الفرنسية لتاريخ عائلته النضالي حيث كانت تساند مقاومة الأمير عبد القادر ضد الفرنسيين . ونتيجة للمضايقات اتجه إلى المشرق واستقر بالأستانة وعينه السلطان عبد الحميد الثاني مدرسا في مدرسة دار الفنون ومدرسة الواعظين .ترك آثارا هامة أهمها : رسالة في التوحيد تسمى قواعد الإسلام .

2 - الزاهري: شعراء الجزائر ، ج 1 ، ط1، المطبعة التونسية، 1962، ص 40.

و"المنار"، وعدد من الجرائد والمجلات الشرقية، والتي حظيت باهتمام شريحة واسعة من القراء والمهتمين، لأنها تكلمت بلسانهم، وعبرت عن همومهم وآمالهم.

ومن غير شك فقد لعبت تلك الصحافة دورا بارزا في نشأة الصحافة الوطنية أو (الأهلية) بالأخص في فترة ما بعد عام 1870¹. وقد كان الجزائريون يتوقون إلى أن تكون لهم صحافتهم الخاصة بهم، غير أنّ ذلك لم يكن متيسرا، بالنظر إلى القوانين التي وضعها الفرنسيون لتحكم وتنظم هذه المهنة وأهمها أن يكون صاحب الامتياز يحمل جنسية فرنسية من جهة، والرقابة الشديدة على الرأي والفكر الوطني، من قبل مصالح الشؤون الأهلية من جهة أخرى. لذا فقد كانت هذه الوسيلة الإعلامية الهامة، محتكرة من طرف المعمرين، الذين كانوا يتمتعون بكل الضمانات والتسهيلات الإدارية والمادية.

ومن اجل ملء الفراغ وشراء الدم، أنشأت إدارة الاحتلال صحفا موجهة للأهالي بالأساس، وباللغتين الفرنسية والعربية، منها وأهمها "الأخبار" والمبشر" وقد اشتغل عدد من المثقفين الجزائريين في إدارة تحريرها في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين².

لقد كان الهدف منها هو اطلاع الجزائريين على مختلف الأخبار، من وجهة نظر استعمارية بحثة، الغاية منها مواجهة تأثير الصحافة العربية المتسرّبة من المشرق. ثم وسّعت الإدارة الفرنسية من دائرة الاهتمام بالصحافة عشية اندلاع الحرب العالمية الأولى، فأنشأت صحفا جديدة أهمها "فرنسا الإسلامية"، وواضح من عنوان هذه الأخيرة أن التنافس على استمالة المسلمين في الحرب، كان على أشده بين الأطراف المتصارعة، كما ظهرت جريدة "أخبار الحرب" وهي وسيلة دعائية أيضا.

افتتح القرن العشرين في الجزائر، ببروز بعض ملامح الانفتاح، وتخفيف القبضة على الحركة الثقافية، ومنها رفع القيود على الصحافة، التي صارت وسيلة مهمة للتعبير عن أفكار وتطلعات مختلف التيارات والاتجاهات.

ليست الغاية من هذا المبحث التفصيل في نشأة الصحافة الوطنية،. ولكن غرضنا تسليط الضوء على ما تعلق بموضوع الجامعة الإسلامية، فخلال عقد من الزمن تمكّن الجزائريين من خلق صحافتهم الخاصة، تتحدث بلغتهم، وتواكب اهتماماتهم، وتروي أشجانهم، وأبدى الجزائريون تميّزا وإبداعا في هذا المجال، رغم حداثة التجربة، وقلة الإمكانيات، وضعف الوسائل.

1 - Ihaddaden Zahir : Histoire de la presse indigène en Algérie , des origines jusqu'en 1930, ENAL ,Alger, 1983, p53.

2- أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية ، ج2 ، مرجع سابق، ص 139-140 .

وقد نوه بها مؤرخون وكتاب كثيرون ، وأدّت أحيانا إلى مضايقات كبيرة طالت بالأخص ، تلك الجرائد التي كانت محسوبة على نزعة الجامعة الإسلاميّة ، وحمود الاتحاد والأخوة ، ويقدر ما كانت لها اهتمامات ثقافية فقد كانت تعبر عن أشجان الأمة الجزائرية، وتخوض في بعض الشؤون السياسية .

مثل الصحفي وال كاتب المصلح عمر بن قدور، احد أهم رواد الصحافة الجزائرية في مطلع القرن العشرين، نفس أئبة، وقلم لا يكلّ ، ونضال عنيد من اجل الحق والكلمة الصادقة، حتّى انه أطلق على جريدته اسم "الفاروق" نسبة إلى الخليفة العادل عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) .

ولد عمر بن قدور بالعاصمة حوالي عام 1886 م ،تعلم في الكتاب القرآني في سن مبكرة ،ويبدو انه دخل المدرسة الشّرعية الفرنسيّة بعد ذلك، في أوائل القرن العشرين. (بعد أن أصبح التّعليم فيها مزدوج اللّغة) ،وهي مدرسة كانت تخرّج القضاة والأئمّة والمعلّمون والصحفيّون بالعربيّة، وصارت تدعى بعد ذلك بالمدرسة الثّعالبية ، كما يبدو انه تتلمذ على الشّيخ عبد القادر المجاوي و عبد الحليم بن سماية .

توجّه إلى الرّيتونة ،وزار مصر ، وكتب في جريدة اللّواء وعمره 20 سنة فقط، كما كتب مبكّرا في الحاضرة التونسية والحضارة العثمانيّة، تدلّ كتاباته ومقالاته الصّحفية عن نضج مبكّر، وصار متميّزا بموهبة استثنائيّة، ولم يخف ميوله اتجاها الجامعة الإسلاميّة ، حاول ابن قدور في مقالاته ، تشخيص حالة المسلمين المتدهورة، مبرزا أسباب ذلك التردّي ، ومقترحا في الوقت ذاته الحلول الممكنة لمعالجتها، ومما قاله في هذا الشأن: " إنّ كلّ مسلم في هذا الوقت ليس بمسلم حقيقة، بل هو تركي أو عربي أو بربري بحسب العناصر، أو مغربي أو جزائري أو تونسي أو سوري أو مصري بحسب الأوطان، وذلك التّنافر أحدثه انحلال الرّابطة الإسلاميّة، التي كانت تربط كلّ مسلم بأخيه، وان كان احدهما بأقصى الشّرق والأخر بأقصى الغرب ،وتلك أمة الإسلام ،التي مازالت تسمّى بالأئمّة الحنيفيّة وواسطة عقد الأمم، أصبحت تابعة بمركزها الحالي، وراضية بأن تنسحب عنه إلى المراكز الأخرى، التي تبصرها من تحتها في الدّرك الأسفل." 1 ثم يسترسل في كشف العلل فيقول " إنّ هذا الدّاء هو عبارة عن نسيان النّاس، لأهميّة نفوسهم من شدّة ما أحاط بهم من هول الجهل، وتملّك الأجنبي . " 2

وبذلك فإنّ تحليل أسباب التّخلف لدى بن قدور تنطلق من نفس الأسباب التي انطلقت منها الحركة الإصلاحية السلفية أي اعتماد عامل الجهل أولا، ثم الوجود الأجنبي بعد ذلك ، وبين أنّ العامل الأوّل استغلّته الطّرقية في تخدير الأمة ، وإبعادها عن فهم دينها، أو أداء دورها الصّحيح في الحياة.

1- عمر بن قدور ، دان النهوض ولم يدن ، الفاروق عدد 15 ، (6 جوان 1913) .

2- عمر بن قدور، معضلات اليوم والغد، الفاروق ، عدد 5 ، (28 مارس 1913) .

أما بالنسبة للوجود الأجنبي (الأوربي)، فقد أدّى إلى "إيجاد طائفة من الشّباب المتفرّج المؤمن بالحضارة الغربيّة، أغشي الاستعمار أبصارهم ببريق المدنيّة الزائف، فأضلّهم عن طريق الدّين وفصلهم عن القوميّة الإسلاميّة.1

ظهر بن قدور في وقت "اشتدّت فيه المحن على الأمة الإسلاميّة فأضجته أحداثها".2 وقد دعا إلى الوطنيّة الخالصة باعتبارها "القوة الفعّالة في ترقية الأمم ، و بها الأمم تبقى خالدة ولن تبيد أبدا" كما دعا إلى الوحدة الإسلاميّة، لأنّها طريق الخلاص ، ووسيلة ذلك في نظره هي التّعارف وتأسيس الجمعيات والأحزاب، كما دعا في سنة 1914، إلى تأسيس "جمعية التّعارف الإسلامي" ، بين مفكري المسلمين في المغرب العربي، وقد نشر الدّعوة في جريدة "الفاروق" محاولا تأسيس نواة للتّعارف بين أبناءها. وراح يسألهم " هل في الإمكان تأليف جماعة من مفكري مسلمي الجزائر وتونس والمغرب الأقصى تدعى (جماعة التّعارف الإسلامي) ؟"، لقد شعرنا بإحساس شريف يسري بين المفكرين في هذه الأمة الإسلاميّة، في غضون ما نفتته صدورهم، ولذلك رأينا أن نهذّب هذا الإحساس ونزيده طموحا ، ينصبّ هذا المشروع العظيم أمام أعين إخواننا المفكرين ليجعلوه قبلة آمالهم ، فليبدلوا كلّ نفيس، لإعلاء وتميّة التّعارف بينهم ، وإنّا لنتنظر جواب كلّ فرد منهم على السّؤال المرسوم أعلاه، ليتسّى لنا أن نسجله في دفتر التّعارف ، وحصركافة الأنصار في مشاهدة الائتلاف والاتحاد ، حيث يسهل العمل على الأثر، والله ولي التوفيق سبحانه. "3 وقد يظنّ البعض أنّ بن قدور كان يدعو إلى تضامن إقليمي، عندما جعل فكرة "جامعة التّعارف" مفتوحة على أبناء المغرب العربي، لكن ذلك مردّه إلى عوامل أخرى، منها أنّ "الفاروق" وهي وسيلته الإعلامية لم تكن رائجة في المشرق العربي أو باقي الأقاليم الإسلاميّة، وربّما كان يريد أنّ يخطو بالمبادرة خطوة في المغرب العربي، متى استجيب لها عمّمها على الأقطار الإسلاميّة الأخرى، ثم إنّ المشرق في تلك المرحلة كانت تتجاوزه تيارات وأفكار متناقضة، قد لا تسهم في نجاح الفكرة، في حين يمتاز المغرب العربي بالانسجام والتآلف، الأمر الذي يسمح حسب ربّما في نجاح المشروع .

ولم يظهر الحديث عن الجامعة الإسلاميّة على صفحات الجرائد، إلّا على يد عمر بن قدور صاحب الفاروق، على الرغم من القيود الهائلة التي فرضتها فرنسا على العمل الصحفي، خاصة عندما يتعلق بموضوع الجامعة الإسلاميّة، وقد بين مفهوم القوميّة الإسلاميّة بقوله : «إن الصورة الأصلية

1 - الفاروق ، عدد 4 ، (4 افريل 1913) .

2- سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج5، مرجع سابق ، ص 279 .

3 - الفاروق، عدد 66 ، (22 جوان 1914) .

للقومية الإسلامية العامّة، صورة يدركها المسلم بدهاءة من نفس نظام الإسلام العام، وفي إمكان الرجل التّقي أن يطّلع عليها من خواطر نفسه وهو اجس ضميره ، وتلك الصّورة تنحصر في قضيتين أو ثلاث ، الأولى الإخلاص لفالق الحبّ والنّوى في السّر والعلانية ، والثانية الاستقامة نحو هذا المجتمع الإنساني ، ولنا أن نزيد الثالثة وهي اعتبار أنّ المسلمين إخوة قبل كل شيء¹. ونستشف من القول مبدأ إنساني في غاية النّبل، أبرزه الكاتب في النّقطة الثانية، والمتعلّقة بالجانب الإنساني والشمولي من تصوّره لمفهوم الجامعة الإسلاميّة، وهذا يناقض تماما ما ادّعه ويدّعيه الغربيّون، الذين لا يرون في الجامعة الإسلاميّة إلا شرّ مستطير، وخطر داهم، وإنّ غاية المسلمين الأبدية، هي إبادتهم والعمل على وتقويض دعائم ملكهم وحضارتهم .

كما بيّن ابن قدور أهمية القوميّة أو الجامعة الإسلاميّة بقوله « وتلك الرّابطة ، هي قوّة روحيّة، إذا تمكّنت من ضمير المرء، تجعله يحنّ إلى أخيه حنوا، لا يرى به عند أخيه عيبا ينكره عليه، أو شذوذا يخذله بسببه ، رابطة حثّ عليها الإسلام، قبل أن يحثّ على الصّلاة والصّيام ، فأصبح بها أهلوها المعتنون بتنميّتها متضافرين، وقلوبهم صخور مرصوفة إلى بعضها، يتألّف منها سور ضخّم لا تهزه زوابع الشّقاق ولا تمسه أمواج التّخاذل².

لقد جسّد إحساسه هذا بمناسبة الحرب البلقانيّة ، فكتب قصيدة شعريّة منها الأبيات التّالية :

قد أضرم البلقان حربا انه لترات قوم أهملوا وماتوا
أحواله تعني ذويه ، وإنما أحوالنا رزء ونحن جناة
وبعد استرجاع تركيا لكرامتها وأراضيها (أدرنة) ، وعمّت الفرحة أرجاء العالم الإسلامي، واكب بن قدور تلك الفرحة بقصيدة جاء فيها :

بشرى أدرنة للهلال حماة جاءوك فيهم همّة وثبات
قد أنفذك من العدا، فتحيّة للمسلمين ، وللعدا التّكبات
ولقد أبوا أن يستقرّ بك الهلال وللهملال إذا أبو وثبات³

أمّا الفاروق فعاشت حتى سنة 1915، حيث اضطرتّها ظروف الحرب إلى التّوقف، كما نكلت إدارة الاحتلال بصاحبها شرّ تنكيل ، نتيجة لمواقفه الموالية للجامعة الإسلاميّة والدّولة العثمانيّة،

1 - الفاروق ، عدد 4 ، (21 مارس 1913) .

2 - الفاروق، ع 15 ، (3 جوان 1913) .

3 - صالح خرفي: عمر بن قدور الجزائري ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984 ، ص 57 .

ومعارضته للتجنيد الإجباري للجزائريين، حيث نفي إلى "الأغواط" على هوامش الصحراء الجزائرية راجلا، ثم منها إلى "عين ماضي" مقرّ التيجانيين، ويرى صالح خرفي أن سبب سجنه "يكن في معارضته دخول القوات الفرنسية إلى المغرب الأقصى"¹، حتى نهاية الحرب، ولما عاد في عام 1919، واصل نضاله الصحفي، حيث انضم إلى هيئة تحرير جريدة "الصديق"، التي كان يجزّها "محمد بن بكير" و"المولود الزريبي"، وقد عده "علال الفاسي" من المصلحين السلفيين بالجزائر. كما تنبّه أيضا إلى الخطر الصهيوني المهدق بالأمّة العربيّة والإسلاميّة وبالخلافة الإسلاميّة في حينه، وحذّر من مغبّة التّغاضي من شأنها، وكان يعتقد أن ذلك سيؤدّي إلى وقوع الدّولة العثمانيّة في قبضتهم.³

توفي عمر بن قدور في سنة 1933. رغم أنّ "محمد الصّالح الجابري" يذكر أنّه توفي في سنة 1930. و يذكر أنّه ربّما يكون تأثر بالتيجانيين خلال تواجده بمنفاه بالأغواط، ومهما يكن من أمر فإنّ عمر بن قدور، ترك بصماته الواضحة على الحركة الصحفيّة والوطنية بالجزائر، ومثل نموذجا للدّاعية الإسلاميّة الصادق، والمخلص لوطنه ودينه، وجامعة المسلمين من غير تعصّب أو تطرّف.

أمّا عمر راسم، فهو أيضا من روّاد الصّحافة في الجزائر، وكان يمتاز بسعة الاطلاع، ذكاء حاد وفهم للأوضاع، ينم عن الحكمة الواسعة، إضافة إلى فنه الرقي في مجال الرسم والمنمات، هو عمر راسم بن علي بن سعيد بن محمد البجائي (الصنهاجي)، ولد بالعاصمة الجزائر في 5 ربيع الأول سنة 1302هـ الموافق لسنة (1884 ميلادية)، ادخله والده الكتاب القرآني وظهر نبوغا واضحا على أقرانه، فقد أمّ حفظ القرآن الكريم، وهو في السابعة من عمره، درس العلوم اللّغوية على المفتي بوقندورة والشيخ محمد بن مصطفى (ابن الخوجة)، كما درس اللّغة الفرنسيّة في مدرسة الشيخ فاتح، وكان في ريعان شبابه مولعا بالمطالعة.⁴

اشتهر عمر راسم بكرهه الشّديد لليهود والصّهيويّة، على خلفية قضية "ماكس ريجيس" وراح يشارك بقلمه في نشر فصولها على صفحات جريدة "المرشد" و"مرشد الأمّة" التّونسيّتين.

وراح يجلّل الخطر الصهيوني بعمق ينم عن فهم دقيق، وبعد نظر، بالخطر الصهيوني في وقت متقدّم. كما أدرك أهمية الصّحافة بالنّسبة للجزائريين، فأصدر في سنة 1908م، مجلّة "الجزائر" توقّفت أمام قلّة الإمكانات الماديّة، بعد صدورها بعددين فقط. وفي عام 1913م، يتعاون مع عمر بن قدور فيصدرا

1- صالح خرفي: في رحاب المغرب العربي، بيروت، 1985، ص 97.

2- الفاسي: الحركات الاستقلالية... مرجع سابق، ص 48.

3- جمال قنان: نصوص سياسية جزائرية، في القرن التاسع عشر 1830-1914، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، 1993. ص 295.

4- د. محمد ناصر: عمر راسم، المصلح الثائر، منشورات وزارة الثقافة، الجزائر، 1984، ص 07.

جريدة "الفاروق" ،ليقوم بإصدار جريدته المسماة "ذو الفقار" في شهر أكتوبر من سنة 1913م، تحت اسم مستعار "ابن منصور الصنهاجي" ، وكان يتحمّل عبء تحرير فصولها، ورسم صورها، وطبعها، وتوزيعها بنفسه، و قد جعلها تحت الرّئاسة الشّرقيّة لـ "هنري روشفور" وهو نائب فرنسي معروف بعدائه للصّهيونية، والشيخ محمّد عبده المصلح المعروف، وقد لجأت السّلطات الاستعماريّة إلى إيقافها غداة اندلاع الحرب العالميّة الأولى ،بعد صدور أربعة أعداد منها فقط. وكان راسم يكتب في جرائد عربيّة وفرنسيّة أيضا ، منها "الحقّ" الوهرانيّة، المرشد" و" مرشد الأّمّة " التونسيّين ، والتّجّاح"الإصلاحية وغيرها.

أدخل راسم السجن في سنة 1915، في سجن " بربروس " ومكث به إلى غاية سنة 1923 م، وتحدث "اجيرون" عن تهمة الجوسسة لصالح تركيا خلال الحرب، التي تكون وراء سجنه¹ ، ويبدو أنّه تلقّى ألوانا من العذاب، تركت آثارها البارزة على حياته المستقبلية ، وقد دوّن بعض آهاته وآلامه في رسالة بعث بها إلى أخيه محمّد، و أوردها الدكتور محمد ناصر في ترجمته له منها«إني الآن أعيش الفترة الأكثر صعوبة في حياتي ، إن اللّحظة التي استطيع فيها التنفس لم تحن بعد ، فهل استطيع تحمّل هذه الوضعيّة التي لا تطاق ، هل استطيع العيش في هذه المحنة القاسية؟...»²

تنوعت مواضيع المقالات الصحفيّة التي كان يكتبها عمر راسم ، فقد كتب في الإصلاح الاجتماعي كما كتب في القضايا الدوليّة وخصّص جانبا معتبرا منها للصّهيونية ومخاطرها . لقد كان مؤمنا بطريقة الإصلاح السّلفية التي جاء بها الشيخ محمد عبده ،ولا أدلّ على ذلك تشريفه لمجلته "ذو الفقار" به معتبرا إياه مديرا دينيا لها، رغم مخالفته له فيما يخصّ الخوض في الأمور السياسيّة ، وهذا يعود إلى طبعه الحادّ والثّوري. جاء في العدد الأوّل منها «ذو الفقار جريدة عبدويّة إصلاحية ، وأنها لا تخرج عن الطّريقة التي خطّها رجال الإصلاح المخلصين.»³ وقد ركّز في أفكاره الإصلاحية على محاربة الطّريقة الجامدة ، والتفسيخ والانحلال عند فئة المتفرنسين ،

1- Ch.R.Ageron :l'Algérie algérienne de napoléon III à de gaule ,la bibliothèque arabe ,sindbad

,paris,1980,p106,notes.

2 - ناصر:عمر راسم ، المرجع السابق ، ص 11.

3- نفس المرجع ، ص 13.

وغالبا ما يشير إليهم بقوله " أولئك الذين تخلّقوا بمفاسد التمدّن ، وشروور الحضارة الجديدة . كما نلمس من مقالاته إشفاقا واضحا على الطبقات الفقيرة والكادحة ، وذمّه للأغنياء الأشمّاء¹ وهو ما جعله أيضا يهتم بالفكر الاشتراكي الذي كان في عنفوانه آنذاك، وموضوعة العصر غداة نهاية الحرب العالميّة الأولى . كما اهتم في مقالاته بإبراز قضية التعليم وحث عليها معتبرا أن العلم سبيل السوّد والنجاح ، وكان يركز على التعليم العربي ويناشد الأغنياء بان ينفقوا في سبيل تعليم أبناء أمّتهم لترفع عنها الغبن والظلم . لقد كان عمر راسم على صلة بالمصلحين المسلمين ومنهم الشيخ عبد العزيز الثعالبي والأمير شكيب أرسلان وأعجب كثيرا بمصطفى كمال أتاتورك، وسافر إلى مصر وتونس للاطلاع على أحوال المسلمين ، وقد عرف راسم بتعلقه بالخلافة الإسلاميّة ، ويذكر د. محمد ناصر أن سبب سجنه هو أن إدارة البريد الانجليزي ضبّطت رسالة في أوائل الحرب من الجزائر موجهة إلى مدير جريدة "الشعب" المصرية للنشر موقعة بمضامات كثيرة من جزائريين تدعو إلى التعاون مع الخلافة ضد الدول الاستعمارية وقد جاء فيها العبارة التالية « يجب على المسلمين أن يقتدوا بخليفتهم وألا يعينوا أعداءهم" واتهموا راسم بناء على تطابق خطه مع خط الرسالة².

والملفت للنظر أن عمر راسم كان واسع الأفق في حركة الإصلاح وكان يطرح حلولاً عملية على المسلمين ، وخلاصة رأيه انه لا خلاص للشرق من سيطرة الغرب إلا بإيمان الشرق بشخصيته واعتداده بنفسه ، واعتداده على قوته ، يستمد كل ذلك من تاريخه الذهبي ، ويعتده من جديد بمواكبة متطورة على أساس العلم الصحيح ، الذي لا ينهر ببريق المدينة الخادع ، فانه ليس اضر بالأُمّ الناهضة من التقليد والجمود. ولعمري هذه خلاصة الفكر الإصلاحية التي نادي بها الأفغاني وأصحابه. اختصرها في كلمات جوامع. أما فيما يتعلق بالصهيونية واليهود عامة، فهو يرى أنهم سبب كل بلاء في هذا العالم وان سبب ضعف الدولة العثمانية هو تسرب العناصر الصهيونية إلى أحزمة الحكم في الدولة وتحكمهم في توجيه دفة السياسة بها...³

توفي عمر راسم سنة 1959م، بعد معاناة مع المرض ، لكنّه ترك بصماته الواضحة في مسار الصحافة الوطنية المعاصرة .

1- ناصر: عمر راسم، المصلح الثائر. المرجع نفسه ، ص 17.

2- نفس المرجع، نقلا عن محمد بن العابد الجاللي، تقويم الأخلاق ، قسنطينة 1927.

3- نفسه، ص 38.

يذكر الأستاذ محمد بلقاسمي في بحثه المتميز، حول الاتجاه الوجودي في المغرب العربي، أن (العمران)، أي "عمر ابن قنبر وعمر راسم، كانا من الوجوه البارزة التي حملت الفكر الوجودي في الداخل".¹ وبالموازاة فقد كان هناك نشاطا حثيثا في الخارج، أي في أوساط المهاجرين الجزائريين مشرقا ومغربا.

II- توقع الجامعة الإسلامية في المغرب العربي :

1- المغرب العربي بؤرة للنشاط وساحة للدعاية :

سجل القرن العشرين دخوله في العالم، بتغيرات سريعة ومؤثرة ومتناقضة في العديد من الأحيان، بين تبلور الأفكار القومية والتحررية من جهة، وتكريس مزيدا من الهيمنة الاستعمارية من جهة أخرى، وبشكل مغاير عن الاستعمار التقليدي، وظلت مبادئ الرئيس الأمريكي "ولسن" مجرد شعارات جوفاء بالنسبة للقوى المنتصرة في الحرب، وخاصة فرنسا وبريطانيا، كما مثلت تلك النقاط أو المبادئ، خطابا جديدا لم تعهده الشعوب التي ترسفت في قيود العبودية، والتواقة إلى الانعتاق والحرية، لكنه لم يرق إلى سياسية ملموسة في الواقع، بالأخص على الشعوب المغلوبة على أمرها في إفريقيا وآسيا، ومهما يكن فقد سجل القرن العشرين دخوله أيضا، بتوسع دائرة الأمل، وتنوع ميادين العمل النضالي بالنسبة للحركات الوطنية الناشئة.

تعتبر فكرة الجامعة الإسلامية أكثر الحركات تأثيرا بالمستجدات العالمية، فقد أدى ارتباطها العضوي بالنظام القائم في اسطنبول، إلى فقدانها لقدسيته أهدافها، التي تحطمت بانتصار الحلفاء على دول الوسط، كما أنها فقدت الأيدي الأمانة التي كانت تتعهد بها بالرعاية فصارت وسيلة لتحقيق مآرب سياسية على يد الشبان الأتراك، وجماعة "صالونيك" بدعم من المحافل الماسونية.² لقد كان على دعاة ومناصري تيار الجامعة الإسلامية، اللجوء إلى المناورة وتغيير مواقع النضال، والتكيف مع تلك المستجدات العالمية، من ذلك أن الجامعة الإسلامية صارت عضدا للحركات القومية الناشئة، تتلون بصفة وطنية الضيقة والأمانى القومية، وتتخلى مكرهة عن فكرة توحيد المعمور الإسلامي، الذي كان يمثل أساسا ومنطلقا لعملها منذ عهد مؤسسها جمال الدين الأفغاني، و"لم يتوقف نشاط المناهضين

1- محمد بلقاسم: الاتجاه الوجودي في المغرب العربي (1910-1954)، ج2، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1994، ص 513.

2- الماسونية: هي عبارة عن تنظيم سري، وجمعية تدعو إلى حرية الفكر بعيدا عن الاختلافات الدينية والمذهبية، لا تسعى إلى الحكم

والسلطة، بل تخدم المبادئ الإنسانية والمثل العليا، اتسع نشاطها بشكل لافت بعد الثورة الفرنسية واستقطبت شخصيات نافذة من مختلف الأمم

والأديان، لكن بعد ذلك اتضحت أهدافها التدميرية، والمرتبطة خاصة بالصهيونية العالمية.

للاستعمار تحت راية الجامعة الإسلامية ،بانهزام تركيا واستسلامها ،وانتشار أشلاء الإمبراطورية العثمانية¹.

لقد كانت منطقة المغرب العربي إحدى أفضل البيئات، المهيأة لقبول واستيعاب نشاط الجامعة الإسلامية ، لاعتبارات عديدة ، فهي بيئة نقيّة ، تحيا على أرضها أمة واحدة تتميز بالانسجام الاجتماعي ، ولا تفرقها المذاهب ،ولا تتنازعها الأهواء والتّغرات ،وعلاقتها بدار الخلافة ظلّت متينة وطبيّة على العموم، ثمّ إنّ التطوّرات الخطيرة التي شهدتها المنطقة في مطلع القرن العشرين، زادت من تكريس العمل التّضالي الوجودي أكثر. ونعني هنا بالأخص الحرب العثمانية-الاطالية في سنة 1911 م، ونفاعات ما عرف بقضية طرابلس الغرب، والتي سبق أن أشرنا إليها في فصل سابق ، وكذلك الأطماع الفرنسيّة والاسبانيّة في احتلال مراكش (المغرب الأقصى).

تبوّأت تونس مكانا رياديا في النضال داخل إطار الجامعة الإسلامية، خدمة لقضايا الوحدة والتحرّر، وكانت مؤهّلة أفضل من غيرها لقيادة هذا التّضال ، ويعود ذلك لتظافر عوامل متعدّدة، منها التّضج الفكري الذي ساهمت فيه مؤسّسات علميّة عريقة ، سواء منها المحافظة كالزيتونة، أو المعاصرة كالصّادقية والخلدونية ، ومن مزايا هذا التّضج، وجود قواسم مشتركة بين علماء الزيتونة ونخبة الصّادقية التي أسهمت الحماية في دعمها، فانقلب "السّحر على السّاحر" كما يقال. فقد جاء في تقرير العقيد "بارون" حول الوضع في تونس :«إنّ الحركة التّونسية نشأت من إقبال الأهالي المنتمين إلى الطّبقة العليا، بحماس على دراسة العلوم ولا سيما القانون والنظريّات الاجتماعيّة الحديثة ، ولقد سهّل مثلوا فرنسا وشجّعوا تلك الدّراسات ، التي كان يشرف عليها بعض أساتذة الجامعة الخلدونيّة، أمثال البشير صفر، وعبد الجليل الزّاوش، وخير الله بن مصطفى ، وكانوا يقرنون دروسهم بنقد نظام الحماية.»²

ويضيف التّقرير أنّه في الفترة الموالية، أي ما بين 1905 و 1914 ، تحوّلت الطّموحات الفكرية والشّعف الثّقافي إلى طموح سياسي ، وأنهم كانوا يستوحون عملهم من حزب تركيا الفتاة، وربطوا صلّتهم به ، كما أسّسوا جريدة "التّونسي" ، التي كان يديرها علي باش حامبة، ويؤازره الشّيخ عبد العزيز الثّعالي ، وكان برنامجهم يستهدف تحرير بلدانهم من الوصاية الأوربيّة ، وقد توجّهت تلك التّخبة إلى الاستعانة بالأجانب وخاصّة الألمان ، الذين تحالفوا معهم.³

1- قنان : لمحة حول نشاط الجامعة الإسلامية....،مقال سابق ، ص 204.

2- عبد العزيز الثّعالي : تونس الشهيدة ، ترجمة: حمادي السالطي ، دار الغرب الإسلامي،لبنان، 1984/هـ1404، ص 301-389 .

3- نفسه.

وهناك عوامل أخرى ساهمت في دعم هذا النشاط وتعزيزه، منها زيارة الشيخ محمد عبده إلى تونس مرتين، وبالأخص الزيارة الأخيرة في صيف عام 1903 م، حيث مكث الشيخ مدة طويلة نسبياً، وأعجب بمستوى التعليم بتونس، ربّما يكون حسبه- فاق في بعض جوانبه الأزهر الشريف، كما لا ننسى دور الصحافة المعتر في هذا الشأن، فقد كان للتونسيين جرائدهم الرائدة، التي تناخ كبريات الجرائد العربيّة، وكذا استمرار الصّلات الثقافيّة، وحتى السياسيّة مع مركز الخلافة في "اسطنبول"، من خلال تواجد عدد معتبر من الأعيان والتّجار والمثقّقين.

2- الأخوة الجزائرية-التونسية:

إنّ الروابط الأخويّة القائمة بين الجزائريين وإخوانهم المغرب العربي وفي تونس بالذات خلال تلك المرحلة، هي روابط متينة صقلتها أحداث التاريخ، بل إنّ هناك صلات عائلية واسعة خاصّة في المناطق الشّرقية، وتشير الأحداث التاريخيّة إلى مدى التآزر الذي ميّز الشعبين في فترات ومحن عديدة، منها ذلك التآزر والتضامن الذي ظهر خلال احتلال فرنسا للبلدين -بعيدا عن الموقف الرّسمي- الذي عبر عنه بايات تونس، أثناء الحملة الفرنسيّة على الجزائر، لأطماع ودسائس، شجّعها الاستعمار لیسود وينجح¹. فكانت تونس ملجأ لعدد كبير من الجزائريين فرارا من البطش الاستعماري أو لتنظيم صفوف المقاومة، وبالأخص بعد احتلال فرنسا لقسنطينة سنة 1837م، وقد عبر الجزائريين أيضا عن مساندتهم لإخوانهم التونسيين، على اثر احتلال فرنسا لتونس في عام 1881م، بأشكال شتى، فقد فتح الشيخ "بوعمامة"، جبهة حربيّة في الجنوب الغربي، بغرض تشتيت القوّات الفرنسيّة، وغيرها من مظاهر التضامن والتأييد والمناصرة².

مثّلت تونس مركز علم وثقافة، وتكوين ديني وأدبي بالنسبة للجزائريين، من خلال الدّراسة والتّدريس بجامعة الزيتونة، والاحتكاك بمشايخها الأجلّاء، فكان الجزائريون بعد أن يكملوا دراساتهم الأولية في الجزائر يشدّون الرّحال إلى تونس، فيحصلون منها على الإجازة العلميّة، التي تسمح لهم بمزاولة التّعليم والوعظ والإرشاد..، ويعتبر الشيخ عبد الحميد بن باديس من خيرة خرّيجي الزيتونة بين عامي (1908-1912) وأجازه شيوخها الأجلّاء كالطاهر بن عاشور ومحمد التّخلي وغيرها³.

1- تجدر الإشارة هنا إلى الموقف السلبي الذي عبر عنه الرسميين التونسيين بتعاونهم مع الحملة الفرنسية، بسبب وعود تلقوها

بتعيين أميرين تونسيين من العائلة الحسينية على كل من بايلك قسنطينة ووهران. انظر: د. يحيى بوعزيز، دور تونس في دعم

حركات التحرير الجزائرية وموقف الجزائريين من احتلالها عام 1881، مجلة الثقافة، عدد 70 جويلية-أوت 1982.

2- بوعزيز: دور تونس...المقال نفسه، ص 51.

3- طالبى: ابن باديس حياته وآثاره، ج 1، مرجع سابق، ص 75.

والواقع أنّ الاتجاه الوجودي كان حاضرا في العديد من النشاطات الفكرية والسياسية لنخب المنطقة في مطلع القرن العشرين، ومن مظاهره البارزة إنشاء الجمعيات، كجمعية الإخاء للجزائريين والتونسيين association fraternelle des Algero-Tunisiens، والتي ظهرت في سنة 1910،

بالقسنطينية، على يد الشيخ صالح الشريف • وإسماعيل الصفايحي . كانت الجمعية تهدف إلى مد يد المساعدة للمهاجرين الجزائريين والتونسيين المقيمين بالأستانة، أو أقاليم الدولة العثمانية، وتشجيع الهجرة إليها كذلك، وقد مثلت أيضا وسيلة تطير لفائدة الجامعة الإسلامية، كما تأسست بالقاهرة سنة 1910، "جمعية الاتحاد المغربي" التي ضمت في عضويتها الشيخ على يوسف صاحب "المؤيد"، كما ظهرت أيضا جمعية "الشرفاء" بالمدينة المنورة .

أن تضيق السلطات الاستعمارية على نشاط الوطنيين، جعل تأثيرها يتركز على المغاربة في الخارج أكثر من الداخل، رغم وجود بعض المحاولات الرائدة لنقل العمل إلى الداخل في هذا المجال، ونخص بالذكر هنا "جمعية الاتحاد الإسلامي"، التي كان لها فروع في بلدان الشمال الإفريقي ومصر، ومن أبرز أعضائها السيد "خوالدية صالح بن عمار" كما سنرى.

شكلت الحرب فرصة لظهور تيار انفصالي (استقلالي)، استند على قاعدة قانونية تتمثل في مبادئ الرئيس الأمريكي "ولسون" الأربعة عشر، وخاصة البند المتعلق بحق تقرير مصير الشعوب، وهنا ظهرت (لجنة جزائرية-تونسية)، أرسلت اللجنة بمذكرة إلى "باريس" أين انعقد مؤتمر الصلح، فبعد أن تستعرض المذكرة الارتباط الوثيق بين القطرين، تسهب في الحديث عن التقدم الذي أحرزته البلاد التونسية منذ عهد الأمان، وإصلاحات خير الدين باشا، والتي انعكست على كل مظاهر الحياة الاقتصادية والفكرية، ثم تتحدث عن استقلال البلاد التونسية منذ عهد الأغلبية وتكرس مع الحفصيين ثم في العهد التركي، أين كان الارتباط مع الخلافة العثمانية دينيا وعاطفيا وليس إداريا .

وتستعرض المذكرة أيضا، محنة الجزائر في ظل الاحتلال الفرنسي، والأساليب الوحشية في اهانة الأهالي المسلمين في دينهم ومعيشتهم، لتعرج إلى فرض الحماية الفرنسية على تونس، وإملاء

• ولد الشيخ صالح الشريف بتونس سنة 1868، من أبوين جزائريين من منطقة القبائل، تعلم في الزيتونة، وأصبح مدرسا من

الطبقة الأولى في 1893، عرف بتحمسه للخلافة العثمانية ودفاعه عن قضايا المسلمين ضد الاستعمار الغربي، عين مرشدا دينيا ومدرسا خطيبا بدمشق، التحق بمشيخة الإسلام باسطنبول، شارك في حرب طرابلس كمتوكل ومعاون لأنور باشا، إضافة إلى حروب البلقان. نشط خلال الحرب في الدعاية لصالح الأتراك والألمان، وساهم في التعريف بقضية الشعبين الجزائري والتونسي، وله عدة تأليف. في الفقه والسياسة والأدب انظر:

احمد صاري، الشيخ صالح الشريف، المفكر الإسلامي 1859-1919، حولىة المؤرخ، الجزائر، العدد 1، 2002

شروط الاتفاقية على "الباي" من قبل الجنرال (بيرار) Bérard ، وتؤكد المذكرة إلى رفض الجزائريين والتونسيين للاحتلال، وأن لهم خصائصهم الحضارية التي تختلف عن فرنسا . وتنساءل في الاخير عن جدوى سياسة القهر والعنف المنتهجة، وهل بإمكانها إرساء السلم والاستقرار ؟ وبعد أن تشيد بالتغيرات العالمية، وبالأخص مبادئ "ولسون" والتظاهرات المختلفة لصالح الحرية، ومنها تصريحات كلينصو Clemenceau نفسه ، يطالب بالعدل في تطبيق القرارات على جميع الشعوب دون تمييز .

ويختتم بتوقعات الشخصيات التي صاغت المذكرة، وهم صالح الشريف ، محمد الخضر حسين ، محمد مزيان التلمساني ، محمد الشيباني التونسي ، محمد بيراز الجزائري ؟ ، حمدان بن علي الجزائري ؟ وأخيرا محمد باش حامية¹ .

والواقع أنّ بواد العمل الوجدوي بين أبناء المغرب العربي، كانت بدأت قبل الحرب ، وتحديدًا في سنة 1911. "في أوساط حركة الشبان الجزائريين، المتعلقين بفكرة الجامعة الإسلامية ، وتشير المراجع إلى بداية الاتصالات بين الشبان التونسيين والجزائريين خلال عام 1911 ."² ، ولا يعزب عن فكرنا أنّ الطلائع الأولى للعمل السياسي في تونس كانت جزائرية صرفة ، وإنّ معظم الفاعلين كانوا من أصول جزائرية ، حيث بإمكاننا القول أن العبقريّة الجزائرية وجدت ميدانًا خصبا للعمل بتونس ، منهم صالح الشريف و محمد الخضر حسين والمكي بن عزوز[•] عبد العزيز الثعالبي وتوفيق المدني . وإذا كان تعلق الشبان التونسيون بالخلافة، واضحا لا لبس فيه وتأثرهم بحركة الشبان الأتراك عميقا ، فإن الشبان

• محمد الخضر حسين، ولد بنفطة سنة 1873، تحصل على شهادة التطويح في سنة 1898 ، اصدر في عام 1904، مجلة السعادة العظمى ، تولى خطة القضاء ببنزرت ، هاجر إلى سوريا في 1912، ومنها إلى الأستانة حيث نشط لصالح الدعاية العثمانية الألمانية خلال الحرب العامة ، حكم عليه بالإعدام من طرف فرنسا وصودرت أملاكه.التجأ إلى مصر في 1922، واستلم رئاسة تحرير مجلة نور الإسلام، وانشأ جمعية الهداية الإسلامية ، عضو المجمع العربي في دمشق والمجمع اللغوي بالقاهرة ، وترأس جمعية "جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية" ، عين في 1952 شيخا للأزهر ، توفي في 1958. لمزيد من التفاصيل حول حياة وأعمال العلامة انظر: د.محمد المواعدة، الشيخ محمد الخضر حسين ، حياته وأعماله، الدار التونسية للنشر - تونس 1974.

1 - Claude Collot : le mouvement nationale algérien , textes (1912-1954) éd. 2, o.p.u ,Algérie, pp25-30.

2- بوعلام بلفاسمي: البعد المغاربي في إيديولوجيات الحركة الوطنية الجزائرية 1911-1937، المصادر، ع 7، نوفمبر 2002، ص 121.

• المكي بن عزوز، من أصل جزائري ولد بنفطه حوالي 1854 ، تولى مشيخة الطريقة الرّحمانية ، واشتغل مفتي وقاضي ثم عزل في سنة 1888، اشتغل بالتعليم في جامع الزيتونة ، غادر باتجاه القسطنطينية ، أين تولى التدريس بدار الفنون ، ثم سمي مدرسا بمدرسة الواعظين ، توفي بالأستانة في 1916.

الجزائريون لم يتعلقوا أكثر بالشبان الأتراك ، وإنما كان تأثرهم بالشبان التونسيين ، حيث "مثلت البلاد التونسية نموذجاً استوحى منه الشبان الجزائريون¹. وقد ظل التأثر بالشبان الأتراك عاطفياً إلى بعد الحدود، على غرار الشباب فرحات عباس حينها بتقمصه لقب "كمال بن سراج" تأسيساً بكمال أتاتورك² وحيث كانت هذه النخبة خير ممثل للجامعة الإسلامية في العالم الإسلامي عامة، وفي منطقتة المغرب العربي بشكل خاص . يقول الشيخ توفيق المدني: «كنت ولا زلت ولن أزل إلى آخر نسمة من حياتي، مؤمناً إيماناً قاطعاً بوحدة العالم الإسلامي ، وبأنّ هذه البلاد الشاسعة الممتدة الأطراف من أقصى بلاد المشرق إلى أقصى بلاد المغرب ، إنّما تكون أمة واحدة، هي أمة لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، وأنها إذا ما زال عنها وباء الاستعمار ، ونفضت عنها أكفان الاستكانة والجمود ، ستكون في العالم قوّة سيّاسية واقتصاديّة رهيبّة تفرض إرادتها ، وتصون كرامتها ، وتسعد المستعبدين من رجالها.»³

ثمّ يستطرد قائلاً: «وكت أرى أنّ الخلافة الإسلامية في اسطنبول ، هي الأداة الصّالحة لجمع تلك الكلمة ، ولمّ ذلك الشعث ، والقضاء على كلّ عوامل الفرقة والشّتات ..»⁴.

III- نظرة على مساهمة بعض دعاة الجامعة الإسلامية في الحركة الوطنية:

1- دور الأمير شكيب ارسلان :

يعتبر أمير البيان شكيب ارسلان، من أبرز زعماء الجيل الثّاني لحركة الجامعة الإسلاميّة، كما رأينا في فصل سابق، كما يعتبر بحقّ التلميذ المخلص لها، الوفيّ لمبادئها، المناخ عن أفكارها وطموحاتها ، سخّر لسانه وقلمه في خدمة الإسلام وقضايا المسلمين، ويمكن القول أنّه إذا كان رشيد رضا خير من مثّل حركة الجامعة الإسلاميّة من الوجهة الدينيّة المحضة، فإنّ لأمير شكيب ارسلان، هو خير من مثّلها على الصعيّد السّياسي بلا منازع، كما يمكن القول أيضاً ، أنّ الأعباء والمهام التي اضطلع بها في إطار الجامعة الإسلاميّة، كانت من التعقيد بمكان، لأنّها جاءت في مرحلة حرجة، وظروف دوليّة معقّدة، وتحديات كبيرة، تمثّلت على الخصوص بانهيار مجد الخلافة الإسلاميّة، واتّساع نطاق الظلم الاستعماري على الأمة الإسلاميّة وسقوط بقية أقاليمها.

1- العجيلي : صدق حركة الجامعة الإسلامية...مرجع سابق ، ص 160.

2 - Benjamin stora et Zakia daoud : *Ferhat Abbas ,une autre Algérie* , op.cit,p17.

3 -احمد توفيق المدني : *حياة كفاح* ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ج1 ، 1976 ، ص 324.

4 - نفس المصدر والصفحة.

وشخصية الأمير شكيب ارسلان شخصية مؤثرة، فهو متنوع الثقافة، نهل من مشارب شتى، العربية الإسلامية في المشرق العربي ولبنان، والغربية من خلال استقراره بسويسرا، وتجوّله في الدول الغربية. كما تيسر له تبوء مناصب قيادية، أهّلته إلى فهم صحيح لحقيقة الوهن الذي أصاب أمته من جهة، والمؤامرات الخارجية، والمكائد الغربية بالذات من جهة أخرى.

والحقيقة أنّ علاقة شكيب ارسلان بالحركة الوطنية الجزائرية، وبالأخص الاتجاه الإصلاحي منها، لا يمكن فهمها بمعزل عن الحركات الوطنية بالمغرب العربي بصفة عامة، ذلك أنّ عمله كان منصباً على توحيد نشاطات ونضال الحركات الوطنية بالمنطقة، وتنسيق جهودها في مواجهة عدوها المشترك.

بدأ اتصال الأمير بقضايا المنطقة، قبيل الحرب العالمية الأولى، من خلال مشاركته في الحرب العثمانية - الإيطالية سنة 1911 م. والتي استهدفت من خلالها إيطاليا احتلال ليبيا أو (طرابلس الغرب) حينها، وكانت مشاركته كمتطوع في الحرب إلى جانب العثمانيين والسنوسيين، لمدة تزيد عن ثمانية أشهر في درنة وبنغازي، وقد أورد تفاصيل ذلك في تعاليقه على "حاضر العالم الإسلامي¹". رغم أنّ البعض، وبالأخص المؤرخين الغربيين، يحاولون ربط الحركة الوطنية في المغرب العربي، بشكل حاسم بنشاط الأمير شكيب ارسلان، تكريساً لأطروحة العجز الذاتي لدى الجزائريين بالخصوص، وارتباط تحرّكهم بالخارج. والحقيقة أنّ التأثير الذي مارسه ارسلان على الحركات الوطنية، هو مشرف طالما أنّه ينتمي إلى نفس الثقافة والدين والحضارة، ويحمل نفس الهموم، يقول الأستاذ محمد المليبي بهذا الشأن "أمّا ما يزعمه مؤرّخون غربيون، من أنّ تأثير عناصر أجنبية، يكون حاسماً في توجيه هذه الحركة، واستشهادهم بالاتصال الذي كان موجوداً بينها، وبين شخصيات مثل شكيب ارسلان، فإنّه يغفل عن حقيقة أساسية، وهي أنّه طالما كانت الحركة الوطنية الجزائرية، قد انطلقت في إطار البعد الحضاري العربي - الإسلامي، وفي إطار حركة النهضة العربية الإسلامية، فلا يسعها إلا أن تلتقي مع رجل مثل شكيب ارسلان، الذي لا يعتبر - والحالة هذه - عنصراً أجنبياً.²"

ربط ارسلان علاقات حميمة مع ثلّة من زعماء الحركات الوطنية بتونس، منهم على الخصوص صالح الشريف التونسي، ومحمد باش حامبة، ثم بعدها مع زعيبي الحزب الدستوري التونسي عبد العزيز الثعالبي والشاذلي خير الله.³

1 - لفهم الموضوع مفصلاً انظر: حاضر العالم الإسلامي - الجزء 2، فصل، طرابلس الغرب وإيطاليا.

2 - محمد المليبي: الشخصية الوطنية بيت الحقيقة والتزييف، محاضرة أقيمت بملتقى الفكر الإسلامي السادس بالجزائر، 24 يوليو، 10 أوت 1972، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، ج3، ص11.

3 - جوليان: إفريقيا الشمالية تسير، مرجع سابق، ص 33.

وفي المغرب مع الشيخ عبد السلام بنّونه والوزّاني، بالأخص في شمال المغرب الأقصى - التي ستشهد ميلاد فكرة الظهير البربري الاستعمارية- والتي تصدّى لها شكيب ارسلان بحزم، وكان له الفضل في إبطال مفعولها المدّمّر .

بدأ اهتمام شكيب ارسلان بالجزائر على ما يبدو، في مطلع العشرينات من القرن العشرين، عندما كان مستقراً في أوروبا بعد مؤتمر الصّح ، وكان سبب ذلك احتكاكه ببعض الجزائريين المتواجدين في أوروبا ، وقد كتب مقالين علق فيهما على "حاضر العالم الإسلامي" لمؤلفه لوثرود ستودارد الأمريكي وترجمة عجاج نويهض حول تاريخ الجزائر¹ .

عنوان المقال الأول هو: (الجزائر والأمير عبد القادر وفرنسا) ، أثنى فيه على زعيم المقاومة الجزائرية وجهاده ضدّ الفرنسيين، وذكر بإقامته بالشّام (سوريا)، ودور أبناءه في مختلف النّشاطات السّياسية للدولة العثمانية والجامعة الإسلامية. أمّا المقال الثاني فعنوانه (الجزائر وقبائل البربر) ، وقد تعرّض فيه إلى السّياسة الفرنسية، ومحاولتها تقسيم الجزائر على أساس عرقي بين العرب والبربر، ويبيّن أنّ الغاية من وراء ذلك، التّمكين لسلطان فرنسا في البلاد، منوّها بثورات منطقة القبائل (الكابيل)، خاصّة تلك التي قادها بوبغلة ولالة فاطمة نسومر ، والحاج محمد المقراني.

كانت علاقة شكيب ارسلان مع الشخصيات الجزائرية تتمّ بواسطة المراسلة، لأنّه لم يتمكّن من زيارة الجزائر، وكانت مصالِح الاستخبارات الفرنسية، تعتبره شخصية خطيرة على استقرارها وأمنها بكل منطقة المغرب العربي، وبالأخصّ خلال و بعد الحرب العالمية الأولى، لميوله لدول الوسط، و بحكم ميوله للجامعة الإسلامية والدولة العثمانية أيضا.

وقد أضحى في ظلّ ظروف الحرب، وفي فترة ما بين الحربين أيضا -حسب البعض- "أداة بيد الدّول "الفاشستية" ، في تنفيذ إستراتيجيتها لمواجهة الدّول الاستعمارية الكبرى كفرنسا وبريطانيا، وبني خصومه ذلك الموقف اثر صداقته لموسوليني، والذي اعتبروه تخلياً واستخفافاً بتضحيات الشعب الليبي ضدّ الاحتلال الايطالي، أمّا هو فقد برّر ذلك الموقف بكون الدول "الفاشستية" تلك، كانت في وفاق مع الدّولة العثمانية، ومعادية للدّول الاستعمارية، خاصّة فرنسا، أي عملاً بمبدأ "عدوّ العدوّ صديق".² ومن الشخصيات التي كان يرسلها في الجزائر، الشّيخ الطّيب العقبي على اثر عودته للجزائر، وقد يكون

1- لتفاصيل أوفى يمكن الرجوع إلى المقالين في : كتاب، حاضر العالم الإسلامي ، مصدر سابق ، ج2، ص ص 166-178.

الرجلان التقيا بالبقيع المقدسة¹. وقد عبّر الشيخ سعيد الزاهري عن تلك العلاقة بين الرجلين بأنها «علاقة صداقة خاصة من نوعها»².

ومن بين الشخصيات الهامة التي كانت على علاقة بأرسلان أيضا، الشيخ أحمد توفيق المدني، وكان ذلك في مطلع العشرينيات من القرن العشرين، حيث يذكر توفيق المدني، أنّ تاريخ أول لقاء بينهما، كان في سنة 1923 م، عندما كان المدني على رأس الحزب الدستوري الحرّ التونسي³. كما كانت له اتصالات بالشيخ عبد الحميد ابن باديس، والسعيد الزاهري، ومبارك الميلي، ونشرت له مجلة "الشهاب" بعض المقالات.

تعتبر مجلة "الأمة العربية" la nation arabe، التي كان يشرف عليها ويصدرها بالفرنسية من سويسرا، من المجلات الرائدة في العالم الإسلامي، ولعبت دورا بارزا في تعميق الوعي القومي، ونشر أفكار الجامعة الإسلامية، والفكر القومي-الإسلامي. والملاحظ أنّ الأمير شكيب أرسلان، على اثر هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، وزوال مجد الخلافة الإسلامية، ولّى وجهه شطر الأمانى القومية العربية، لكن دون التخلي عن فكرة الجامعة الإسلامية، وبإمكاننا القول أنّ الجامعة الإسلامية وجدت في التيار القومي الإسلامي، متنقّسا لها بعد ضعف الدولة العثمانية وتراجع مكانتها، وتخليها عن مبادئ الجامعة الإسلامية، بعد قيام دولة تركيا الحديثة، ذات التوجهات العلمانية.

كانت المجلة تصل إلى القراء في الجزائر بوسائل مختلفة، وبعيدا عن أنظار أعوان الإدارة الاستعمارية، لأنها كانت من الصحف الممنوعة في الجزائر، وتخضع لمراقبة شديدة، ويذكر الشيخ توفيق المدني أنّه كان من "العاملين على نشر تلك المجلة الراقية ودعمها ماديا"⁴.

ونظرا للرقابة الشديدة التي كانت مفروضة على المراسلات بين الأمير وأقطاب الحركة الوطنية، فقد كان يلجأ إلى طرق عديدة وملتوية للتواصل، تفاديا لسقوطها بين أيدي الإدارة الاستعمارية وأعاونها، وكمثال على ذلك فقد كانت المراسلات بينه وبين مصالي الحاج، ترسل في غلافين، فتبعث أولا إلى "ليون" بفرنسا بعنوان محمد بذاك، ويرسلها هو بدوره إلى جنيف⁵. وهنا تجدر الإشارة إلى الدور

1- J.Bessis : chekib arslan et les mouvements, op.cit, p 475.

2- الزاهري: شعراء الجزائر، ج1، مصدر سابق، ص 148.

3- المدني: حياة كفاح، مصدر سابق، ص 232.

4- أحمد توفيق المدني: شكيب أرسلان، بطل الجهاد في كل الميادين، الثقافة، عدد 76، (جويلية، أوت) 1976، الجزائر، ص 74.

5- محفوظ قداش ومحمد قنانش: نجم الشمال الإفريقي 1926-1937، وثائق وشهادات لدراسة الحركة الوطنية، ديوان المطبوعات

الجامعية، الجزائر، 1984، ص 118.

البارز الذي لعبه أرسلان، في تغيير مسار مصالي الحاج من الاتجاه اليساري إلى الاتجاه الوطني في بعده الإسلامي، وكذلك تقريب وجهات النظر بينه وبين العلماء، وحسب الأستاذ محفوظ قداش، فإنّ الاتصالات بين أرسلان ومصالي، تمخّض عنها تدعيم المسار الأيديولوجي العربي-الإسلامي للوطنية الجزائرية.¹

مثل الأمير شكيب أرسلان بشخصيته، وعلاقاته، وثقافته الواسعة، بالفعل قطبا أساسيا في الدعوة إلى الجامعة الإسلامية، وساهم بفعالية في بلورة الأفكار القومية والوطنية، ودعم جهود الإصلاح في الجزائر، سواء بواسطة مراسلاته المتعددة، أو من خلال مجلة "الأمة العربية". قال "ديبارمي" وهو المتخصص في الشؤون الأهلية: "إنّ فكرة الوحدة العربية قد دخلت إلى الجزائر، عن طريق الجريدة المصرية المنار لصاحبها رشيد رضا، والذي كان من بين مساعديه شكيب أرسلان".² كما يذهب جوليان نفس الرأي بقوله: "إنّ الفضل في انتشار المبادئ التوحيدية العربية في المغرب، يرجع قبل كل شيء، إلى نفوذ الأمير شكيب أرسلان".³ أمّا عبد الرحمان بن إبراهيم بن العقون فيقول: "فكما أنّ حركة جمال الدين ومحمد عبده، حرّكت الضمير الديني، فحركة شكيب أرسلان، حرّكت الضمير الوطني، وكلاهما يلتقيان في نهاية المطاف عند الهدف".⁴

2- تأثير الشيخ سليمان الباروني:

ولد الشيخ سليمان الباروني، في جبل نفوسة بليبيا سنة 1287هـ / (1870م)، وهو من قبيلة البارونيين الاباضيين. تعلم في تونس ومصر والجزائر، وكانت حياته خصبة مليئة بالمغامرات والآمال الكبيرة في السياسة والأدب والدين.⁵ والواقع أنّ نضال الباروني، ارتبط بشكل كبير بقضية طرابلس الغرب ومحتتها في مطلع القرن العشرين، لكن ذلك لم يثنه عن الاهتمام بقضايا العالم الإسلامي من صحراء الجزائر إلى بلاد الهند، والاشتغال بفكرة الجامعة الإسلامية، كما كان ذا حظوة لدى السلطان عبد الحميد الثاني، وقد عينه نائبا عن طرابلس الغرب في البرلمان العثماني، قبل أن يعين واليا مفوضا من السلطان لقيادة النضال بعد الاحتلال مدعوما من ألمانيا.

1 - Mahfoud Kaddache : *histoire du nationalisme algérien, question nationale et politique algérienne* s.n.e.d, Alger, - 1

1987, p 360.

2- صاري : شخصيات وقضايا من تاريخ الجزائر المعاصر، مرجع سابق، ص 89 .

3. جوليان : إفريقيا الشمالية تسير، مرجع سابق، ص 32 .

4- عبد الرحمان بن إبراهيم العقون : الكفاح القومي والسياسي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ج1، 1984، ص 55 .

5أبو القاسم سعد الله : سليمان الباروني، أضواء وملاحظات، الثقافة، العددان 110-111، الجزائر، 1995، ص 231 - 258 .

كان للباروني اهتمام بالجزائر، انطلاقاً من علاقته مع شيخ ميزاب، وبالأخص الشيخ "أطفيش" الذي تتلمذ عليه بين عامي 1896 و 1899 م، كما التقى الشيخ أبو اليقظان أيضاً. وزار الجزائر عدة مرّات وله آراء تخص الحياة الفكرية والعلمية بها، ويتابع أخبارها ويكتب عنها وعن ميزاب بالأخص في الجرائد، ومنها جريدة "الأسد الإسلامي" التي أنشأها في مصر، وقد بعث له الشيخ حمدان الويني بيئتين بالمناسبة هما :

أذا (الأسد الإسلامي) لله درّم
بجامعة الإسلام فاسط بيان
وفاخر بعقل في المصالح وادّخر
أجورا بها في الحشر تأبي لحسان.
وأجابه الباروني بقصيدة منها هذه الأبيات :

فأنت أخ والتّاس في الدّين إخوة
وهل مذهب الإنصاف هجري لإخواني
علمنا من الأيام سوء انقسامنا
فبالاتّحاد الفوز يا عين أنساني
أسافر كما التقى باجلّـة
لهم من سموّ الفكر حظّ (كحمدان)¹

والحقيقة أنّ هذه الأبيات تدل على متانة الروابط القائمة بين علماء ومفكري الجزائر على قلتهم وسوء أحوالهم، مع إخوانهم في العالم الإسلامي وخاصة في المشرق والمغرب العربيين، كما أنّه كان يثني على سياسة فرنسا في الجزائر، خاصة بعد أن ساءت العلاقة بينه وبين الدّولة العثمانيّة وتحديدًا السلطان العثماني عبد الحميد الثاني. واستطاعت فرنسا توظيف ذلك التّقارب لمصلحة سياستها الدّعائية والدّينية في آن واحد.

IV-الجامعة الإسلاميّة وبوادر النّشاط السياسي في الجزائر:

1- حركة الشّبان الجزائريين والجامعة الإسلاميّة :

إذا كان تأثير حركة الجامعة الإسلاميّة على اتجاه المحافظين في الجزائر، قد غلب عليه طابع الإصلاح الدّيني والاجتماعي البحت، وظلّ تأثير هذا الاتجاه محدوداً، لعدم وجود خطة إصلاحية فعّالة، وتصور واضح، واستنكافه عن العمل السّياسي، نظراً لارتباط العديد من أقطابه بالوظيفة، وهو ما جعلها رهينة الإدارة الفرنسيّة، لا تسمح لها إلاّ بهامش ضيق من العمل الإصلاحي، والذي من أهمّ شروطه عدم التعرّض للسياسة الفرنسيّة بسوء، وقد تكون لتعاليم الشّيوخ محمد عبده، بعدم الاشتغال بالسياسة، وقع على سلوكات هذه الفئّة. لكن ومهما يكن فقد اضطلعت هذه الفئّة ببعض المهام، خاصة في مجال التّربية والتّعليم والوعظ، سمحت بمرور الخطاب الإصلاحي إلى الجماهير، وشكّلت بقصد أو بغير قصد نواة

1 سعد الله: سليمان الباروني، أضواء وملاحظات، نفس المقال، ص 239.

الحركة الإصلاحية التي تجسّدت في قيام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فيما بعد. لكنّ تأثير حركة الشبان كان أعمق وأكثر فعالية ، وتجمع الدّراسات أنّ هذا التّيار، مثل باكورة العمل السّياسي في الجزائر، والتي تجسّدت في قيام الحركة الوطنيّة بتياراتها المختلفة .

عرفت حركة الشبان الجزائريين أيضا ب"حركة الجزائر الفتاة" ، وينتمي الشبان الجزائريون إلى مشارب فكرية متعدّدة ، ويحملون رؤى سياسية مختلفة، وصلت إلى درجة التناقض ، فهم ضالعون في الثقافة الفرنسيّة ، ويحملون شهادات عليا في مجالات الطب والمحاماة والتعليم وغيرها ، غير أنّ ثقافتهم الدّينية كانت محدودة . اضطلعوا بلعب ادوار سياسية لمصلحة أبناء أمّتهم وكانوا يشعرون بمرارة الاحتلال وقسوة الفارق بينهم وبين اقرانهم من الأوربيين ، تراوحت أفكارهم بين الاندماج والتحرّر من ربة التّمييز، فكان التحرر الحقيقي في نظرهم، هو التحرر من الجهل المركب(الخمول، الجهل بالدّين والجهل بالمدنيّة والتّرتي...)، والتحرّر ومن الاستبداد الطّاهر في أبشع صوره في القوانين الاستثنائية المفروضة، وسلوك الإدارة، وطغيان المعمرين وانايتهم، كما كان التحرر يعني أيضا، تقفي خطوات الحضارة الماديّة الحديثة من جهة، مع الحفاظ على الشخصية الوطنيّة ومقوماتها العربية الإسلاميّة .

وان كان هناك اتجاه محدود داخل هذه الفئة يدعو صراحة إلى الإندماج الكلي بمنطوقه ومفهومه ، ولا يرى حرجا في التجنّس للحصول على حقوق المواطنة الكاملة ، لكنّه ظلّ مرفوضا من الجزائريين والمعمرين على حد سواء، وأخلى ساحته بعد صدور إصلاحات كليمنصو Clémenceau¹ الهزيلة في سنة 1919² ، ليبرز نجم الشاب الأمير خالد بن الهاشمي الجزائري، حفيد الأمير عبد القادر، ويسترق إليه الأضواء فترة من الزّمن كما سنرى.

لقد كان تأثر هؤلاء واضحا بحركات الشبان في تركيا والعالم العربي، كمصر وتونس، وعلى الرّغم من أنّ بعضهم حاول إنكار علاقتهم بالجامعة الإسلاميّة، فقد أشارت بعض الدّراسات والاراء خاصّة الفرنسيّة منها، إلى ممالئتهم للجامعة الإسلاميّة، وتأثرهم بأفكارها، وأنّهم يستغلون الدّين لإثارة الجماهير ضدّنا³ . وبخصوص علاقتهم بدار الخلافة الإسلاميّة ، فقد أكدوا بأنّهم « يعتبرون اسطنبول والخلافة بنفس الاعتبار الذي يصفه المسيحيون مع روما والبابا»⁴ . كما يعتبرون أنّهم قاموا بدور هامّ في الحرب

1-كليمنصو جورج (Clemenceau-Georges) رجل دولة وسياسي فرنسي من مواليد 1841 شغل منصب وزير الحربية ، ورئيس مجلس النواب، في 1917 ، وكان له دور كبير في مباحثات الصلح التي أعقبت الحرب ، ووضع معاهدة فرساي 1919 .

2 - Collot : le mouvement nationale algérien....., op.cit, p30.

3- سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج2 ، مرجع سابق، ص 177.

4- نفس المرجع ، ص 178-179.

الايطالية-العثمانية في عام 1911، وان ذلك كان بإذن من فرنسا. والواقع أنّ العديد المثقفين والمؤرخين الفرنسيين يتعمدون في كتاباتهم، إسقاط كل مبادرة وطنية في النهوض والترقي، مكرسين لقضية التدخل الخارجي في كل نشاط سياسي، ثم إنهم ينسبون كلّ ترقية أو تقدم إلى فضل فرنسا والحضارة الغربية، وكل انحطاط أو عنف أو تطرف إلى الجامعة الإسلامية والثقافة الشرقية بصفة عامة. والترقي أو التحضر بالنسبة لهؤلاء هو الاندماج والتجنس والخضوع... أما الانحطاط فهو عندهم المقاومة والتشبث بالقيم الحضارية الإسلامية.

2- نظرة على نشاط الأمير خالد الهاشمي:

وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها في سنة 1918م، بعد صراع مرير، واقتتال ضار بين مختلف أطراف النزاع، سواء المباشرة وغير المباشرة، وقد انتهت تلك الحرب المدمرة لمصلحة الحلفاء (فرنسا، بريطانيا، الولايات المتحدة الأمريكية...) وحلت الهزيمة بدول الوسط (ألمانيا، النمسا، الدولة العثمانية...)، غير أنّ النتائج التي تمخضت عنها الحرب كانت عميقة، خاصة على مستوى عالم الأفكار، ويمكن القول أنّ صورة العالم المعاصر، بدأت ترسم معالمها في تلك الحقبة التاريخية، وطبعت مساره لفترة طويلة من الزمن، ويقدر ما مثلت نقاط ولسون الأربعة عشر، قاعدة استندت عليها الشعوب المهتورة والخاضعة للاستعمار الغربي، في نضالها المير ضد الهيمنة والاستغلال، فقد مارست الحركة الشيوعية أيضا إيقاعها على الحركات التحررية الوليدة، كما أنّ التطور العلمي، واتساع نطاق الفكر البشري، وتطور وسائل الاتصال والتواصل، شكل بداية تراجع الظاهرة الاستعمارية التقليدية، أو على الأقل تغير أشكال الاستعمار، وفق المعطيات العالمية الجديدة.

حاولت فرنسا مسايرة تلك المستجدات بواسطة إصلاحات "كلمينسو"، تجسدت بإصدار قانون 4 فبراير 1919م، كمحاولة لتثمين الجهود الحربية للجزائريين ومكافئتهم على إخلاصهم ووفائهم لفرنسا خلال محنتها، غير أنّ القانون المذكور، لم يعبر بصدق عن آماني الشبان الجزائريين و"شكل ضربة قاسية للآمال التي علقوها على تضحياتهم الجسمية في الحرب"¹ من جهة، ولم يستسغه المعمرون من جهة أخرى، وبالتالي عرقلوا تنفيذه. فقد كان المعمرون يتجهون نحو الاستقلال بالجزائر واستنزافها، غاضبين الطرف عن محنة الأهالي المتفاقمة، وكان الاتجاه السائد يقوم على مزيدا من الاستعباد والقهر، باعتبار العنصر الأهلي غير قابل للتحضر، ولا يفهم سوى لغة القوة، ولا يخضع إلا لسلطة القهر، ومتى شعر بهامش من الحرية أو الشفقة فإنه سيتمرد على جلاديه، ويلحق الأذى بهم. وهي نظرة عنصرية

1- عبد الرحمان بن إبراهيم العقون: الكفاح القومي والسياسي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ج1، 1984، ص72.

مستوحاة من عقدة التفوق والاستعلاء، التي غلبت على الفكر الغربي فترة طويلة من الزمن، ولا تزال مظاهرها إلى الآن.

لكن ما لم يكن بمقدور المعتمدين فعله، هو اعتراض رياح التغيير التي بدأت تهب في كل مكان، وفي كل الاتجاهات، لقد ولّى زمن الصمت، فقد دبت في الجزائر الحركة، بظهور حركة الشبان أو "الجزائر الفتاة"، وإذا كان طابع المقاومة الجزائرية ضد الاحتلال في القرن التاسع عشر عسكريا، يقودها المرابطون والزعماء الدينيين والأعيان، فإن وسائل المقاومة الجديدة مع مطلع القرن العشرين، والتي تبلورت بعد الحرب العالمية الأولى، ستأخذ طابعا جديدا، هي المقاومة السياسية، وتعتبر حركة الأمير خالد انطلاقة لهذا النضال الجديد.

هو خالد بن الهاشمي بن الحاج عبد القادر، الأمير الذي اشتهر بلقب "الأمير خالد"، ولد بدمشق في 20 فبراير 1875م، أين قضى شبابه كله، رحل مع والده إلى الجزائر في عام 1892م. وقد أرسل على نفقة الحكومة الفرنسية إلى ثانوية "لويس لوقران" في باريس، ثم التحق بكلية "سان سير" saint syr الحربية في عام 1893م، وعاد إلى الجزائر في عام 1895م، قبل إتمام دراسته، وأشارت بعض التقارير السرية إلى أنه "كان سيء الطوية والتوايا إزاء فرنسا".¹ التحق ثانية بالكلية الحربية ليتخرج منها برتبة "ملازم" في الجيش، وأدى واجباته العسكرية في المغرب سنة 1907م، ورتقي إلى رتبة "قبطان" في سنة 1908م.

واعتبره المشير "ليوتي" أنه "عنصر شغب واضطراب"، وبين سنتي 1913 و 1919م، يبرز كأعظم شخصية في حركة الشبان الجزائريين، تطوّر للخدمة العسكرية في الحرب العالمية الأولى، ليعود إلى الجزائر في عام 1915، ليحال بعدها على التقاعد في سنة 1919م.

تعتبر شخصية الأمير خالد محورية في النضال الوطني في فترة ما بعد الحرب، والرجل سليل عائلة عريقة وشريفة، وهو يحمل شرف جدّه الحاج عبد القادر، زعيم المقاومة الوطنية ومؤسس الدولة

1- يعتبر تقرير السيد ج.فاسي (J.vassé) حول الأمير خالد من الوثائق الهامة التي تسلط بعض الضوء على الأمير خالد في المرحلة الثانوية والسانسيرية إذا صح التعبير. والتقرير إداري وسياسي موجه إلى الحاكم العام "جول كامبون" ويغطي الفترة من 1مارس 1893 إلى 5 أكتوبر 1895 حيث كلف السيد "ج. فاسي" بمرافقة الأمير والتكفل بمصالح العائلة. وكان يسجل ابسط الانطباعات حول سلوكيات أو أقوال أو تصرفات الأمير خالد، وخلاصة التقرير أن خالد لم تكن له رغبة بالانضمام إلى الجيش وإنما هي رغبة والده، كما انه لم يبدي أدنى احترام للعلم الفرنسي، وكان حسب التقرير يضمّر حقدا دفيناً لفرنسا. لا يتورع بإظهاره في مناسبات عدة، كما كان معتزاً بهويته وشخصيته، فكان يؤدي واجباته الدينية في غرفة خاصة كما كان يأكل من غذاء خاص حسب التقاليد الإسلامية، وكان يكره الظهور بالزي العسكري أمام قومه عند زيارته للجزائر... للمزيد انظر:

الجزائريّة الحديثة ، ثمّ أنّه رجل ذا ثقافة عالية باللّغتين ، واشتغل ضابط كبير في الجيش الفرنسي خلال الحرب العالميّة الأولى ، لقد هاله ما يزرع تحت وطأته قومه وبني وطنه، فقرّر العمل من اجل تغيير الأوضاع . لقد بيّن الدكتور جمال قنان، أنّ نضال الأمير خالد، اتخذ ثلاث جهات هامة، هي معركة التمثيل النيابي، وخوض غمار الانتخابات في المجالس المختلفة ، ومعركة الصحافة والقلم، بإنشاء جريدة "الإقدام" لتبليغ صوته إلى الجماهير الشّعبيّة ، إضافة إلى العمل مع القاعدة النضاليّة من خلال تأسيس جمعية "الأخوة الجزائريّة" مركزا على عنصر الاتحاد والتآلف بين الجزائريّين¹.

لقد نظر الأمير خالد إلى العمل الوطني من زاوية لم يفقهها الكثيرون، وهي زاوية في اعتقادنا كانت بليغة الأثر في إعطاء دفعا قويا لهذا النضال من جهة ، وخلقت تناقضات هائلة داخل البناء الاستعماري في حدّ ذاته ، لقد تذرّع بالديمقراطية الفرنسيّة التي طالما تبجّح بها الفرنسيّون ، مستغلا تلك المساحة الضيقة التي منحت للأهالي، في قانون 4 فبراير 1919 ، للمشاركة في الانتخابات وتمثيل مواطنيه (الأهالي)، والمشاركة في صنع القرار، وإسماع صوت الأهالي للسلطات العليا في باريس، والتي كثيرا ما تنصّلت من مسؤولياتها في عرقلة الأمور بالجزائر، وإلقاء التبعة على الحكام العامّون و غلاة المعمرين، لقد استطاع الأمير خالد من خلال نشاطه القصير بالجزائر في هذا الميدان بين (1919-1923) ، أن يجي فسيلة الوطنيّة الإسلاميّة، التي تعهّدها غيره بالرعاية من بعده ، كما جسّدت نجاحاته الباهرة في مختلف الاستحقاقات الانتخابيّة، سقوط نظرية الإدماج والفرنسة، وتهاوي أصحابها .

وقد لخص الأستاذ قنان ذلك بقوله:«إنّ هذه التّجربة التي خاضها خالد والمتمثّلة في الكفاح في إطار المؤسّسات التمثيليّة المحليّة، هي وان كانت تجربة فاشلة لم يتحقق منها إي مكسب ذي شأن للأهالي، ومع ذلك فهي تجربة جدّ مهمّة، ذات فائدة كبيرة، من زاوية تراكم الخبرة بالنسبة للكفاح الوطني في المراحل المقبلة.»²

لقد وجدت إدارة الاحتلال نفسها في حيرة من أمرها ، فقد كانت قوانينها وبالا عليها ، وانقلب السحر على السّاحر ، فالذين راهنت عليهم الإدارة من أعوانها أصيبوا بنكسة كبيرة ، واختارت الجماهير الهويّة والشخصيّة الإسلاميّة ، وهو أمر يدلّ في واقع الأمر، على نضج الأهالي وطليعتهم النضاليّة ، وإنّ

1- جمال قنان : الكفاح الوطني وردود فعل الاحتلال في الفترة بين الحربين (1919-1939) ، المصادر ، العدد 13 ،الجزائر السداسي

الأول 2006، ص22-23.

2- نفس المقال ،ص28.

ما يحتاجه الأهالي في المرحلة الزاهنة ليس بالضرورة "رجل الساعة" أو المهدي المنتظر"، ولكن قيادة واعية تتق فيها الجماهير، لتمارس دورها في التاريخ بكل فعالية .

لقد مثلت مسألة الهوية والشخصية العربية الإسلامية في الجزائر ، الشغل الشاغل على الصعيد السياسي خلال انتخابات سنة 1919م. ففي الوقت الذي كان فيه بعض الشبان الجزائريين، يرون أنّ التجنيس، هو السبيل الأمثل لنيل الحقوق وزيادة التمثيل بالنسبة للمسلمين، سواء كمنتخبين أو ناخبين ، كان خالد يرى غير ذلك ، فكان يدعو إلى التمسك بعناصر الهوية الوطنية ، ويرى أنّ الاندماج بواسطة التجنيس سيكون مرفوضاً من الأهالي والمعمرين على حد سواء.

ارتكز الأمير خالد على مبدأ الاعتصام بالإسلام ، فإذا كان النشاط السياسي التحرري، والتعبير عن الأماني القومية و الوطنية من الممنوعات حينها ، فإنّ الدين ومسألة الشخصية الإسلامية، كانا يفتحان له مجالاً رحباً للتعبير عنها بأسلوب مغاير ويؤدّي نفس الغرض، كما أنّه اتخذ من تسلط المعمرين سيلاً في نضاله الوطني، ومعارضته للاستعمار ككل لا يتجزأ في واقع الأمر. بمعنى انه كان يستعين بفرنسا الديمقراطية على فرنسا الكولونيالية ، وبحكومة باريس على حكام الجزائر ، وهو يعلم أن لا فرق بينهما، فكان مثلاً يلحّ في المطالبة بتجسيد الإلحاق الكامل، وهو في نظره سيحدّ من نفوذ المعمرين.

كان يدعو إلى انتخاب المسلمين ونبد "الكفرة" و "المرتدين"، كما كان يعتبر نفسه الحامي للدين والمناخ عنه ، ويرى أنّ رسالته هي استمراراً طبيعياً لنضال جدّه الحاج عبد القادر، فيقول لهم: "لا تنسوا أنّ آباءكم قد هبوا للنضال، لأول إشارة من جدّي الكريم."¹

وكانت حركة "الإخوة الجزائرية" التي أسسها في 23 جانفي 1922 م² ، تعبيراً صادقاً عن توجهه العربي الإسلامي، وقطية مع دعاة التجنيس و"لجنة الدفاع عن مصالح المسلمين"، التي كانت ظهرت قبل الحرب ، وفقدت مبررات وجودها ، بسبب خيبة الأمل تجاه الإصلاحات الهزيلة، والتنكر لتضحيات أزيد من 17.500 جزائري عملوا في صفوف القوات الفرنسية أثناء الحرب³.

لقد شنت الصحافة الاستعمارية (الكولونيالية)، حملة شرسة ضدّ الأمير خالد وأتباعه ، ورأوا في حركته مكن الخطر كلّ ، فوصفوها بالوطنية الإسلامية، والتعصب الإسلامي، وبالخطر القادم، كما اتهموه بالعلاقة مع الحركة الشيوعية العالمية و الأمية أو "الكومنتيرن".

-1 Mahfoud kaddache: I' émir Khaled ,op.cit, p29.

-2 Claude Collot,Le mouvement nationale algérien...op.cit.p30-31.

-3 ibid,p30.

أمّا خالد فكان يرى التّضال من زاوية توعيّة وتعليم الجماهير وترقيتها ، وهو مفهوم جديد في التحرّر ، يستهدف دفعها للعمل ، تحرّر يستهدف كسر قيود الجهل والاستكانة، قبل كسر قيود الاحتلال ، لذا ركّز في نشاطاته ومقالاته ومدخلاته المختلفة على مسألة تعليم أبناء الأهالي العلوم المختلفة واللغتين . أدرك الأمير خالد أنّ النشاط السياسي، لا بدّ أن يكتمل بنشاط إعلامي موازي، وهذا ما جعله يؤسّس جريدة "الإقدام" ، التي كانت تصدر باللغتين العربيّة والفرنسيّة ، وقد كانت النسخة الفرنسيّة تركّز على الشؤون الداخليّة، في حين كرست النشرة العربيّة للقضايا الداخليّة والخارجية على حد سواء ، وكانت الإقدام تتابع باهتمام مجريات الأوضاع في العالم العربي والإسلامي، كأحداث المشرق وتركيا والهند ، وساهمت في النقاش الدائر حول مسألة الخلافة الإسلاميّة آنذاك، وتبنّت موقف الحكومة التّركيّة، القائم على الفصل بين وظيفة الخلافة، التي هي رمز وحدة المسلمين، وبين وظيفة السّلطان، الذي هو رئيس السّلطة التّنفيذية لدولة تركيا ، وهذا قبل إلغاء الخلافة.¹

V- نماذج رائدة في الدّفاع عن قضايا الإسلام والعروبة:

1- خوالديّة صالح بن عمار:

يعتبر خوالديّة صالح بن عمار، احد الوجوه الجزائريّة البارزة المنضوية تحت لواء الجامعة الإسلاميّة، المناخفة بكل حزم عن القضايا التحرّرية، سواء على مستوى الجزائر أو الشمال الإفريقي والعالم الإسلاميّ عامة. ولد "بقلمة" في سنة 1879م، تعلّم في المدرسة الفرنسيّة بمسقط رأسه، ثم انتقل إلى قسنطينة لإكمال دراسته ، واشتغل مترجما . ونظرا لفظنته وذكاءه الحاد، كلفّ بمهام عدّة من طرف وزارة المستعمرات الفرنسيّة ، في "تمبكتو" (مالي) وموريتانيا بين سنتي 1900 و1903م. قدم خلالها دراسة عن الإسلام من الوجهة السياسيّة، ثم استدعي لمهمّة أخرى لمدة ثلاث سنوات، لكن حدث سوء تفاهم مع الحكومة العامّة، أفضى به إلى السّجن والتّغريم ، وتنكرت وزارة الخارجية له. اتجه على إثرها في عام 1906 م إلى تونس، حيث أصدر من هناك "نداء الثّورة" كرئيس لجمعية تعرف ب" اللّجنة المركزيّة للاتحاد الإسلامي" ، اضطرّ بعدها إلى الاتجاه نحو مصر ، أين نشر العديد من المقالات في صحافتها، كما سافر إلى المغرب الأقصى بغرض مناهضة فرنسا، لكن القي عليه القبض وحكم عليه بالنّفي ، فاتجه إلى طرابلس الغرب، ثمّ إلى الإسكندريّة، كبعوث من طرف السنوسيين ، شنّ حملة واسعة ضدّ

1- جمال قنان : الكفاح الوطني...، مقال سابق ، ص 55.

ألمانيا ومثلها في مصر السيد "ماكس فون أونهايم" Max Von Oppenheim. انتهى به الأمر إلى الاستقرار في دمشق.¹

عرف الخالدي بميوله الواضحة، تجاه الدولة العثمانية وحركة الجامعة الإسلامية، يتبين هذا من موقفه المعارض لفكرة القومية العربية، ففي رده على مقال "الثورة العربية"، الذي كتبه "نجيب عازوري" أحد أقطاب هذا الاتجاه في سنة 1905، اتهم خوالدية صاحب المقال بالعمالة لبريطانيا والتحرك لصالحها، معلنا أن مقر اللجنة العربية يوجد في وزارة الخارجية البريطانية، وأن تصرفات هذا الأخير تتم عن منافسته للسلطان في لقب الخلافة، وقال إن مسألة أحقية الترك بالخلافة، هو من شأن العلماء المسلمين، وليس من شأن رجل "مسيحي".

وأهاب في نهاية احتجاجه بإخوانه في شمال إفريقيا والهند وسائر بلاد المسلمين، إن لا يغتروا بدعاية "اللجنة العربية" لأن مبادئها ستؤدي بالمسلمين - في صورة الانسياق وراءها - إلى سقوطهم في هاوية سحيقة.² ومن هنا نستشف أن الفكرة القومية لم تجد لها أرضية صلبة في شمال إفريقيا.

كما يتبين تشبّع الخالدي بمبادئ الجامعة الإسلامية، جعلته يعتبر أنه "لا حلّ للمسلمين للخروج من المأزق الذي يتخبطون فيه، سوى النهوض من سباتهم العميق، والوقوف كرجل واحد ضدّ المحتلين".³ وقد كان رجلا عمليًا، حيث لجأ إلى التفاوض مع السنوسيين، الذين أيدوا خطة هيئة "الاتحاد الإسلامي" التي ينشط بها. ويبدو أن الجمعية المذكورة تتكون من عدة لجان فرعية، ولجنة مركزية يرأسها الخالدي. وذكرت المصادر شخصين آخرين هما "زكي باي" وهو الكاتب العام المساعد، و"الحاج العربي المكّوي" ويشغل مهمة مندوب اللجنة المركزية.⁴ كما يتبين أيضا أن إحدى نقاط الاختلاف بين أعضاء الجمعية هو الموقف من ألمانيا، إذ أن الخالدي كان يتحفظ على الدور الألماني، بل ويعارض تدخلها في قضايا المسلمين، أما فرضية أن تكون مواقفه نابعة من أغراض شخصية، أو رغبة في اعتلاء المناصب حسب الأستاذ العجيلي، فإنها في حدود اطلاعنا تبدو غير منطقية، ولا ندري كيف اقتنع بها عندما يقول، -بعد ما يستعرض خدمته السابقة لصالح الخارجية الفرنسية- "أن الرجل كان يطمح

1- حول سيرته وأعماله انظر: عمار هلال: مساهمة الخالدي صالح بن عمار في التعريف بالقضية الجزائرية مغربيا وعربيا

وإسلاميا فيما بين 1903-1906. مجلة الدراسات التاريخية، عدد 6 السنة 1992 الجزائر ص 147-155.

2 - التليلي العجيلي: صدى حركة الجامعة الإسلامية..... مرجع سابق، ص 116.

3 - د. عمار هلال: مساهمة الخالدي صالح بن عمار في التعريف بالقضية الجزائرية مغربيا وعربيا وإسلاميا فيما بين 1903-

1906، مجلة الدراسات التاريخية، عدد 6، الجزائر، 1992، ص 152.

4- العجيلي: مرجع سابق، نقلا عن مصادر بالأرشيف التونسي، ص 214.

في مكافأة على خدماته " وأنّ نداء الثّورة الذي أصدره " هو محاولة للفت الأنظار إليه، والحصول على المكافأة التي أوشك على نيلها.¹ علماً أنّ المقدمات التي انطلق منها، تشير إلى أنّ الرّجل كان حصيماً وليبياً، وهل من الحصافة أن ينتظر المــــرء جزاء من عدوه؟

ثم إنّ تصريحات الخالدي ونشاطه، توحى انه صاحب قضية، وداعية إسلامي نشيط وفعال، والاهمّ من هذا، فإذا كان يبحث فعلاً عن المنصب والمجد، فكان بإمكانه اختصار الطريق، بمائة الألمان والسيد "اوبنهايم"، وهم منافسو الفرنسيين الأشداء بالمنطقة، والمعروف أنّهم كانوا ينفقون بكلّ سخاء في سبيل دعايتهم، وكثيراً من الجمعيات المناوئة للفرنسيين كانت تقنت من عطاياهم.

وهاهو ذا يبرز موقفه من ألمانيا بكل وضوح، بقوله "في الوقت الذي ظننا فيه أنّ سياسة إمبراطور ألمانيا، كانت مساعدة لنا على تطور القوّة الإسلاميّة، تبين لكل ذي عينين أنّ المسلمين كانوا ضحيّة مغالطة، وتأكّدوا من أنّ ذلك الالتفات المفاجئ إليهم، وإنّ ذلك العطف المبالغت الذي غمرهم به الألمان على حين غرّة، لم يكن سوى فخاً فظاً احتوى حماسنا الوطني"². كما أكّد في موضع آخر أن لا صلة له بالألمان، وإنّ جمعيتهم مستقلة عن كل طرف، وأنّها تلتزم الصّراحة والإخلاص والشّريعة.³

2- الشيخ أحمد توفيق المدني:

يعتبر الشيخ أحمد توفيق المدني، من دعاة الجامعة الإسلاميّة، والمناصرين لقضية الخلافة، كما يعتبر نموذجاً رائداً للأخوّة الجزائريّة التونسيّة، لم يدخر جهداً في سبيل الدّفاع عن وحدة وتحرّر المغرب العربي، بفكره وقلمه، بنضال مستميت، لا يعرف الكلل.

ولد الشيخ أحمد توفيق المدني في 24 جمادى الثانية سنة 1317هـ الموافق للأول من نوفمبر سنة 1889 ميلادية، بتونس، من أبوين جزائريين مهاجرين. تلقّى تعليمه الأوّلي في الكتاب القرآني، لكنّه يذكر أنّ أكبر مدرسة صقلت مواهبه، وأثّرت في تكوينه، هي تلك المناقشات التي كانت تتمّ في بيت خاله (بويراز) فيقول: "هي المدرسة التي أنارت فكري وأيقظت أحاسيسي واستفزت عواطفني، وألقت بي في ميادين الحياة العامّة. أصول وأجول وأنتع تطوّراتها بكل اهتمام، واشعر أنّ إنقاذ الإسلام وإنقاذ الوطن إنما هو واجب حتمي"⁴. وكانت المناقشات الدائرة في بيت خاله، تتمحور أساساً حول فضائع الأعمال

362 - العجيلي: نفس المرجع، ص 214-215.

2 - نفسه، ص 216.

3 - نفسه، ص 218.

4 - المدني: حياة كفاح، ج 1، مصدر سابق، ص 24.

الاستعماريّة في الجزائر ، خاصّة وانه سليل عائلة مجاهدة كما يذكر ، شاركت في مقاومة الاحتلال الفرنسي منذ الأيام الأولى للحملة ، ثمّ بعد ذلك في ثورة "المقراني" الشهيرة في عام 1871م. لقد اظهر المدني منذ نعومة أظافره حقدا على الاستعمار الغربي عامة والفرنسي بشكل خاص ، ويعتقد أنّ جذور البلاء كلّها ناجمة عن مكائده وشروبه ، كما تنبّه أنّ الشّعوب الإسلاميّة، إنّما سقطت في شرك المستعمر بسبب الجهل وتفرق الكلمة ، وكان شعاره الآية الكريمة : "إنّ الله لا يغير ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم".¹ كما تأثّر كثيرا بجوادم العالم الإسلامي ونكباته ، ويربط ربطا عضويا بين أصقاع العالم الإسلامي جميعا، و كان يرى أنّ عزّة المسلمين مرهون بعزّ الخلافة العثمانيّة ومجدها ، وأنّها حامية حمى المسلمين، وضمان بيضة الإسلام وبقاء شوكته.

مثلت أحداث طرابلس الغرب في سنة 1911م، بالنسبة إليه، أوّل امتحان لأفكاره على صغر سنّه ، وقد أخذ في النّشاط من أجل جمع التبرعات للمجاهدين والدّعاية للعثمانيين ، كما شهد أحداث "مقبرة الزّلاج" و"الترامواي" ، التي كانت على حد قوله مؤامرة استعماريّة، لضرب الوطنيّة الإسلاميّة النّاشئة والنّشيطّة، وكان أكبر ضحاياها المناضل الكبير "علي باش حامية" ، الذي نفى من تونس ، ففقد الشّبان التّونسيون-حسبه- عقلهم المفكّر.

تأثّر المدني بصحافة عصره خاصّة الإسلاميّة منها ، مثل "التّونسي" و"الاتّحاد الإسلامي" ، وأخذ يكتب بعض المقالات التي نشرتها له جريدة "الفاروق" ، التي كان يشرف عليها عمر بن قدور في الجزائر، وقد سبق لنا الحديث عنها.² ويذكر المدني أنّ مقالاته بالفاروق كانت سببا في إغلاقها ، ونكبة صاحبها بالأخصّ مقاله الصادر بتاريخ 18 ديسمبر 1914م، وعنوانه " بين لجج الهواجس".³

لقد دفعه حماسه إلى التّخطيط للثّورة ضد فرنسا في كل من تونس والجزائر، وبالأخصّ في المناطق الشّرقية منها، مع ثلّة من أصحابه وخاصّته، مستغلّا فرصة الدّعاية العثمانيّة والألمانيّة، لمشجّعة على الثّورة والتمرد ضدّ فرنسا من جهة، ونقمة الأهالي في البلدين، بسبب إقدام السّلطات الفرنسيّة على تجنيد أبناءهم فيها. لكن السّلطات الاستعماريّة اكتشفت الأمر ، وألقت القبض على المدني ، وأودعته السجن ليملك به أربع سنوات، أي إلى نهاية الحرب العالميّة الأولى في سنة 1918م.

كانت مرحلة ما بعد الحرب وما ميّزها من تطوّرات، فرصة هامّة برز فيها نضال الشّيخ احمد توفيق المدني رفقة إخوانه الإصلاحيين في تونس ، أفضت إلى تأسيس الحزب الدّستوري الحر، والذي كان

1- سورة الرعد ، الآية ، 11.

2- انظر " نشأة الصحافة الوطنيّة " في مطلع هذا الفصل.

3- المدني: حياة كفاح ، المصدر نفسه، ص 164.

تحت قيادة الشيخ عبد العزيز الثعالبي الجزائري الأصل أيضا، و قد تولّى المدني مناصب قيادية هامة واضطلع بمهام عديدة في اطاره.¹ جعلته من رموز الحركة الوطنية في تونس في الفترة بين (1920-1925). كما كانت له أيضا اتصالات كثيفة، علمية وسياسية مع النخبة الإصلاحية الجزائرية، التي كانت تتكوّن بتونس، وتتأهّب للعمل في سبيل الإصلاح بالجزائر ، ويذكر منهم علماء ميزاب (الشيخ اطفيش ، وأبو اليقظان) كما أشاد بالشيخين الجليلين ابن باديس والإبراهيمي.

وتتميز في فترة العشرينيات بمقالاته المتعدّدة، في مختلف الجرائد التونسية والعربية حول قضايا العالم الإسلامي ، وأخذت مسألة إحياء الخلافة الإسلامية (العثمانية)، حيزا كبيرا من كتاباته واتّصالاته واهتماماته، بل إنه بادر في تونس إلى إنشاء "لجنة الخلافة"، ولم يتوان في مراسلة الخليفة العثماني عبد المجيد باسمها مرارا، معبرا له في كل مرّة عن تأييده للخلافة الإسلامية ومنوّها بدورها، وحاشدا للموقف التونسي والإسلامي في سبيل الذود عنها ، ضدّ المناوئين لعودتها عربا أو أترأكا على السواء. كما بيّن في عمله الرائد "تقويم المنصور" ، سبل إعادة مجد الخلافة الإسلامية ، وفق نظرة عصريّة .

¹ - لزيد من الاطلاع على نشاط الشيخ توفيق المدني السياسي بتونس ، انظر : احمد توفيق المدني، **حياة كفاح**، في تونس (1905 - 1925)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ج1، 1976.

الفصل الرابع

رد فعل السّطات الاستعمارية

I- سياسة فرنسا الدّينية:

- 1- فرض القيود الحرج.
- 2- مراقبة الزوايا والطرق الصوفية
- 3- محاولة فصل الجزائر عن العالم الإسلامي.
- 4-

II- سياسة فرنسا في مواجهة نشاط الجامعة الإسلامية في الجزائر:

- 1- محاولات الاحتواء
- 2- جهود التطويق والتنظيف.

III - احتدام المواجهة بين فرنسا والجامعة الإسلامية بين 1914-1924:

الفترة الحرب العالمية الأولى 1914-1918:

- 1- إعلان حالة الحصار.
 - 2- إعلان الحرب على تركيا.
 - 3- تشويه صورة الأتراك في أعين الجزائريين.
 - 4- العمل على توظيف رموز الدين الإسلامي.
- ب- فترة ما بعد الحرب 1918-1924:
- مواجهة الوطنيّة الناشئة.

I- سياسة فرنسا الدينية :

أشار المؤرخ الفرنسي " أجيرون " أنّ ما كان يهيم الإدارة الفرنسية من سياستها الدينية، أمور أساسية لخصها في التقاط التالية :

1- التّسريح أو المنع من أداء فريضة الحجّ، وإقامة الحفلات الدينية.

2- مراقبة الطّرق الدينية.

3- التقليل من الاتّصال بباقي بلدان العالم الإسلامي.¹

وقد عملت فرنسا بناء على ذلك بربط الأديان بالدولة في بادئ الأمر، ورغم أنّها أقرت فيما بعد، بفصل الدين عن الدولة، وطبّقته على المسيحيين واليهود على السّواء، فإنّ القانون استثنى الديانة الإسلامية منه، وهذا ما يفسّر تكرار هذا المطلب والإلحاح عليه في كلّ المناسبات، من طرف تيارات الحركة الوطنية فيما بعد، والتحكّم في السياسة الدينية (الإسلامية) تحديدا تجسّد في الجزائر بإنشاء السّلك الديني الرّسمي ، (le clergé musulman officiel). المرتبط بالإدارة الفرنسية ، وقد اضطلع بمهام الإشراف على أداء الشّعائر الدينية المختلفة ، من خلال تكوين الأئمّة والمفتيين والوعاظ وتوظيفهم ، إلّا أنّ السّلك الديني الرّسمي، لم يتمكّن من تحقيق تأثير حقيقي على النّاس، وكان النّاس يعدّونه صنيع الاستعمار، ومرتبطة بالحكومة، في وقت كان للزّوايا والطّرق الدينية على قلة إمكانيّاتها وضعف التكوين بها، نفوذا واسعا على الأهالي.²

1- فرض القيود على الحجّ :

وقد كان الحجّ إلى الأماكن المقدّسة بمكّة والمدينة المنورة، احد المواضيع الرئيسيّة التي طرحت للنقاش بالنّسبة لإدارة الاحتلال، ذلك أنّ التقارير التي يبيّنها القناصل والجواسيس في هذا الشّأن أشارت إلى خطورة هذه الشّعيرة الإسلامية على أمن المستعمرات ، فالأهالي خلال أدائهم للفريضة يتأثرون بأفكار الجامعة الإسلامية ويلتقون بدعاتها ، فهذا البريطاني " ريشاد بورتون " Richard burton يتنكّر في زيّ إسلامي وينبثّ في أوساط الحجيج في عام 1854. غايته استطلاع الأوضاع ، وكذلك فعل الهولندي " المعزّب سنوك هورقرونج " Snouck-hurgronje.³

1 - Ageron : les algériens musulmans t2, p 891.

2 - ibid, p 897.

3 - Sadek Sellam :la France et ses musulmans, op.cit, p157.

كما أوفدت فرنسا أيضا الضابط والجاسوس ،ليون روش Léon Roches* إلى الأماكن المقدسة بعد أن ادعى أنه أسلم وتسمى بعبد الله .وكانت غايته إصدار فتوى من علماء المسلمين بالزيتونة والأزهر وعلماء الحرم لتحريم الجهاد ، وكان المقصود هو إجهاد حركة المقاومة التي كان يقودها الأمير عبد القادر منذ بداية الاحتلال وإلى غاية منتصف القرن التاسع عشر، والذي كان مستشاره ولازمه لفترة من الزمن بغية تنفيذ مآربه ¹.

لقد كان الحكام العامون في الجزائر، يتبنون في الغالب سياسة متشددة تجاه الحج إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، وبالأخص في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، بفرض قوانين وتعليمات مجحفة، متبوعة بإجراءات صارمة ، يتم فيها انتقاء الحجاج وفق شروط دقيقة ، وكانوا يمنحون ذلك الامتياز للمقربين من الإدارة وحسب درجة الولاء ، مثل أعضاء السلك الديني الرسمي ، الأشراف و المرابطين المواليين للإدارة ، وآخرين تتم تركيبتهم وتكتب تقارير بشأنهم، وكثيرا ما كانت الإدارة تلجأ إلى منع الحج وفي مواسم عديدة وأحيانا متتالية، وتلجأ إلى اتخاذ مبررات واهية، ترتبط أساسا بالظروف الصحية ظاهريا، ولكنها سياسية في الواقع الصحيح، يغذيها الخوف من دعاية الجامعة الإسلامية ، إضافة إلى تأثير بعض الطرق الصوفية التي لا تأمن جانبها خاصة السنوسية ².

في عام 1880م ،أمر الحاكم "قريفني" Grévy ، بتقليص بعثات الحج إلى أقصى ما يمكن، لتفادي تأثر الحجاج، وانخراطهم في صفوف الحركات المناوئة للوجود الفرنسي في الجزائر وإفريقيا عامة. وبين عامي 1881 و1885م ، تقرّر التضييق والمنع من طرف الحاكم " تيرمان" L. tirman بالنظر إلى المشاريع التوسعية لكل من بريطانيا في مصر وفرنسا في تونس ، وسمح لعدد من الأعيان فقط بالحج في سنة 1886م، وكانت الغاية محاولة تحسين صورة الإدارة بعد سنوات من المنع، لكن ومنذ عام 1891م، وإلى غاية سنة 1898م، أي في خلال عهد الحاكم العام كومبون J.combon المشهور بسياسة التقارب تجاه المسلمين " politique des égards "، تتكرر إجراءات المنع والمراقبة، فقد منع ثلاث مواسم حج ،

* ليون روش، ولد في مدينة "غرونوبل" الفرنسية ، عام 1809م وتوفي بها سنة 1901، نال البكالوريا في سنة 1828م، التحق بابيه في الجزائر

للاشتغال بالفلاحة، انخرط في وسط الجزائريين وتعلم العربية وفقه كثيرا من تقاليد المسلمين، صار مترجما في الجيش الإفريقي، التحق بجيش

الأمير عبد القادر في 1837، بعد أن ادعى اعتناقه الإسلام ، حيث اطلع على أدق الأسرار وبيعها للفرنسيين، عاد للجيش الفرنسي بين

(1839-1844)، كما اضطلع بمهام سياسية في المغرب الأقصى، بين (1845-1847)، خاصة ما تعلق منها بمعاهدة لالة مغنية.

1 يوسف مناصرية: مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب (1832-1847)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، صص 21-34.

وفي سنة 1897، يتحجج بالحرب اليونانية -التركية، وفي عهده أيضا يتم إرسال بعثة دينية أخرى إلى البقاع المقدسة بعد بعثة روش السابقة ، أمّا بعثة "كورتيلمون" "Gervais-courtellement" بغرض استصدار فتوى من علماء الحرم.

لقد تقرّر المنع في مواسم عديدة بالأخص في مطلع القرن العشرين، أي منذ سنة 1900م. وكانت السلطات الفرنسية تلجأ إلى حجج واهية لتبرير قراراتها كما رأينا، كتفادي الأمراض مثل ما حدث في سنوات (1904-1900). أو لأسباب سياسية أحيانا كما حصل في سنة 1908م، اثر حوادث (عين التركي في 1901) ، بقرار من الحاكم العام "جونار". وكان عدد الحجّاج المسموح لهم بالذهاب قليل لم يتجاوز (1791حاجّا) في سنة 1909، بسبب الشّروط التعجيزيّة المفروضة. ثم أعيد تنفيذ قرار المنع والتّضييق في السنوات الموالية 1910، 1911، 1912. والواقع أنّ الصّحف المشرقية، شدّت حملة كبيرة على فرنسا، ممّا جعل القناصل الفرنسيين بالمشرق العربي ، يوجّهون نداءات متواصلة لحكومتهم لتفادي التصعيد، للضرر الذي لحق بسمعة فرنسا في العالم العربي من جرّاء ذلك.¹

خلال الحرب العالمية الأولى، شرعت فرنسا في محاولة إبراز نواياها الحسنة تجاه المسلمين، وبالأخص في الجزائر، إلى درجة اعتبارها سياسة دينية أو ما يسمى بفرنسا الإسلامية، بالتزامن مع التّجاذب والتنافس، على كسب ولاء المسلمين في المشرق والمغرب بينها وبين ألمانيا ، وعلى اثر التّوايا الحسنة التي أبداهها الألمان وإمبراطورهم تجاه العالم الإسلامي ، هذا الأخير الذي زار بلاد الشام وبيت المقدس، وصرح بأهميّة عالم الإسلام بالنسبة لألمانيا ، كما زار مدينة "طنجة" في سنة 1903م، وألحّ على ضرورة حماية استقلال المغرب الأقصى، كما أضحت مدينة برلين أثناء الحرب أيضا ،قبلة لدعاة الجامعة الإسلاميّة. والحقّ أن فرنسا وجدت نفسها في وضع صعب ، حيث لا مراجع أو مراكز إسلامية بارزة تستطيع الاعتماد عليها .

لقد لجأت فرنسا إلى مساندة الأمانى القوميّة العربيّة، مجسدة في التّوايا الانفصاليّة للشّريف حسين بن علي وأبناؤه بالحجاز ضدّ الأتراك، ومن انضوى تحت لوائهم من قادة الثّورة العربيّة الكبرى ، وكان ذلك بالتنسيق مع بريطانيا في هذا المجال، وفق عهود ومواثيق أهمّها، تلك التي تمّت بين الشّريف حسين ومكماهون البريطاني، وبسبب التّحالف بين العرب والحلفاء، أعطت فرنسا لسياستها الدّينية معنى ،مكتتها من سحب البساط من تحت أقدام الألمان والأتراك معا، في سبيل كسب ولاء رعاياها بالجزائر وشمال إفريقيا .

برزت سياسة فرنسا الدينية في الجزائر، من خلال مظاهر متعدّدة، استعانت بها لتحقيق أغراضها ، كما استعانت بالأعيان والمرابطين والسلك الديني الرسمي لوضعها موضع التنفيذ ، وصار الحديث عن أوقاف الأماكن المقدّسة بمكّة والمدينة المنورة ، فأنشأت لها مؤسّسة خاصة في سنة 1917م، أوكلت مهمّتها إلى قدّور بن غبريط، وصار هناك اهتمام واضح بالحجاج الجزائريين ، من خلال توفير كلّ وسائل الرّاحة لهم خلال مواسم الحجّ ، وتحسين الخدمات الاجتماعيّة كالإيواء والإطعام والسّفرة... وجاءت البعثة الفرنسية إلى البقاع المقدّسة بعد خروج العثمانيين منها ، لتعزّز تلك السياسة وتؤكّدها ، قاد السيد مصطفى الشّرشالي تلك البعثة، والتي ضمّت أعياناً من تونس والمغرب أيضاً، وسميت البعثة ب"بعثة التّقارب الفرنسي-الإسلامي " (mission de rapprochement franco-islamique).

وفي نفس الوقت صار الحديث واسعاً حول مشروع مسجد باريس ، وقد جاء في مجلة (إفريقيا الفرنسية) أنّ «الحكومة الفرنسيّة التي تتخذ سياسة صداقة ، ترغب في إضافة شاهد مادي ودائم لمشاعرها بتشييد مسجد باريس».¹

لقد صاحب قيام المشروع دعاية إعلامية واسعة، شملت الجزائر وبقية أنحاء العالم الإسلامي، وتركزت الدعاية على إبراز المزايا الفرنسية تجاه المسلمين، ومكونات المسجد، والذي يحتوي أيضاً على مدرسة وحمام وإقامة... لكن دعنا نقول إنّ كلّ تلك الرّوتوشات وحملات تزيين الواجحة ، والتي بهرت بها بعض العرب في المشرق لضعف البصيرة ، لم تنطوي على شيء بالنسبة للأهالي ، الذين ظلّوا على هامش الحضارة وخارج دائرة الضّوء، يتجرّعون ويلات الاستعمار ومآسيه، ولسان حالهم يقول ليتكم تعلمون بحالنا.

جاء في مقال "الأوغسطين برنارد" Augustin Bernard في مجلّة (إفريقيا الفرنسية) بعنوان : إفريقيا الشّمالية في نظر الإنجليزي ، والكاتب الإنجليزي صاحب المقال يدعى مالكوم سكوت Malcom Scott وقد نشر مقاله في "مجلّة العصر" أو المجلّة المعاصرة contemporary review يخصّ أعمال فرنسا في إفريقيا الشّمالية ، ويقول صاحب المقال أنّ فرنسا تواصل رسالة روما في المنطقة، من خلال عملها على إدماج الجزائر كمقاطعة فرنسية ، ولم يرد ذكر تونس والمغرب (على أساس أنها محميتان فقط) ، وهو يشيد بأعمال فرنسا مقارنة بالإنجليز في مصر ، ويذكر أنّ المستعمرة هادئة ، كما يشير إلى بعض القلاقل "بالأوراس" ، لكنه يقول أنها محلية ولا تحمل بصمات سياسية حسب رأيه ، لكنه في نفس الوقت

1 - Augustin Bernard: l'Afrique du nord vue par un Anglais, revue de l'Afrique française, no,6, juin 1921,p 139.

يشك في نجاح الإدماج ويقول أن الإسلام هو الحصن الروحي الكبير في مواجهة التغريب أو الاوربة (européanisation).¹

2-مراقبة الزوايا والطرق الصوفية:

شغل موضوع الطرق الدينية وعلاقتها بنشاطات الجامعة الإسلامية، حيزاً هاماً من تفكير واهتمام الطبقة السياسية والثقافية بفرنسا، بالأخص في أواخر القرن التاسع عشر، تزامناً مع تصاعد المواجهة بين القوى الأوربية الكبرى والدولة العثمانية المتهاوية، والتي بدا للجميع أنها دخلت مرحلة الحسم النهائي. والحقيقة أن الطرق الدينية لعبت أدواراً جد هامة في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، وهي التي ارتبط ظهورها بأزمة الضعف والانحطاط الروحي والمادي، كما أنها انتعشت في الفترة العثمانية ولعبت دوراً رائداً في قيادة أو توجيه ودعم المقاومة الوطنية المسلحة، منذ مقاومة الأمير عبد القادر، وهو ذاته كان من أبناء الطريقة القادرية، وله باع كبير في التصوف، ومن قراءة "مواقفه" ندرك ذلك بجلاء. ولا يخفى دور الرحمانيين في معظم مقاومات بلاد القبائل، وأكبرها مقاومة الحاج محمد المقراني، التي كانت فيها زاوية الشيخ الحداد معقلاً للتوار.

اندفع العديد من الكتاب والمخبرين والضباط والجواسيس من الغربيين، وخاصة الفرنسيين منهم، إلى دراسة ظاهرة الطرق الدينية من جوانبها المختلفة، سواء بدافع الفضول العلمي، أو بدوافع سياسية بإشراف الحكومة العامة بالجزائر، فقد أرسل "فيالا شارون" في 29 ماي 1845م، تعليمة ذات مغزى للجنرالات الثلاث قادة المجموعات يقول: «بالدراسة المتأنية للأسباب التي أدت إلى الانتفاضات المتعددة، التي كان علينا أن نحاربها، نجد أن السبب الرئيسي، هو التعصب الديني، الذي من السهل استثارته في شعب جاهل كالشعب العربي، ومستعد أيضاً لاحتضان كل ما من شأنه أن يناهض سيطرتنا عن طريق الحقد، الذي يغذيه عن المسيحيين».²

وبعد أن يدعو إلى دراسة عادات العرب وتقاليدهم، ووجوب الحيطة والحذر في التعامل والحكمة في التصرف مع العرب، بهدف الاستفادة بشكل جيد يضيف: «ومن أولى الألغاز الواجب اختراقها، هو اللغز الذي ما يزال حتى اليوم، يلف تنظيم الإخوان، الذي كنا نلاحظ دائماً، أنهم يلعبون الدور الرئيسي في الثورات التي كان علينا إخمادها...»³

-1 Bernard: l'Afrique du nord, vue par un Anglais, op.cit, p139

-2 ايڤون توران: المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة (1830-1880)، المدارس والممارسات الطبية والدين، تر: محمد عبد الكريم

أوزغلة، دار القصة للنشر، الجزائر، 2005، ص144.

-3 نفس المرجع والصفحة.

لقد وضعت الإدارة الاستعمارية إمكانات ضخمة وتسهيلات معتبرة، تحت تصرف المهتمين بموضوع الطرق الدينية، وكان هؤلاء أيضا، تحذوهم رغبة جامحة في اختراق تلك الحصون المنيعه، والكشف عن تفاصيلها الدقيقة، ووضعها تحت تصرف الإدارة الاستعمارية. (عددتها، طقوسها واسرارها، توجهاتها، مراكزها، مجالات نشاطاتها، أتباعها وكيفية تنظيمها....الح).

ويعتبر "لويس رين" من بين أهم المهتمين بالموضوع، وقد أصدر دراسة هامة بهذا الشأن في أواخر القرن التاسع عشر، بعنوان (المرابطون والإخوان) marabouts et khouans .

يذكر في مقدمة الكتاب، أنّ الطرق الدينية تمثل سدا منيعا أمام مشاريع التحديث التي تسعى إليها أوروبا منذ عقود، وأنها -أي الطرق- تعمل على إثارة الحماس الديني، وتقوية الروابط الروحية بين المسلمين، ويقول أنها تمكّنت من خلق جامعة إسلامية "un mouvement panislamique"، يمتدّ من جزر "السوند إلى الأطلسي" مشكّلا خطرا حقيقيا على الأمم الأوروبية ومصالحها في إفريقيا وآسيا.¹

كما أنها تمارس تأثيرا واسعا على الجماهير، وليس لها أوطان ولا تعترف بالحدود، ولها دعاة متجولون بين مراكز العالم الإسلامي المختلفة، (مكة، جغوب، اسطنبول، بغداد، فاس، تمبكتو، الجزائر، القاهرة، الخرطوم، زنجبار، كلكتا وجاوة).

وبعدما يسترسل في شرح النظام السياسي الإسلامي، القائم على الخلافة وطاعة ولي الأمر، وكيفية البيعة. يقول إنّ تلك الأسس (الولاء) هي التي تمثل صعوبة قيام حكمنا في الجزائر، وهو يشيد في آن واحد بمجهودات الفرنسيين في الفصل بين (القضاء والتعليم والدين)، وإخراج هذه الأركان الثلاثة من سلطة الزوايا والمرابطين ساهم في تحجيم دورها وتقليصه، ثم يتعرّض الكاتب إلى الفئات التي تضطلع بشؤون الدين في الجزائر، ويقسمها إلى ثلاث، وهي تمثل السلك الديني الرسمي، (الذي أوجده فرنسا) "le clergé musulman officiel". ويتكون من الأئمة والمفتيين ومعلمي القرآن....الح، من الموظفين الذين يتلقون روايتهم من الدولة، وخاضعين لتوجيهاتها، وهناك المرابطون، وهم أحرار يمارسون سلطتهم من خلال الزوايا والمساجد، ولهم نفوذ معتبر. ثم يضيف الإخوان، وهم أتباع الطرق، ويعتقد أنّ الفئة

Louis Rinn: *Marabouts et khouans , étude sur l'islam en Algérie*, Adolphe Jourdan, Alger 1884, (livre numérisé), p18¹

الأخيرة هي الأخطر، ويتوجب على السلطات مراقبتها، لأنها تتلقى تعاليمها من الخارج (اسطنبول، طرابلس، مكة، مصر).¹

ويعتبر كتاب الطرق الدينية الإسلامية: "Les confréries religieuses musulmanes" الذي قام بتأليفه اثنين من كبار المهتمين بالموضوع هما: اوكتاف دييون و كزافيي كوبلاني Octave Dupont et Xavier Coplani. من أهم الدراسات التي عالجت موضوع الطرق الدينية أيضا، صدرت الدراسة في فترة الحاکم العام "جول كومبون" الذي كان شديد الاهتمام بالموضوع، كما أنّ الكتاب صدر في فترة حرجة من الصراع الأوربي-الإسلامي، وعلى وقع انتصارات العثمانيين المدوية على اليونانيين عام 1897.

والكتاب عبارة عن عملية مسح حقيقي للطرق الدينية في العالم الإسلامي، مع تبيان أدق تفاصيلها، ومناطق تركزها، ويحتوي على وثائق وجداول حول عدد الأتباع وتطورهم. ويهمننا من الكتاب الفصل المتعلق بالنشاط السياسي للطرق الدينية، لقد استعرضنا في البداية لمحة عامة حول العمل السياسي للطرق الدينية في مراحل مختلفة من الزمن، ومن الأمثلة التي ساقاها وهي عديدة، حادثة مقتل ملك فرنسا "لويس التاسع"، عند عودته من حملة صليبية على بيت المقدس في إطار الحروب الصليبية، من قبل أتباع طريقة دينية، وكذلك حركة الدراويش في السودان، وتأثيرها على صد التوسع البريطاني في السودان، كما يشير إلى ازدياد نشاط الطرق بعد نجاح الحملة الفرنسية على الجزائر في سنة 1830.

ويسردان دورها الفاعل في المقاومات المسلحة منذ الأمير عبد القادر إلى ثورتي المقراني وبوعمامة وغيرها، ويلاحظان أنّ الطرق الدينية عبارة عن مجتمعات تعمل في الخفاء، وبأدوات سرية تعرف بالرسائل والرّموز، لا يفقه كمها إلا أصحابها، كما تطرّقا إلى فكرة "مول الساعة" أو "المهدي المنتظر" الذي ترقبه الجماهير لتخليصها من الظلم، ويؤكد الكاتبان أنّ لفكرة وقع كبير في أوساط الجماهير العريضة من الأمة، ويقدمان مثال على ذلك، بتأثير المهدي السكلاوي الذي ساهم بتأثيره الروحي الواسع، في تشجيع هجرة القبائل باتجاه سوريا منذ سنة 1847.²

ويؤكد الكاتبان أيضا أنّ الجزائر لم تكن في منأى عن التطورات الحاصلة في العالم الإسلامي، وبالذات في الإمبراطورية العثمانية، سواء عن طريق الزّوار أو المراسلات، علما أنّ الطرق الدينية لا تعترف بالحدود

1 - Louis Rinn : Marabouts et khouans , étude sur l'islam en Algérie , op.cit, p19.

2 - Dupont et Coplani: les confréries religieuses musulmanes , op.cit, p261.

الجغرافية ، بل تعتبر كلّ البلاد التي تدين بالإسلام وطنها ، كما أنّها هي في حدّ ذاتها، عبارة عن شبكة من الفروع المنتشرة، في أصقاع شتّى من البلاد الإسلامية ¹.

ويعزو المؤلفان نشاط الطّرق الدّينية في أواخر القرن التّاسع عشر إلى تشجيع السّلطان عبد الحميد الثّاني وأعوانه ، رغم أنّها لاحظا بعض الاختلاف في الغايات والوسائل، وحتى المصالح بين التيار الإصلاحية الذي ينتهج منهج الأفغاني وعبد ، وبين نظرة الطّرق الدّينية للأمر، ويعطيان مثلا من الخلاف الذي قام بين الأفغاني وأبو الهدى الصيادي شيخ الطّريقة الرّفاعية، الذي يتمتع بنفوذ واسع في بلاط السّلطان العثماني ². ويشيران الى الشيخ ظافر المدني، شيخ الطّريقة المدنيّة، والمقرّب من الشيخ أبو الهدى صاحب الطّريقة الرّفاعية ³.

وقد دأب الكاتبان على تهويل دور الطّرق الدّينيّة ، وإبراز علاقاتها الوطيدة بدعاة الجامعة الإسلاميّة، وخطورتها على السّيادة الفرنسيّة في الجزائر وشمال إفريقيا، بل وحتى إفريقيا جنوب الصّحراء، أين لاحظ أصحاب الدّراسة انتشار الإسلام بشكل غير مسبوق، بفضل نشاط الطّرق كالتيّجانية والسّنوسية والقادريّة. وقد كان للقادريّة على سبيل المثال ، نفوذ هائل وشبكات معتبرة في الجزائر، وبقيت على صلة مع بقيّة الزوايا الأخرى ، المنتشرة في المشرق، فقد كان احد أفراد عائلة الأمير عبد القادر مثلا، وهو الشّيخ محمد المرتضى ابن الشّيخ محمد السعيد، وهو الأخ الأكبر للأمير، وهو من أتباع حركة الجامعة الإسلاميّة المحتمين بالسلطة العثمانيّة على صلة بالجزائر، وله مراسلات مع الجزائريين، " فكان الفرنسيون يعتقدون أنّ هذه العلاقة ، إنّما هي سياسة تعمل على نشر فكرة الجامعة الإسلاميّة تحت غطاء التّصوف " ⁴ ونصحوا إدارة بلادهم بمراقبة نشاطاتها، والعمل على استئثارها واحتوائها، وقطع سبل الاتصال فيما بينها، وبين مراكزها أو قواعدها بالمشرق. والأهم هو إخراجها من دائرة التّأثير على التّاس، وهو الأسلوب الذي عمدت إليه السلطات الفرنسيّة في مطلع القرن العشرين على يد الحاكم العام "جونار"، بالانفتاح على الحركة الإصلاحية والتيارات الحديثة في العالم الإسلامي، وربما جاء التّرخيص لزيارة الشّيخ محمد عبده في هذا السّياق .

لكن ما من شكّ في أنّها -أي الطّرق الدّينية- قد لعبت دورا أساسيا في عرقلة النّشاط الاستعماري بإفريقيا ، ومن ابرز الطّرق وأخطرها السّنوسية حيث " كانت السّنوسية تقلق المستعمر الفرنسي

1- Dupont et Coplani : les confréries religieuses musulmanes, op.cit, p261. -1

2- ibid. ,p 261 - 262. -2

3- ibid. , p262. -3

4- سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، مرجع سابق، ص566.

بالجزائر وإفريقيا السوداء ، لاتخاذها الجهاد والتبشير وسيلة ، حتى أن فرنسا كانت تعتبرها العدو الأول في إفريقيا¹.

غير أن المستعرب "و. مارسى" وهو من خبراء الشؤون الإسلامية، ينتقد السيد "ديون" وصاحبه ومن هذا حذوها، حول مسألة دور وأهمية الطرق الدينية، وعلاقتها بالجامعة الإسلامية. و هو يقول أنه « لا بد من التوقف عن التفكير في هول "جامعة إسلامية"، تكون الطرق الدينية فيها القاعدة والمفتاح»².

ويرى أن الطرق الدينية صارت أشبه بديكور قديم مع مطلع القرن العشرين ، لا تقوى على التأثير، وفقدت مع الزمن بريقها وبركها في أوساط الجماهير، بتأثير التيارات الجديدة التي ألفت بضلالها على تفكير الأجيال الجديدة من المسلمين، كما أنها فشلت في الصمود أمام آلة القهر الاستعمارية من جهة، والإغراءات المادية من جهة ثانية، وهي الأساليب التي لجأت إليها فرنسا في سبيل ترويضها، يقول ش.أ.جوليان : « فقد تمكنت الحكومة الفرنسية من استجلاب الطريقة إلى جانبها ، فتمدها بالمساعدات وتحميتها »³.

والواقع أن التيار الطرقي قد فقد فعلا موقعه مع مطلع القرن العشرين ، بتأثير الأفكار الجديدة، لكن دعنا نستدرك فنقول أن بعض الطرق الدينية استطاعت أن تتأقلم مع المستجدات الجديدة كالسنوسية، ولدينا نموذج آخر يتمثل في شخصية الشيخ احمد بن عليوة شيخ الطريقة العليوية "بمستغانم"، الذي جال بالعالم الإسلامي وزار تركيا في 1908. لكنه ما لبث أن عاد واستهجن ما رآه من تفسخ أخلاق الشبان الأتراك حينها .

3-محاولة فصل الجزائر عن العالم الإسلامي:

مما لاشك فيه أن إحدى الغايات القصوى للاستعمار الفرنسي بالجزائر، كانت العمل على فصلها عن محيطها العربي والإسلامي، وتأكيد تبعيتها لفرنسا ، لقد أدرك الفرنسيون أن لا نجاح لسياستهم بالجزائر وإفريقيا عامة وتثبيت ملكهم بها، إلا بمحاربة الجامعة الإسلامية ودعوتها في كل مكان ، بالعمل على قطع وشائج الوحدة والتضامن بين المسلمين في جميع الأقطار.

لقد طبقت سلطات الاحتلال بالجزائر -بتوجيه من باريس-سياسة تهدف إلى قطع أوشاج الألفة والتضامن بين الجزائريين، وإخوانهم في المشرق العربي، والعالم الإسلامي عامة ، تجلّت في مظاهر عديدة

1- أنور الجندي : الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا ، الدار التونسية للطباعة والنشر ، تونس ، 1965، ص23.

2 - Ageron: les musulmans algériens....., t 2, op.cit., p 901.

411- جوليان : إفريقيا الشمالية تسير، مرجع سابق ، ص 27 .

، منها التّضييق على الهجرة الجزائرية باتجاه الديار الإسلامية ، وقد رأينا في فصل سابق الإجراءات المنتهجة في هذا المجال ، كما عملت أيضا على مراقبة الصحف العربية القادمة إلى الجزائر وغرلة مادتها ، والتضييق على المراسلات والزيارات والكتب، وكل أوجه الاتّصال ، وفرض القيود على الحجّ إلى الأماكن المقدسة، ومنع أداءه في العديد من المواسم بحجج مختلفة.

وبالإجمال فإنّ سلطات الاحتلال الفرنسي، كانت تعتبر أنّ الشّرق مصدر إزعاج لها في مستعمراتها بإفريقيا عامّة وفي الجزائر بشكل خاصّ، وكانت أسماء (الحجاز واسطنبول والقاهرة ودمشق وبغداد..) تثير حفيظة الفرنسيين وتقضّ مضاجعهم .

هناك حقائق تاريخية تکرّست عبر الزّمن في علاقات الشّمال الإفريقي بالشرق الإسلامي من جهة ، وإفريقيا جنوب الصحراء من جهة أخرى ، مفادها أنّ المنطقة المذكورة ظلّت دوما همزة الوصل بين عالم الإسلام في الشّرق من جهة ، والمسلمين في مختلف الأقطار الإفريقية، وبالأخصّ الجزء الغربي منها أو ما عرف تاريخيا ببلاد السودان ، أين صارت تمتد حدود الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية . لقد تکرّست تلك العلاقات عبر التاريخ، بواسطة الدّعاة، الذين كانوا يقومون بنشر الإسلام بين القبائل الإفريقية الوثنية، متحدّين جميع الصّعاب التي تواجههم، ومؤسّسين لحواضر إسلامية كانت إلى وقت قريب، منارات للعلم والمعرفة والهداية .

وفي نفس الوقت بواسطة التّجارة، التي شهدت ازدهارا كبيرا، وكانت وسيلة فعّالة في مد جسور الأخوة والدّعوة الإسلامية، حتى تغيّر طرق التّجارة العالمية، ودخول الاستعمار الغربي، الذي احتكرها وحوّل مساراتها، بعد جهود كبيرة قام بها المستكشفون الأوربيون منذ رونييه كاييه (René caille) في عام 1828، مرورا بعدد هائل من المستكشفين والرحّالة، نذكر منهم هنري بارث الألماني Henri Barth وهنري دوفرييه Henri Duveyrier وفلاترز Flatters الفرنسيين وغيرهم.

وقد اتخذت تلك البعثات صفة العلمية والأثرية شكلا ، التوسعية والتنصيرية مضمونا، وتزامنت مع الغايات الاقتصادية والتجارية كما أشرنا ، من خلال السيطرة على الثروات والتحكّم في النشاط التجاري.¹

1- إبراهيم مياسي، توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري (1881-1912)، منشورات متحف المجاهد ، الجزائر،

والواقع أنه بالرغم من مؤامرات الاستعمار الغربي ومناوراته، فقد إستمرت العلاقات بين مسلمي إفريقيا في جنوب الصحراء بإخوانهم في الشمال ، وقد لعبت الطرق الدينية دورا بارزا في استمرار تلك العلاقة ، فقد كانت لها قواعد وإتباع ومريدين في كل المنطقة .

حاول بعض المفكرين الغربيين تفسير حركة انتشار الإسلام الواسع في إفريقيا، وانتشار الطرق الصوفية بها، تفسيراً ينم عن احتقار وعنصرية ، فهم يزعمون أن السبب هو التآلف بين طبيعة الإسلام والعقلية الإفريقية، التي تلتنقي حسب زعمهم في نقاط مشتركة كالحمول والقدرية ... وأن عقيدة السنة والجماعة في إفريقيا الغربية مختلطة عند الأهالي مع عاداتهم القديمة ، ومع الأوضاع الفتيشية كالطلاسم والرتقي¹ ، كما يزعمون أيضا أن الرجل الأسود لا يميل إلى التدين إلا بما يحقق له الفائدة المادية المحسوسة ، وهي في الحقيقة كلها أفكار تناقض الحقائق على الأرض ، إن سبب انجذاب الأفارقة نحو الإسلام، يكمن في بساطة العقيدة الإسلامية وتلاؤمها مع الفطرة الإنسانية، إضافة إلى أخلاق الفاتحين والدعاة الذين كانوا مثلاً وقدوة . ثم إن الأفارقة قد ذاقوا الويلات من بطش الأوربيين خلال عهود الاستكشافات الجغرافية .

لقد بين لوشاتوليه "Le Chatelier" وهو أحد المستشرقين البارزين ، أن اللغة هي العامل الرئيسي في بسط سلطان فرنسا في إفريقيا بقوله: "يوم لا يبقى اللسان العربي هو لغة التجارة في إفريقيا ، لا يبقى خطر من جهة الإسلام، لأن مدارس تصير قفرة"².

انطلاقاً من هذه المعطيات لجأت فرنسا إلى تطبيق سياسة الفصل بين أفارقة الشمال وأفارقة الجنوب، خشية تأثير حركات الإصلاح والجامعة الإسلامية في تلك الربوع .

لقد جاء في مقال بحاضر العالم الإسلامي لكاتب فرنسي هو روجر لابون "Roger labonne" نقلاً عن مجلة باريس "Revue de paris" في عددها الأول بتاريخ (أفريل 1923) وتعليق الأمير شكيب ارسلان ما يوحي بالمخاوف التي أشرنا إليها فقال: "ومن المهم أن نعرف ما هو اعتقاد الجزائريين بالسنغاليين ، لأن هؤلاء في نظر أولئك ، هم القوة التي وكل إليها، توطيد السكنينة في شمال افريقية " ثم بيّن أن السنغاليين لا يلتزمون بالفرائض الدينية، وهم في صفوف الجيش ، كما أوصى بتعليمهم الفرنسية .

ويستطرد قائلاً : " ومما جرت عليه القيادة ، اجتناب تكتيب الكنائس ، على صورة يكون فيها العنصر الإسلامي غالباً ، فتجد السنغاليين مشتتين بين الجماعات الفتيشية والمسيحية ، وهاك على ذلك مثلاً:

1 ستودارد: حاضر العالم الإسلامي ، ج2 ، مصدر سابق ، ص 314.

2 نفس المصدر ، ج 2 ، ص 320.

في مدينة فيليب فيل (سكيكدة) بالجزائر يربط "الألاي" الخامس عشر السنغالي ، الذي عدده 1709 جنود ، فتجد فيه 542 مسلما ، و132 مسيحيا ، و1033 فتيشيا ، أو غير تابع لمذهب خاص.¹

ومن خلال هذا العرض ، يتضح جليا مدى إيمان تلك السياسة التعسفية ، في قطع الصلات بين الجزائريين وغيرهم من العرب والمسلمين أسيويين أو أفارقة ، وبالأخص في إفريقيا لأن تأثير الجزائريين على الأفارقة كان فاعلا ، لذا عملت على إلغاء الصلات التجارية والثقافية ، وراقبوا نشاط الطرق الصوفية وأتباعها ، كما شهدت الصحراء الإفريقية الكبرى وشواطئها ، تنافسا حادا بين المستكشفين الأوربيين ، وغالبا ما كان المبشرين المسيحيين ، هم الذين يفتحون الطريق ، ويمهدون السبيل للجيوش والتجار لإكمال المهمة ، فقد كان نشاط "الأب دي فوكو" "De Foucauld" ، واسعا في هذا الإطار.

لقد أورد المركز دي سيكونسك "Marquis de segonzac" في مقال له بمجلة إفريقيا الفرنسية في ذكرى مقتل الأب "دي فوكو" بعضا من مقالاته تخص التبشير والإدماج ، ومما نقله لنا عنه قوله « تفكيري هو أنه في حالة إذا لم ينتصر المسلمون التابعين لنا في شمال إفريقيا ، فإنه سينشأ بالتدريج اتجاه وطني مماثل لذلك القائم في تركيا ، نخبة مثقفة بالفرنسية ، تتكون بالمدن دون أن يكون لها أفكار أو ميول نحونا ، قادرة على توجيه الجماهير ضدنا ، والمشاعر الوطنية يمكنها أن تعبر عن نفسها في أي وقت ، وحالما تتعرض فرنسا لمشكل ما في الداخل أو في الخارج ، ستستعمل هذه النخبة الإسلام كغطاء من اجل إثارة الجماهير الجاهلة ضدنا ، وتبحث عن خلق (إمبراطورية إفريقية مسلمة مستقلة)².

II- سياسة فرنسا في مواجهة نشاط الجامعة الإسلامية في الجزائر:

مثل موضوع حركة الجامعة الإسلامية ونشاطاتها ، احد المواضيع الهامة التي ألفت بظلالها على السياسة الفرنسية الداخلية والخارجية لمدة طويلة من الزمن نسبيا ، وبالضبط منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى إلغاء الخلافة الإسلامية في سنة 1924م ، بل وامتد إلى ما بعد إلغاء الخلافة . وكان الانشغال منصبًا حول سبر أغوار هذه الحركة ، وفهم إستراتيجيتها الدعائية ، والأساليب التي تنتهجها ، والوسائل التي تستخدمها ، والأهداف التي تتوخاها ، أما الغاية من ذلك ، فهي من أجل العمل على انتقاء أنجع السبل لمواجهةها ، أو التقليل من تأثيرها على أقل تقدير ، سواء على أمن وسلامة مستعمراتها المنتشرة في إفريقيا واسيا ، أو على ضمان تحقيق أطماعها التوسعية الجديدة ، وبالأخص في البلاد العربية . ومن غير

1 - ستودارد: نفس المصدر ، ص 322-323 .

2 - Marquis de Segonzac , a la mémoire du père de foukould, revue de l'Afrique française ,no;11,nov1921. - 2

شكّ أن العديد من قرارات الدول الأوربيّة على الصعيد الخارجي، أملت عليها المخاوف من نشاطات الجامعة الإسلامية ودعاتها.

أما السؤال الذي يتبادر إلى ذهن الباحث، وهو في خضم دراسة موضوع كهذا هو: ما هي سياسة فرنسا المنتهجة تجاه الجامعة الإسلاميّة؟ وكيف كان رد فعلها تجاه نشاطاتها في العالم الإسلامي عامّة و في الجزائر تحديداً؟

ليس من السهل إيجاد إجابات دقيقة حول الموضوع، ذلك أنّ العديد من الوثائق التي تعالج البحث تعذر علينا الوصول إليها، لأنها متواجدة في خزائن الأرشيف الفرنسيّة، وبالذات في أكس اون بروفانس، غير أنّ هذا لم يثنيّا عن البحث، وألفينا مصادر عدة تنير الطّريق للبحث، وبالأخصّ بعض المصادر الفرنسيّة المتوفرة، والتي تابعت الموضوع بدقائه وتفصيله، من اجل إعطاء صورة كاملة للإدارة الفرنسيّة عن هذه الحركة، ومن أهمها مجلّة العالم الإسلامي، وإفريقيا الفرنسيّة، وصحف تلك المرحلة وبعض التّقارير.

لقد عكفت مصالح الشّؤون الأهلية في الجزائر، و منذ البداية على انجاز الدّراسات المتخصّصة، مستعينة بترسانة من الباحثين والخبرين، و تمّ رصد وسائل معتبرة وإمكانيات ضخمة، بغية دراسة الظّاهرة أو الفكرة، فكانت بحق "عبارة عن مخبر أو مرصد للأفكار" ويمكن بناء على هذه المقدّمة، أن تحديد ملامح تلك السّياسة في أمرين أو اجرائين هامّين حسب دراسة لأستاذنا أبو القاسم سعد الله هما:

1- محاولات الاحتواء.

2- جهود التطويق والتنظيف.

1-محاولات الاحتواء:

والواقع انه لم يكن هناك فواصل بين الاجرائين، إي بين محاولات الاحتواء من جهة وجهود التطويق من جهة أخرى. بل إنهما متلازمان ويستهدفان تحقيق نفس الغاية، لكن باختلاف الزمان والمكان، وطبيعة الظروف المحيطة، والآثار التي يمكن أن تترتب عن تطبيقها، لذلك فالعملية دقيقة، وتطلبت الاستعانة بالخبرة الواسعة في شؤون الأهالي وأمور الإسلام.

أما فيما يتعلق بالإجراء الأوّل، فإننا نلمسه في عدد من التّصرفات أو المواقف خلال محطّات تاريخيّة معيّنة، ففرنسا عملت دائماً على إبراز وجهها البراق أمام أبناء المستعمرات، وتحترس كثيراً من إثارة ردود أفعال قد تضرّ بسمعتها أو تهدّد وجودها، وتفعل غير ذلك في الخفاء أو بعيداً عن الأنظار على الأقل. لقد كانت مشاركتها في حرب "القرم" إلى جانب تركيا بين (1853-1856) ذات دلالة عميقة، حيث

جعلت من الحدث مناسبة هامة للدعاية في أوساط رعاياها الجزائريين، بحسن نواياها وشهامتها وخدمتها للخلافة العثمانية، والدود عنها ضد أعدائها المتربصين بها -وتخفي من وراء ذلك نواياها الحقيقية - وقد دشنت حملة واسعة النطاق لتجنيد الجزائريين، مكونة فرقا خاصة بهم، تحمل شعارات ورموز إسلامية، ثم وجهتها إلى جبهات القتال في البحر الأسود والأناضول. وقد أبلى الجزائريون فيها بلاءا حسنا أكدته المصادر التي عالجتها الفترة. والتي أبرزت ذلك التفاعل والاستماتة التي تميزوا بها .

كما أنّ المناسبة جاءت في ظرف تاريخي داخلي مشجّع، تمثل في ظهور سياسة المملكة العربية التي أعلن عنها نابليون الثالث في الجزائر وتحمّس لتطبيقها. كما تزامنت أيضا مع إطلاق سراح الأمير عبد القادر من سجن "لامبواز". بفرنسا، والسماح له بالذهاب إلى المشرق العربي، حيث يستقر به المقام في بلاد الشام .

وخلال ثمانينيات القرن التاسع عشر، و في إطار سياسة الاحتواء التي أشرنا إليها، عمدت إلى استقبال أساطين الجامعة الإسلامية، الشيوخ جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده على أرضها، بعد أن ضاقت بهما الأرض بما رحبت ، بسبب مطاردة بريطانيا لهما في كل مكان، تزامنا مع احتلالها مصر، واستمرار توسعها بالهند وشبه القارة الهندية ككل .

ألا يمكن اعتبار تلك الخطوة مؤشرا على محاولة احتواء هذا التيار؟ بلى ، وقد حققت من وراء ذلك بعض الأغراض الهامة منها ،عدم تعرّض مجلّة العروة الوثقى، لسان حال الجامعة الإسلامية للسياسة الفرنسية بسوء، وغض الطرف عن تصرفاتها التوسعية ، في مرحلة دشنت فيها احتلالها لتونس، وتواصل سياستها التعسفية في الجزائر.

كما أنها أفلحت في كسب ودّ، أو على الأقل صمت الإمام محمد عبده، بعد أن سمحت له -تحت الرقابة المشددة- بزيارة الجزائر-، وإعطاء دروسه وتعاليمه بها، المتلخّصة أساسا في، ضرورة مسالمة فرنسا والحذر من بطشها.¹ أمّا في مطلع القرن العشرين، وتزامنا مع نواياها الاستعمارية تجاه المغرب الأقصى، فقد فتحت المجال أمام الجزائريين، للتعبير عن تضامنهم الواسع مع إخوانهم بطرابلس الغرب، في محنتهم ضد العدوان الإيطالي. وينطبق عليها في هذه الحالة المثل الشهير "يقتل القليل ويمشي في جنازته". يقول الأستاذ أبو القاسم سعد الله تعليقا على ذلك :«لقد أرخت فرنسا قبضتها بعض الشيء على الجزائر، بمناسبة الحرب العثمانية-الإيطالية في ليبيا . ورخصت للجزائريين مساعدة الليبيين، بلجان

1- تفاصيل أوفى حول الزيارة في الفصل الثاني من البحث .

الهِلال الأحمر والتبرّعات. وشدّت الصّحافة حملة واسعة ضدّ إيطاليا»¹. وظهرت شخصية الحاكم العام "جونار" الذي صار محبوبا لدى فئات عريضة من الناس بسبب سياسته المتعاطفة مع الأهالي الجزائريين، وفتح المجال واسعا أمام ترقية الأهالي خاصة الأدبي منه، من خلال السماح بإنشاء الجمعيات والنوادي وإطلاق العنان للصحافة الأهلية، والحق أنّ انتعاش الحياة الثقافية للأهالي يعود أساسا إلى جهود هذا الحاكم، لكن الحكم على خدماته (الجليلة) يبقى نسبيا، ولا تكتمل الصورة إلا إذا وضعناها في سياقها التاريخي، أليس هو من منح صلاحيات واسعة للإداريين لقمع الأهالي؟، أم ليس هو من فرض قيودا واسعة على أداء فريضة الحج؟... ثم ألم تأتي تلك التسهيلات والكرم (الجوناري) في إطار سياسة عامّة وتوجّه جديد في فرنسا لاستمالة أبناء المستعمرات، في وقت برزت دول منافسة وتيارات تحرّرية؟... والواقع انه لا يمكن حصر كل مظاهر السياسة الفرنسيّة تجاه الجامعة الإسلاميّة، وخلال الحرب العالميّة الأولى تتكرّس سياسة الاحتواء بشكل جليّ.

2- جهود التطويق والتنظيف:

كما اتخذ رد الفعل الفرنسي تجاه الجامعة الإسلاميّة أيضا أساليب أخرى وأشكالا متعددة يمكن حصرها في:

- إصدار منشور جونار (صلاحيات للرسميين لمواجهة الدّعاية العثمانيّة، أو دعاية الجامعة الإسلاميّة) في سنة 1906، على اثر ثورة عين التّركي (مارغريت) في ضواحي مليانة.

- قامت السّلطات الفرنسيّة بطرد وفد قبرصي، كان يقوم-حسبها- بالدّعاية للجامعة الإسلاميّة في 1906 م، والذي يكون حظي بترحاب هائل في الجنوب الجزائري حسب الفرنسيين.

- قرار المنع من الحج، والذهاب إلى مكة في سنة 1908، والإجراءات المتبوعة بعد ذلك بانتقاء الحجّاج ومراقبة نشاطهم وتأطيرهم... الخ.

لقد اقترح احد الكتاب تشجيع التّزعة البربريّة في الجزائر، وخلق الانقسام بين أبناء الوطن الواحد، وفي رأي الكاتب أنّ البربر أقرب إلى تقبل أفكار الحضارة الغربيّة والاندماج فيها، هذا ما أدى إلى تشجيع ما عرف "بالسياسة البربريّة" "La politique berbère"² والتي ارتكزت على المسألة اللّغوية كمسألة جوهريّة، من خلال التّضييق على اللّسان العربي، ووقف انتشاره والعمل على تعويضه باللّسان الفرنسي.

1 سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج 2 ، ص 122 .

2 - نفسه، ص 123 .

يقول احد المختصين، وهو فكتور بيكي "Victor piquet" استنادا إلى رأي السيد ادmond دوتي "Édmond douté" « ليس لنا أدنى مصلحة أن ننشر بينهم اللغة العربية ، لغة الجامعة الإسلامية ، بل بالعكس .»¹

وقد أورد المؤرخ الفرنسي ش. راجيرون في كتابه "الجزائريين المسلمين وفرنسا" فصلا مستفيضا تطرّق فيه إلى خلفيات وتفاعلات السياسة البربرية أو "القبائلية" ، ويشير إلى أنها تعتبر وسيلة تهدف إلى إحداث التفرقة بين العنصرين السكّانيين الأساسيين في شمال إفريقيا . تعزّزت بشكل أكبر خلال أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، أي من سنة 1898 إلى 1918م، ولعب كل من "كامبون" و"لافياريار" دورا بارزا في ذلك.

يشير المؤرخ المذكور إلى الدور الكبير، الذي قام به (كميل ساباتيه) Camille Sabatier في دعم السياسة البربرية، وقد كان كبير مستشاري الحاكم العام لافياريار Laferrière ، حيث تمكّن بطريقة غير متوقّعة من فرض أفكاره في سنة 1898 .²

من ذلك فصل ممثلي القبائل والعرب عن بعضهم في مختلف المجالس وبالأخص مجالس الوفود الماليّة ، وقد لاحظ أنّ الفرنسيين منحوا الأفضلية في التمثيل للقبائل (6 نواب مقابل 700.000 نسمة)، في حين مثّل العرب (15 نائبا وكان عددهم 3.300.000 ن).

وأورد اجيرون مقتطف من جريدة لوتان le temps مؤرّخة في 28 أوت 1898 جاء فيه: "إنّ الحكمة الأكثر إلحاحا تقودنا إلى الإبقاء على الفوارق بل وتمييزها أكثر".³

لقد ارتكزت الجهود على إلغاء القضاء الإسلامي، وتحجيم دور الطّرق الدّينية والتعليم القرآني، والاهم محاربة العربيّة ومنع انتشارها. غير أنّ نتائج السياسة البربرية لم تحقّق النجاح⁴ ويعوزها الكتاب إلى معارضة المعمّرين لإدماج الأهالي على اختلاف أجناسهم وأعراقهم ، كما يعوزونها أيضا إلى أسباب ماديّة

1- د.عمار طالبي : ابن باديس ، حياته وأثاره، ج1، مرجع سابق، ص 50 .

2 - Ageron : les algériens musulmans et la France, t 2 , op.cit, p 873 .

3 - ibid, p 874 .

4- خلال دراستنا لموضوع تأثير السياسة البربرية أو القبائلية ، استوقفنا رأي الشيخ أبي يعلى الزواوي وموقفه من تلك السياسة ، حيث انه بدا موافقا لتلك السياسة وانساق لها ، ويظهر ذلك من خلال كتابه تاريخ زواوة حيث ابدى افتخاره بمنجزات فرنسا في فتح بلاد القبائل كما لام والده عن المشاركة في حرب عام 1871 . ويبدو حسب الدكتور سعد الله انه انساق وراء تيار السياسة البربرية ، لكنه في مرحلة لاحقة تنكر لتلك المواقف وانضم إلى جمعية العلماء منذ نشأتها.

انظر : سعد الله أبو القاسم: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ، ج2 ، ص 149 .

واقْتِصَادِيَّةٌ مِنْهَا (إِنَّ الْأَمَازِغِيَّيْنَ مُضْطَّرَّ إِلَى تَعَلُّمِ الْعَرَبِيَّةِ لِيَعِيشَ، لِأَنَّ الْعَرَبِيَّةَ، لُغَةُ التِّجَارَةِ وَالْأَمَازِغِيَّةِ مَحْدُودَةُ الْأَلْفَاظِ وَالْأَتْمَلِكُ مَقْوَمَاتُ التَّرْقِي فِي...).

لَقَدْ أَثْبَتَتِ التَّحْقِيقَاتُ الَّتِي قَامَ بِهَا مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْمُهْتَمِّينَ الْفَرَنْسِيِّينَ ، بِالْأَخْصِ اثْنَيْنِ مِنْهُمْ هُمَا "دُوتِي وَقُوتِييه Doute, Gautier سنة 1906 ، أَنَّ الْأَمَازِغِيَّةَ فِي تَرَاجَعٍ، رَغْمَ الْإِهْتِمَامِ الْمَوْلَى لَهَا ، اسْتِنَادًا إِلَى تَحْقِيقِ سَابِقٍ كَانَ أَعَدَّهُ "هَانُوتُو" فِي سَنَةِ 1859.¹

وَهَذَا مَا جَعَلَ ك.سَابَاتِي "يَعْتَرِفُ بِفَشَلِ السِّيَاسَةِ الْبَرَبَرِيَّةِ فِي تَحْقِيقِ أَهْدَافِهَا ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ التَّبَرِيرَاتِ الْمَقْدَمَةَ لَا تَرْقِي إِلَى تَحْلِيلِ دَقِيقِ لَفْشَلِ الْفَرَنْسِيِّينَ فِي سِيَاسَةِ فَرَقِ تَسَدِّ الَّتِي كَرَسُوها لِعُقُودٍ، وَتَتَحَاشَى تِلْكَ التَّحْقِيقَاتِ الْإِعْتِرَافَ بِقُوَّةِ الْإِسْلَامِ فِي صِيَانَةِ الْوَحْدَةِ بَيْنَ الْجَزَائِرِيِّينَ عَلَى اخْتِلَافِ عُنَاصِرِهِمْ فِي الْجَزَائِرِ، وَفِي غَيْرِهَا، وَكَذَا فِي دُورِ الْعَرَبِيَّةِ وَمُؤَسَّسَاتِهَا عَلَى تَعْزِيزِ تِلْكَ الْوَحْدَةِ وَتَمْيِيمِهَا.

لَا مَبَالِغَةَ فِي الْقَوْلِ أَنَّ فَرَنْسَا ظَلَّتْ عَلَى الدَّوَامِ مِنْ أَكْبَرِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ وَالْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَقَدْ أَكَّدَ هَذَا الْعَدِيدُ مِنَ الْبَاحِثِينَ وَالْمُفَكِّرِينَ، وَحَتَّى مِنْ بَعْضِ الْفَرَنْسِيِّينَ، الَّذِينَ ظَلُّوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ مَوَاجَهَةَ الْإِسْلَامِ، وَمُحَارَبَةَ الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، هِيَ مِنْ مَهَامِ فَرَنْسَا الْمَقْدَسَةِ فِي الْغَرْبِ كَكُلِّ.

كَمَا كَشَفَ عَنْ هَذَا أَيْضًا كِتَابُ وَمُفَكِّرُونَ عَرَبٌ وَمُسْلِمُونَ، وَمِنْهُمْ الشَّيْخُ رَشِيدُ رِضَا عَلَى أَعْمَدَةِ مَجَلَّةِ "الْمَنَارِ"، وَهِيَ الْمَجَلَّةُ الَّتِي كَانَتْ تَتَابَعُ مَا يَصْدُرُ عَنِ الْفَرَنْسِيِّينَ (مِنَ الْهَيْئَاتِ الرَّسْمِيَّةِ وَالْمُفَكِّرِينَ)، مِنْ تَصَرُّفَاتٍ أَوْ تَصْرِيحَاتٍ، وَتَرَدَّ عَلَيْهَا بِالْحُجَّةِ الْبَالِغَةِ .

لَقَدْ عَكَفَتْ "الْمَنَارُ" عَلَى رَدِّ افْتِرَاءَاتِ مَجَلَّةِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ، وَأَقْطَابِهَا مِنْ أَمْثَالِ "لُوشَاتُولِييه" وَ"هَانُوتُو" وَ"مَاسِينِيُون" وَغَيْرِهِمْ، وَالَّذِينَ مَا فَتَنُوا يَسِيئُونَ لِلْإِسْلَامِ، وَيَحْرُضُونَ الْأُمَّ الْغَرَبِيَّةَ عَلَى مَعَادَاتِهِ وَاجْتِنَاطِهِ مِنْ جُذُورِهِ، مَعْتَبِرِينَ أَنَّهُ أَكْبَرُ عَدُوِّ لِلْحَضَارَةِ الْحَدِيثَةِ وَلِلتَّقَدُّمِ.

غَيْرَ أَنَّهُ لَا بَدَّ مِنَ الْإِشَارَةِ إِلَى نَقْطَةِ ذَاتِ أَهْمِيَّةٍ، تَتَعَلَّقُ بِالْمَوْضُوعِ، وَهُوَ أَنَّ الْعَدِيدَ مِنَ الْكُتَّابِ وَالْمُفَكِّرِينَ الْغَرَبِيِّينَ ، كَانُوا يَتَعَمَّدُونَ تَضَخِيمَ الْأَحْدَاثِ وَالْمَبَالِغَةَ فِي إِبْرَازِ خَطُورَةِ حَرَكَةِ الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، عَلَى الْأُمَّ الْغَرَبِيَّةِ وَفَرَنْسَا بِالذَّاتِ ، هَذَا مِنْ جِهَةٍ، وَمِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ، فَإِنَّ الْحُكُومَاتِ الْغَرَبِيَّةَ، لَمْ تَتَوَرَّعْ فِي اسْتِغْلَالِ تِلْكَ التَّحْذِيرَاتِ، لِتَطْبِيقِ سِيَاسَاتٍ تَعَسُّفِيَّةٍ طَالَتْ الْجَمِيعَ بِلَا اسْتِثْنَاءٍ .

لَقَدْ جَاءَ فِي مَقَالٍ بِمَجَلَّةِ الْمَنَارِ تَحْتَ عُنْوَانِ: "آرَاءُ سَاسَةِ فَرَنْسَا فِي سِيَاسَتِهَا الْإِسْلَامِيَّةِ" إِنَّ مَسْلُومَ الْجَزَائِرِ، فَنُونِسَ، فَمَّرَاكَشَ، ابْتَلَوْا بِالدَّوْلَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ، وَكَانَتْ سِيرَتِهَا فِيهِمْ أَشَدَّ اسْتِبْدَادًا وَاسْتِعْبَادًا وَظُلْمًا مِنْ اسْتِعْمَارِ الْبَلْجِيَّةِ وَهَوْلَنْدَةَ ". وَنَعْتَقِدُ نَحْنُ هُنَا أَنَّ اسْتِعْمَارَ الْغَرْبِيِّ حَقَّقَ النَّجَاحَ، عَلَى مَسْتَوَى تَفْكِيرِ التَّخْبَةِ، وَانْطَوَتْ تِلْكَ الْمَغَالِطَاتُ الْاسْتِعْمَارِيَّةَ عَلَيْهَا، فَحِينَ يَصْرِّحُ رَجُلٌ فِي وَزْنِ الشَّيْخِ رَشِيدِ رِضَا ،

بأفضلية الاستعمار البريطاني على الفرنسي، تنتقل المعركة الحقيقية من الحكم على جرم الاستعمار ككل، إلى المقارنة بينهما حول الأسوء، وكان الظاهرة الاستعمارية شرّاً لا بدّ منه وعلينا اختيار اخفّ الشرّين. وتواصل المجلة مقالها بالقول، إنّ ولاة الأمر بفرنسا معتقدون أنّه لا يمكن إخضاع مسلمي شمال افريقية إلا بارتدادهم عن الإسلام، وتحوّلهم إلى النصرانية، ومن هنا عملت الحكومات على تشجيع التنصير أو على الأقل التستر على النشاط التبشيري. إضافة إلى ما تقوم به المدرسة من دور في هذا المجال تحت غطاء التعليم.¹

وفي مقال آخر تتساءل المجلة عن صحّة ما تقوله أوروبا عن الجامعة الإسلاميّة، وما تهوّه من خطرها المحدق، وتجب عن ذلك بقولها "إنّ المسلمون لو اجتمعوا باسم الدّين لمناهضة أوروبا، لا يكون اجتماعهم خطراً على المدنيّة كما يزعمون. ومن العجيب أنّ الأمم الأوربيّة التي تسوّغ لنفسها التّجمع، وحقّ الاستيلاء على الممالك الشّرقية، والقضاء على حياة المسلمين السياسيّة. لا تسوّغ للمسلمين الحرص على هذه الحياة، بأنّ يجموا بقوة الاجتماع والتآلف ذمارهم، ويصونوا من عبث العابثين استقلالهم، وأنّ ينادي ساستهم أنّ في وجود الجامعة الإسلاميّة خطراً على أوروبا".²

III - احتدام المواجهة بين فرنسا والجامعة الإسلاميّة بين 1914-1924:

أ- فترة الحرب العالميّة الأولى: (1914-1918):

1- إعلان حالة الحصار:

ما إن اندلعت الحرب العالميّة الأولى، في شهر أوت عام 1914م. حتى بادرت ألمانيا إلى قبلة مينائي عنابة وسكيكدة، بتاريخ 4 أوت 1914م، بواسطة طرادتين هما "غوبن" و"برسلاو". وكان هذا سببا كافيا للفرنسيين لإعلان حالة الحصار على كامل التراب الفرنسي. كما وجهت نداء للجزائريين تبين فيه أنّ ساعة الحسم قد حانت، وأنّ ألمانيا قد شنت عدوانها على فرنسا "المسالمة"، داعية إياهم للدّفاع عنها حتّى الموت، لأنّها إذا اندحرت - حسب زعمها - فإنّ الحضارة ستشهد تراجعاً بعدة قرون، مؤكّدة في الوقت نفسه ضرورة الالتزام بالهدوء، والامتناع عن كلّ ما من شأنه إثارة الاضطراب.⁴

1 - المنار : المجلد 31 ، الجزء 3 ، سبتمبر 1930 ، ص 219

2 - المنار: المجلد 10 الجزء 8 .

3 - Ali Merad : la turcophilie, p374, note 39 .

4 - العجيلي: صدى حركة الجامعة مرجع سابق ، ص 341 .

لقد بادر الحاكم العام شارل ليتو "Lutaud" ابتداء من 17 أوت 1914، إلى إصدار تعليمات تقضي بمنع دخول مختلف المنشورات والصحف العربية والأجنبية إلى الجزائر، وهذا كي لاتصل معلومات الحرب والأوضاع في جبهات القتال المختلفة إلى الأهالي، في حين ستتولى جريدتي "المبشر" و"الأخبار" الحكوميتين تغطية الأحداث، وتقديم ما هو ضروري لأسماع الناس، وكانت السلطات الاستعمارية قد قامت في سنة 1913م، بإصدار جريدة "فرنسا الإسلامية"، وفي سنة 1914 م، أصدرت جريدة "أخبار الحرب"¹ وانشأ الفرنسيون جرائد أخرى، عنيت بمواجهة الدعاية العثمانية -الألمانية قبيل وأثناء الحرب، منها "التصيحة" ل:قوسلان و"المغرب" بإشراف مطبعة فونتانة، والقسم العربي من جريدة "الأخبار" و"فرنسا الإسلامية" و"أخبار الحرب" تحت إشراف "جان ميرانت، ثم كوكب إفريقيا ل:محمود كحول، وكان السيد لوسيان مدير الشؤون الأهلية يسافر إلى المشرق، ويطلع على الأحوال هناك، ويبعث التقارير حول المرأة والتعليم... الخ.² وقد تركزت الضغوط والحجز على الجرائد التركية، خاصة جريدة "الشباب التركي"، التي كانت تنشر -حسب الفرنسيين- معلومات مغرضة، وأبناء كاذبة عن الحرب، تستقيها من وكالة "فولف" الألمانية.³

ولم تكف فرنسا بعملها الدعائي في الجزائر، بل وقامت أيضا عند اندلاع الحرب بشن حملة دعائية كبيرة في أوساط المهاجرين، وتحديد العمال في المصانع الفرنسية .

لقد وجه وزير الداخلية الفرنسي، تعليمة إلى الولاة بفرنسا يذكرهم، بضرورة المعاملة الحسنة للعمال الجزائريين، فقال " إنَّ جهودنا لا بد أن تنصبَّ حول الانطباع الذي يحمله العمال الجزائريين، وهم يغادرون فرنسا باتجاه الجزائر(أكبر مستعمراتنا الإفريقية)⁴ .

كما شجعت السلطات الفرنسية أيضا هجرة العمال باتجاهها، لتعويض نقص العمالة بسبب التجنيد والتعبئة العامة .وبالموازاة مع ذلك بذلت جهودا معتبرة لتحسين ظروف المجندين المسلمين بالأراضي الفرنسية. فقامت بإنشاء مساجد لاقامة الصلاة، و فنادق لتحسين ظروف الإيواء، ومارست في المقابل دعاية واسعة ضدَّ الألمان والعثمانيين .

1- سعد الله : الحركة الوطنية ج.2، مرجع سابق،ص261.

2- سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي ،ج5 ، مرجع سابق ،ص 341.

3- نفس المرجع ، ص 342 .

4 - . Sellam : la France et ses musulmans,op.cit, p185 .

شكل الحصار المفروض على الجزائريين خلال الحرب ، سببا لنقمة الأهالي، ومصدرا لاحتجاجهم. وقد جاء في معلقة أُلصقت بالجامع الكبير بالعاصمة «.....نعيش في زمن الصّمت المفروض، فكلّ من يكذب يقع تأييده، في حين أنّ من يقول الحقيقة يكون مصيره الموت....¹»

والحقيقة أنّ السّلاطات الفرنسية بأجهزتها المختلفة والنّشيطّة، نفّنت في كتم أنفاس الجزائريين، وعزلهم عن كلّ ما يحيط بهم، كما ضيّقت سبل التّوجه إلى الأماكن المقدّسة لأداء مناسك الحجّ، وحاولت منع العائدين أو عرقلة عودة الذين كانوا قد قضوا مناسكهم في تلك السنة. (أواخر أكتوبر وبداية نوفمبر من سنة 1914م). ولم تأذن للجزائريين بالحجّ في موسم عام 1915م. ولم تسمح بذلك حتى نجاح ثورة الشّريف حسين في عام 1916م.

2- إعلان الحرب على تركيا :

قطعت فرنسا علاقاتها الدبلوماسية مع تركيا في الخامس من نوفمبر سنة 1914. ثم أعلنت الحرب عليها، وقد وجدت صعوبات كبيرة في إقناع الرّأي العام العربي والإسلامي ومنه الجزائري طبعاً، بإعلان الحرب على تركيا، أو دار الخلافة الإسلاميّة، فبادرت إلى انتهاج أساليب المكر والتّغليط منها:

1- حاولت أن تبين أن الحرب التي تخوضها غير موجّهة ضدّ الإسلام، ولا حتى ضدّ خليفة المسلمين أو الإمبراطورية العثمانيّة. التي تربطها معها -حسبها- علاقات تاريخيّة عريقة وصدّاقة تقليديّة متينة، ولكن موجّهة حسب زعمها ضدّ مستأجري ألمانيا، والذين من أجل مصالحهم الشّخصية خانوا تركيا وخانوا الإسلام.²

وحرصت في بياناتها وتصريحاتها على الفصل بين الحكومة التّركيّة المتورّطة معها في الحرب من جهة، و"الشّعب التّركي الصّديق والمسلم من جهة أخرى ؟؟؟ وركّزت في دعايتها على خطورة التّحالف بين الحكومة التّركيّة وألمانيا، معتبرة أنّ ذلك من شأنه الإضرار بمصلحة الإسلام.³

أوضحت الحكومة العامّة في بياناتها التي وجهتها للجزائريين أيضاً، أنّ الحرب الدائرة لا تشكل مواجّهة بين فرنسا والإسلام أو حكومة إسلاميّة، مؤكّدة أنّ "فحّا نصب للإسلام، ولا بدّ من إحباطه، وأنّها لن تنتقم إلاّ من الألمان والمتواطئين معهم..، وقالت إنّ الطّموحات الشّخصية لبعض الشّبان الأتراك -الصّاربيين بعرض الحائط بكلّ المشاعر الإسلاميّة - هم الذين أجازوا في ظلّ الهلال جرائم ألمانيا....إنّ فرنسا تحبّ الشّعب التّركي، وتبغض قيصر ألمانيا، وتعمل جاهدة على دحر قوّته الجهنميّة".

1 - Ageron: les musulmans algériens et la France .op.cit, p 1183, note 1.

2 - العجيلي : مرجع سابق، ص 243 .

3 - Ali Merad: la turcophilie, op.cit, p 347.

لقد اعتبر البيان المذكور أنّ تورّط الدّولة العثمانيّة في الحرب، "مغامرة مأساويّة" من طرف الشّيطان الجرمانى.¹

وقد ذهب ليتو "Lutaud" إلى درجة الاستشهاد بأقوال النّبي ﷺ بعد تزويرها، كقوله: "إنّ الله لا يحبّ الخونة"، وهو الذي عرف بأفكاره العنصرية- "فقد كان يؤمن إيمانا عميقا بانتصار الحضارة الغربية على الحضارة الإسلاميّة".² وكان يستجدي الجزائريين، واستنكر استغلال العثمانيين والألمان للعواطف الدّينية للجزائريين. ولم يتورّع المعمرّون، عن فتح حملة تآخي مع الجزائريين، بسبب ظروف الحرب، وقد أعلن شيخ بلدية الجزائر العاصمة الفرنسي، خلال الشّهور الأولى للحرب أنّ "هناك بيننا، نحن الكولون، وبين مسلمي شمال إفريقيا علاقات وثيقة، كونها أولا تدريجيا، وتأكيد المصالح المشتركة، ثمّ منذ بداية الحرب، أصبحت بيننا وبينهم أخوة مؤثّرة خلقت في ميدان المعركة، في وجه عدوّ مشترك".³

كما تولّى المفكّرون والكتّاب أمثال: "بيرنار" و"ميليا" و"ديبارمي". وغيرهم مواجهة الدّعاية الألمانيّة والعثمانيّة بكتاباتهم وأطروحاتهم المختلفة، ومحاولين إبراز ولاء الجزائريين لفرنسا، وتفنيد ما تنشره تلك الدّعاية خاصّة فيما يتعلّق بثورة الأمير عبد المالك بالمغرب. كما عملت السّلطات الفرنسيّة على استعراض عضلاتها أمام الأهالي، عندما أقدمت على نقل بعض الأسرى الألمان إلى الجزائر والمغرب، كان الغرض منه، ترهيب كلّ من تسوّّل له نفسه، الاستخفاف بفرنسا وقوّتها الرّهيبية.⁴

2- في الوقت الذي صرّحت فيه بمزاعمها السّابقة الذّكر، فيما يتعلّق بإعلان الحرب وتحديد المسؤوليات فيها، حرصت على تعزيز علاقات الصّداقة والأخوة، مع رعايا الدّولة العثمانيّة في مستعمراتها، وأصدرت تعليمات بالمعاملة الحسنة تجاههم، إلاّ أولئك الذين يقومون بأنشطة معادية لها. مع دعوة الرّعايا العثمانيين للتّوجه إلى مقرّات شيخ المدينة، أو مفوض الشّركة، لمدهم بالإجراءات الصّوريّة لتسوية وضعياتهم وممارسة أنشطتهم.⁵

والواقع أنّ التّراخي العام الجزائري، وعلى الرغم من تردّي أوضاعه الاجتماعيّة والثقافيّة، فإنّه كان واعيا بالمؤامرة التي تحيكها الدّول الأوربيّة، وعلى رأسها فرنسا، بغية إضعاف الدّولة العثمانيّة وتقويض بيت الخلافة الإسلاميّة، كما كان مدركا للأسباب والخلفيات الكامنة وراء ذلك، سواء ما تعلّق بالأطماع

1 - Ali Merad: *la turcophilie*, op.cit, p 347.

2- د.شاوش حباسي: من مظاهر الروح الصليبيية للاستعمار الفرنسي بالجزائر، 1830-1962، دار هومة، الجزائر، 1998، ص 37.

3- سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج 2، مرجع سابق، ص 264.

4 - نفس المرجع، ص 265.

5 - Merad, *Ibid*, p 347-348.

الاستعمارية أو الأحقاد التاريخية، أو الأطماع الصهيونية في فلسطين، وقد رأينا سابقا كتابات عمر بن قنبر في الفاروق، وكذلك ماكتبه عمر راسم بهذا الشأن، كما أنّ الجزائري الذي صقلته الأحداث تعلّم منذ بداية الاحتلال، أنّ الخير لا يرجى من الفرنسيين. وأنّ نصائحهم ينبغي أن تغلب، لتأكيد صحّتها في الغالب.

ومن هنا فقد كانت الدعاية الفرنسية مفهومة في مغزاها، فكيف يثق الجزائريين مثلا في إقدام فرنسا على بناء مساجد للجنود الجزائريين على الجبهة الأوربية، وتعيّن لهم من يومّ بهم الصلاة..؟¹ وهي التي كانت تغلق المساجد دونهم، وتنتهك حرمتها، وتحوّل من تشاء منها إلى كنائس أو مخازن..، وتنفى العلماء والمفتيين. ولم يتوقّف الأمر على بالنسبة للجزائريين لإدراك نوايا الاستعمار فحسب، ولكن حاول البعض ترجمته إلى انتفاضات أو ثورات محلية ضدها-وان كانت محلية ومحدودة-، منها ثورة بني شقران بنواحي معسكر في سنة 1914م، كردّ فعل على الإجراءات الفرنسية القاضية بتجنيد الجزائريين في الحرب. وكذا ثورة الاوراس في سنة 1916م²، كما أورد الأستاذ عمار هلال استنادا إلى وثائق فرنسية قلاقل قامت بمنطقة سوف، بتحريض من الشيخ عبد العزيز بن محمد بن الهاشمي ضد سلطات الاحتلال بالمنطقة³، وشكلت أحداث "الهقار" هلعاً لدى الفرنسيين.

لقد كانت مرحلة الحرب العالمية الأولى، ميدانا حقيقيا للصراع سواء على جبهات القتال المختلفة في الشرق والغرب، أو على صعيد المجابهة الفكرية والمنافسة الإعلامية، واتّضح للأطراف المتصارعة أهمية الدعاية الإعلامية في صنع النصر، خاصة بعد ظهور وسائل إعلام جديدة، ومتطورة، ساهمت في سرعة انتقال الأخبار، مثل وكالات الأنباء والصحف والراديو، وقد انتقلت تلك الوسائل حتى إلى ميادين القتال، وجبهات المعارك بغرض تصوير الأحداث بشكل دقيق، ونقل الصورة الصحيحة، أو المرجوة، ومنها قصة صحفي فرنسي على جبهة الدردنيل، والذي يروي تفاصيل هامة حول سير المعارك، والإنزال، وحجم الخسائر، والأمراض⁴... وقد كان للخصمين المتصارعين ترسانة هامة من الوسائل الدعائية.

كما ينبغي الإشارة إلى دور اليهود والصهيونية العالمية في توجيه الرأي العام، خدمة لأغراض مشروعهم القومي، الذي عبّروا عنه في "بازل" سنة 1897.

1 - سعد الله : الحركة الوطنية ، ج2، مرجع سابق ، ص 261 .

2 - شارل روبير اجيرون : الاضطرابات الثورية في الاوراس ، (نوفمبر 1916-يناير 1917)، الأصالة، نوفمبر 1978، ص

3 - د.عمار هلال : الشيخ عبد العزيز بن محمد الهاشمي ، مواقف من السياسة الاستعمارية وحركة الإصلاح بمناطق وادي

سوف ، الثقافة، العدد 95 ، سبتمبر-أكتوبر 1986، الجزائر، ص

4 - Laurent Moreau ,A bord du cuirassé "GAULOIS", «Dardanelles-Salonique,1915-1916»,Payot ,paris,1930. -4

ولاشك أنّ الحركة الصهيونية قد عملت على ترجيح كفة الحلفاء في الحرب، بفضل التقوّد المادّي الهائل الذي كانت تتمتع به الحركة، والتي تلقت مقابل ذلك وعودا صريحة من طرف بريطانيا، بإقامة الوطن القومي لهم بفلسطين. وأهمها وعد "بلفور" في الثاني من نوفمبر سنة 1917م.¹ علما أنّ الفرنسيين، كانوا قد قدموا وعدا مماثلا لليهود، من طرف جول كامبون². وفي الوقت ذاته عملوا على تقويض المجهود الحربي لدول الوسط بداية بالدولة العثمانيّة.

لقد نجح الجاسوس البريطاني "لورانس" العربي، كما يلقّب في تأليب العرب المنضوين، تحت لواء الشّريف حسين وأبناءه، على الدّولة العثمانيّة، الذين تمكّنت قوّاتهم من إخراج الأتراك العثمانيين من البلاد العربيّة تمهيدا لتسليمها للحلفاء، بعد سلسلة من المؤامرات والمناورات الفرنسيّة-البريطانيّة. وأهمها اتّفاق "سايكس-بيكو" السّري بين فرنسا وبريطانيا في سنة 1916م.

تنقّست فرنسا الصّعداء بنجاح الشّريف حسين سنة 1916، في دحر العثمانيين، وكان ذلك يعني نصرا على الجامعة الإسلاميّة ودعايتها في الجزائر. خاصّة على الحجاج الجزائريين، وقد أوفدت فرنسا بعثة دبلوماسية دعائيّة إلى الشّريف حسين لتنهئته، كان الهدف منها أيضا حشد مزيدا من التأييد العربي ضدّ الدّولة العثمانيّة، وقد ضمّت البعثة ستمائة وخمسون حاجا (650)، من إفريقيا الشماليّة، الذين تمّ اختيارهم بعناية من بين الشّخصيات الموالية لها والأعيان، محمّلة بالهدايا للشّريف حسين ولعائلته، باسم الحكومة الفرنسيّة.³ وقد عيّنت فرنسا على رأس الوفد دبلوماسيا جزائريا، أي من الأهالي لتمثيل السّلطات الفرنسيّة، هو الكولونيل "قاضي". وكانت الغاية من ذلك البرهنة على الاهتمام الذي توليه للجزائر أمام المشاركة، وإعطاء الانطباع المناسب حول سياستها الإسلاميّة. وقد حقّقت النّجاح فيما يتعلّق بمواجهة الدعاية الألمانيّة.⁴

3- تشويه صورة الأتراك في أعين الجزائريين :

عملت فرنسا على الحدّ من تأثير الدّعاية التّركيّة والألمانيّة على مستعمراتها، بجملة دعائيّة منّظمة ومدروسة، اعتمدت بالأساس على تشويه صورة الإنسان التّركي، في أذهان الجزائريين والعرب عامّة، ذلك أنّه إذا تمكّنت فرنسا من إقناع بعض العرب، فلائّه كانت هناك سوابق، ساهمت في تحقيق الهدف

1 - د. عبد الله التّل : خطر اليهودية العالميّة على الإسلام والمسيحيّة ، قصر الكتاب، البليدة، الجزائر، 1989، ص 234.

2- سعد الله: بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، مرجع سابق، ص 448-462.

3- سعد الله : الحركة الوطنية، ج2، مرجع سابق، ص 269.

4 - نفسه، ص 270.

وبلوغ الغاية، لكن الأمر بالنسبة للجزائريين مختلف، بحكم العلاقات الطيبة والمودّة التي جمعت الشعبين على مرّ التاريخ، ولا يزال صداها في ذاكرة الناس، فكان الأمر يتطلب جهدا أكبر.

سخرت فرنسا جريدة "المبشر" كمنبر إعلامي هام، لتحقيق أهدافها الدعاوية، وروّجت لها بشكل منقطع النظير، عندما عمد الحاكم العام عند اندلاع الحرب، إلى جعلها ورقة رسمية ومجانية. كما أصدرت الحكومة العامّة أيضا "جريدة أخبار الحرب" في سنة 1914م. وهي جريدة أسبوعية أسندت مهمتها إلى السيد "جان ميرانت" المترجم والموظف السامي بالحكومة العامّة، وكانت تكتب بلغة ركيكة اقرب إلى العامية.¹

حاولت فرنسا أيضا توظيف بعض الصحف العربية المعادية للأتراك، وبالأخص تلك التي كانت تصدر في بلاد الشام ومصر، مثل جريدة "المقطّم"². وبعض الجرائد الصادرة بالمغرب العربي كجريدة "الزهرة" في تونس، وجريدة "السعادة" التي كانت تصدر بالمغرب الأقصى، بتوجيه من "الماريشال ليوتي" الخبير في شؤون المغرب الأقصى، ومن الجرائد الهامة، التي تكفّلت بالدعاية ضدّ الأتراك، جريدة المستقبل، التي كانت تصدر في باريس، منذ سنة 1916م، تحت إدارة شكري غانم (ت1926).³

لجأت فرنسا أيضا إلى وسائل دعائية أخرى، خاصّة في ظلّ صدور تقارير من "اللجنة الوزارية للشؤون الإسلامية" -وهي هيئة أوكلت لها مهمة تقييم الوسائل الدعائية خلال الحرب- بتاريخ 2 مارس سنة 1916م، تفيد بعدم فعالية الصحافة المذكورة في تحقيق الأهداف المرجوة، وذكرت اللجنة أن القراء صاروا مدركين لأكاذيب ومغالطات الصحف الموالية لها، أو تلك التي تشرف عليها مباشرة. لذلك اتّجهت إلى أسلوب التّمويه، وذلك باللّجوء إلى تمرير أفكارها ودعايتها، عبر منابر إعلامية تبدو ذات مصداقية، ولا تحمل بصمات السّلاطات الفرنسية مباشرة، بتأجير أقلام خارجيّة خاصّة المصرية منها، كالمقطّم والأهرام، وحتىّ بعض علماء الأزهر، وكانت الدّعاية تتمّ في شكل كرايس (Brochures) تسحب على نفقة البعثة الفرنسيّة هناك.

تركزت الدّعاية الفرنسيّة على تجذير التّفرقة بين العرب والأتراك، بإثارة التّعرة العرقية، وإبراز مظاهر التّريك، التي يمارسها الشّبان الأتراك خاصة في الشّام. واستغلّاهم المححف لدعوة الجامعة الإسلاميّة.

1- محمد ناصر: الصحافة العربية في الجزائر 1847-1939، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980، ص 42-43.

2- المقطم جريدة يومية سياسية تجارية تأسست في 1889 بمصر من طرف ثلاث سوريين، تميزت بمولاتها للاستعمار الانجليزي بمصر ومناصرة سياسته مما أدى إلى قيام الصحافة المعارضة لها نشرت خلال الحرب العامة الأولى مقالات عديدة معادية للأتراك استغلّتها فرنسا.

3- العجيلي: صدى الجامعة الإسلامية...، المرجع السابق، ص 364-374.

وعملت على تتبع أخطاء وزلات الأتراك والحكومة التركية، للتحقير بهم وإبراز مظاهر الجفاء والغلظة التي يمتازون بها عبر التاريخ، والتشكيك في أحقيتهم بالخلافة، واغتصابهم إيّاها، والتشهير بمجازرهم المقترفة في حق الأرمن.¹

ومقابل الدعاية المعادية، ومحاولات التشويه والمسح المنتهجة تجاه الأتراك العثمانيين، وحلفائهم الألمان، فإنّها -أي فرنسا- حرصت كلّ الحرص، على تبييض صورتها تجاه الأهالي، وعملت على إبراز محاسنها وأعمالها التي تقوم بها لصالح الإسلام والمسلمين، في محاولة منها لإحلال ولاء الأهالي للأتراك، إلى ولاء لها. ولاشك أنّ هذا يندرج بشكل أساسي في إطار تقويض دعائم الجامعة الإسلامية، بضرب وحدة الصفّ الإسلامي، والخطّ من شأن الخلافة العثمانيّة .

4- توظيف رموز الدّين:

أدرك الفرنسيّون منذ الأيام الأولى للاحتلال، دور الدّين البارز والريّادي في حياة المسلمين الجزائريّين، والمكانة الهامّة التي يحضى بها العلماء ورجال الدّين لدى عامّة النّاس، كما أدركوا أيضا عمق العلاقات، وصدق المشاعر بينهم وبين إخوانهم في المغرب والمشارك. وفروض الولاء التي يكتونها للخلافة العثمانيّة والسّلطان، باعتباره حامي حمى المسلمين، كما عرفوا مكانة مراكز العلم والدّين المنتشرة في المغرب والمشرق، وأثرها في توجيه حياة النّاس كالأزهر الشّريف ومكّة والمدينة المنورة والزّيّتونة واسطنبول، والحقيقة أنّ الفرنسيّين ركّزوا جهودهم على إبعاد الدّين عن التأثير في حياة النّاس وتوجيه سلوكهم. وما تحويل المساجد إلى كنائس ومصادرة الأوقاف، وإبعاد العلماء العاملين وتقزيم دور الأعيان والأشراف، إلا جزء من مخطّط واسع يستهدف إخراج الأمة الجزائريّة من حلبة الحضارة، وفي المقابل تنفيذ برامج هدامة بغرض تحقيق الاندماج وتشجيع التّنصير .

لقد كانت إحدى مقنضيات السياسة الفرنسيّة الدينيّة، إضعاف ولاء الجزائريّين تجاه الخلافة العثمانيّة، بالبحث عن ولاءات جديدة، تخدم أغراضها تزامنا مع اتساع نشاط دعاة الجامعة الإسلاميّة، والهجرة إلى الديار الإسلاميّة، ونداءات الجهاد ضد فرنسا، ولقد وجد الفرنسيّون في بعض علماء الحجاز خاصّة، سبيلا لتحقيق أغراضهم الدينيّة، فدأب الفرنسيّون ومصالح الشّؤون الأهليّة في ربط علاقات حميمة مع تلك المراكز، وتولّى بعض الجواسيس تنفيذ المهمة، كما أسلفنا من قبل بالنسبة لرحلة "ليون روش" في سنة 1842م، زمن الأمير عبد القادر، ثم رحلة "جيل جيرفي، كورتيلمون" في سنة 1894م .

1 - العجيلي : صدى الجامعة الإسلامية...، نفس المرجع، ص 381-398 .

لقد تزامنت الرحلة الأخيرة، مع اتّساع نطاق الهجرة الخارجيّة للجزائريين نحو الشّام، في أواخر القرن التاسع عشر، بتأثير من دعاة الجامعة الإسلاميّة، وبتوصيّة من الحاكم العام في الجزائر "جول كومبون" والمعروف بمواقفه المعاديّة الجامعة الإسلاميّة.

جاءت الرحلة على خلفية تفاقم الهجرة الجزائريّة نحو المشرق العربي، وكانت الغاية الحصول على فتوى من علماء الحرم، تبيح للمسلم المكوث بدار الحرب، طالما أنّ الكافر لا يتعرض للنّاس في دينهم، وبالتالي توقيف الهجرة، ومواجهة دعاية الجامعة الإسلاميّة.¹

لقد احتدم الصراع حول الإسلام بين فرنسا وألمانيا خلال الحرب العالميّة الأولى بشكل لافت، خاصّة بعد إعلان الدّولة العثمانيّة الجهاد، الأمر الذي جعل كل طرف يبحث عن الأدلّة والبراهين، للاستناد إليها والتّديليل على صحّة "سياسته الدينيّة" تجاه المسلمين. واشتدّ ذلك الصّراع والتّنافس أكثر حول استمالة رجال الدّين والعمل على توظيفهم بين الطّرفين. فالرّأي العام الإسلامي حينها، كان لا يزال ينظر إلى رأي الشّرع في مختلف المسائل التي تعترضه، وهذا الأمر أدركته الدّول الغربيّة بشكل عميق فعملت على استغلاله .

وإذا كانت ألمانيا قد بنت سياستها الدينيّة على أساس "الشّريعة العثمانيّة"، أي بالتّحالف مع الخلافة الإسلاميّة، فقد كانت مهمّة فرنسا أعقد، إذ أنّها كانت في مواجهة تلك الخلافة، والتي تمثّل صولجان الأمّة الإسلاميّة وضمان، وحدتها وعزّتها.

لجأت فرنسا للبحث عن أقطاب دينيّة جديدة، في مقابل قطب "الخلافة"، من شأنه أن يفضي المصداقيّة على سياستها الدينيّة، بغرض التّأثير على رعاياها المسلمين التّابعين لها، وقد وجدت ضالّتها في توظيف رموز الدّين في مستعمراتها وحملهم على "إعلانهم الولاء لها، وعلى رؤوس المملأ، وإدانتهم لتركيا ضحيّة الابتزاز الألماني".²

وهكذا تحرّكت الأطر الإداريّة الرّسمية (كالمستشارين البلديين الأهليين بوهران قسنطينة، إضافة إلى مجلس إدارة الجمعيّة الثقافيّة الإسلاميّة بالجزائر). وكذلك الشّبان الجزائريين الذين عبّروا عن مناهضتهم للوزراء الشّبان الأتراك التّابعين "للقيصر". وحذر بعضهم الحكومة العثمانيّة من التّعويل على الشّبان الجزائريين، كما أكد أولئك الشّبان تعلّقهم المطلق بفرنسا.³

1 - سعد الله: بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، نفس المرجع، ص 346-348 .

2 - العجيلي: صدق الجامعة الإسلاميّة...، المرجع السابق، ص 348 .

3 - Ageron: Les algériens musulmans..., op.cit, p1175-1176.

وبالمثل تحرّكت الأطر الدّينية في الجزائر، على خطى الشّبان الجزائريّين (بحكم الوظيفة والامتيازات) كالمفتيّين وشيوخ الطّرق الصّوفية ، فقد عبّر مفتيي المذهبين المالكي والحنفي بالعاصمة، والسادة المالكيّة والسّادة الحنفيّة بقسنطينة، وكبار مشايخ الطّرق عن تقديم فروض الولاء والطّاعة ¹.

استغلت فرنسا الفتاوى الصّادرة عن مؤسّسات وشخصيّات دينيّة معروفة خارج الجزائر، للدّعاية لسياستها الدّينيّة، وتعزيز موقعها في الحرب، كنتلك الفتوى التي صدرت عن الأزهر الشّريف، والتي دعت المسلمين إلى التزام الهدوء والسّكينة مبيّنة أنّ الحرب مضرّة لكلّ البلدان ². لقد نشرت تلك الفتاوى على صفحات مجلّة العالم الإسلامي ³، وبالأخصّ العدد الخاصّ من "النّشرة العربيّة" الذي تضمّن صور وإعلانات ولاء شخصيّات دينيّة وسياسية هامّة، كما وزّع على جنود شمال إفريقيا في جبهات القتال.

لا مندوحة من القول أنّ فروض الولاء تلك، جاءت من العناصر ذات المصالح والنّفوذ، وهو الأمر الذي جعل بياناتهم تبدو رسميّة بشكل علني وفاضح، وذات محتوى فاقد لقوة الحجّة، والقدرة على الإقناع، وبها العديد من عبارات التملّق، ومجارة الاحتلال، ممّا يوحي أنّها لم تكن عفويّة، بل جاءت بطلب من السّلطة ورضوخاً لأوامرها، كما لا سيستبعد أن تكون بعضها انتزعت من أهلها بالقوّة ⁴. لقد أدرك الرّأي العام الأهلّي، لغة التّفاق، وفقه مناورات المستعمر، ولم ينخدع بها، بل إنّها كانت سببا في حدوث شبه قطيعة بينه وبين علماء الدّين والإدارة الرّسميّين، كما كانت إحدى عوامل تراجع الطّريقة، وأقول بريقها أمام تصاعد التّيارات الوطنيّة ⁵.

وتشير المراجع أنّ فروض الولاء تلك، جاءت أيضا من طرق دينيّة عرفت بنهجها الثّوري والمعارض للاحتلال في السّابق، كالطّريقة الرّحمانية مثلا، ممّا يدفعنا إلى القول بنجاح سياسة التّرويض الفرنسيّة

1- Revue du monde musulman , t2 , 8-10/16-20/....

2 - العجيلي : صدى الجامعة الإسلامية.. مرجع سابق ، ص 353 .

3- العجيلي، المرجع نفسه، نقلا عن مجلة العالم الإسلامي. (لم يتسنّى لنا معاينة المجلدات المذكورة). انظر المجلدات 29(1914)

2(1915)3(1915) .

4- نفس مرجع ، ص 356 .

5 - Ali Merad : Le réformisme musulman en Algérie 1925-1940 , paris, mouton , 1967 , p 57. -

تجاهها، والتي بدأت في الواقع، منذ نهاية القرن التاسع عشر، تمشياً مع توصيات بهذا الشأن من طرف الدارسين والمختصين.¹

فقد شارك احد أبناء الطريقة الرحمانية وهو الباشاغا المقراني، وهو ابن الحاج محمد المقراني في الحرب العالمية الأولى إلى جانب فرنسا، كما كلف ابنه الآخر "بومزراق المقراني" وكان حينها مفتياً على مدينة الأصنام "Orleansville" بمأمرية دينية في أوساط المجتدين في فرنسا وبمستشفياتها، كما كلف أيضا بالرد على دعاة الجهاد من بعض الكتاب، ومنهم الشيخ صالح الشريف في كتابه "إرشاد العباد إلى حقيقة الجهاد". و"الإسلام في الجيش الفرنسي" للحاج عبد الله بوكابوية.²

ب- بعد الحرب العالمية الأولى: 1918-1924:

- مواجهة الوطنية الناشئة :

لقد حاولنا في الفصل السابق تسليط الضوء، على النشاط السياسي الذي أخذ في الظهور والتبلور قبيل الحرب العالمية الأولى، من خلال نشاط حركة "الجزائر الفتاة" باتجاهاتها المختلفة، كما حاولنا إبراز دور الأمير خالد الهاشمي، حفيد الأمير عبد القادر، في ظل تلك الحركة الوليدة من أتون الحرب ونتائجها، وهي وان أخذت صبغة محلية بحتة، فإنها لم تكن بمنأى عن التطورات العامة التي شهدتها العالم العربي والإسلامي، واستهدفت فيما استهدفت، الحفاظ على هوية الأمة الجزائرية وشخصيتها العربية الإسلامية، من الانصهار في حضارة المعتدين، ومن ثم يمكن الاستنتاج أنها لمست روح الجامعة الإسلامية وأبعادها الحضارية، بعد ما اعترها من الوهن والتراخي، اثر هزيمة العثمانيين ودول الوسط في الحرب، واصطبغ الحركات الوطنية بالطابع المحلي في إطار محاولة بعث الدولة الوطنية، لا يعني بالضرورة التخلي عن فكرة الوحدة التي مثلت جوهر فكرة الجامعة الإسلامية منذ أمد.

1- الإشارة هنا إلى تلك الدراسات المعمقة التي اضطلع بها عدد من الكتاب والمؤرخين، والتي انصبّت حول المعرفة الدقيقة بخبايا وأسرار الطرق الصوفية، وما لها من نفوذ على الأهالي، وكيف يمكن الحدّ منه ومواجهته، وخلصت إلى توصيات، اضطلعت الحكومة العامة ومصالح الشؤون الأهلية إلى تنفيذها.

2- بلقاسم بوكابوية، ولد في 1871 بميلة (ناحية قسنطينة)، هو ابن احد الأعيان، بعد تخرجه من مدرسة بوزريعة école normale تقلد مهنة التعليم، لكنه سرعان ما استقال منها، ليتوجه إلى الانخراط في الجيش الفرنسي، وحصل على رتبة ملازم في الجيش، وكانت له علاقات بالنبذة وزعمائها كالدكتور موسى والمحامي مختار، ودافع عن برنامج الشبان الجزائريين بمنطقة قسنطينة، فر من الجيش في بداية الحرب رفقة عدد من صف الضباط والجنود، مثل كتابه الذي ألفه خلال الحرب "الإسلام في الجيش الفرنسي" *l'islam dans l'armée française* وسيلة دعائية هامة للألمان والعثمانيين، موجه ضد الحلفاء. ووزع بشكل واسع تحت اسم الحاج عبد الله بوكابوية.

لقد جاهرت الإدارة الاستعمارية و المعمرون بعدائهم للأمير خالد، وتوجسوا من حركته، وارتابوا من نشاطه، خاصة بعد نجاحه في مختلف الاستحقاقات الانتخابية، منذ سنة 1919م. على حساب المتجنسين الذين كانوا بزعامة الدكتور بلقاسم بن التهامي.

لقد قالت الإدارة أنّ الأمير خالد استعمل خطابا دينيا وأنه نعت المتجنسين بالمرتدين عن الدين ، المتكبرين لشخصيتهم.¹ كما سعت إلى إلغاء نتائج الاقتراع والتشكيك في نزاهته .

وأكثر من ذلك لما أرسلت إدارة الشؤون الأهلية، السيد أوكثاف ديون O.Dupont في جولة إلى سوريا، بغية تقصي الحقائق عن عائلة الأمير عبد القادر، وحظي الأمير خالد بواحد وعشرون صفحة (21صفحة)، من إجمالي التقرير، المشتمل على ثمان وخمسين صفحة(58). لكن الإدارة لم تحصل على ما يمكنها ابتزازه أو مساومته به، ويبدو أنها كانت تبحث عن صلته بالأمير عبد المالك الثائر على فرنسا في المغرب كما مضى علينا .

وخلال انتخابات سنة 1920م ، قالت الإدارة أنّ الخطر يهدد فرنسا بتصاعد "الوطنية الإسلامية" ، إلى حدّ جعل عامل عمالة الجزائر، يطلب من شيوخ البلديات أن يوافقوه بقائمة احتياجاتهم من البنادق والرشاشات لتسليح المستوطنين، للدفاع عن أنفسهم.² وانطلقت حملة دعائية شعواء تقودها صحافة المستوطنين ضدّ الأمير خالد وأصحابه. واتّهمت تلك الصحافة الأمير خالد بالتحالف مع الشيوعيين ، كما تحيّلت صحيفة ايطالية هي "Magazine" بتاريخ 10 جوان 1922م، حديثا مع خالد عنوانه "منظمة إسلامية رهيبة" يستشف منه أنه ينشط ضمن تنظيم إسلامي واسع، هدفه توحيد الشعوب الإسلامية من المغرب الأقصى إلى الهند، في جبهة واسعة ضد الغرب.³ وقد يكون المقصود بالتنظيم هنا، هو الجامعة الإسلامية، وعموما فكلّ بادرة تجاه الوحدة الإسلامية ، تفهم في الغرب مباشرة أنّها تعني الجامعة الإسلامية ، أو القومية الإسلامية "Mouvement panislamique"، وأنّها مهما ادّعت الطرق السلمية أو تذرّعت بالوسائل الديمقراطية، فهي بالضرورة معادية للغرب ، بل الأدهى أنّها توصف بمعارضة الرقي والتّقدم ، ووجودها خطر على البشرية ، وما إلى ذلك من عبارات التهويل.

وقد أولت الولاية العامة أهمية كبيرة، لما كان ينشر على صفحات جريدة "الإقدام" من الموضوعات ، ومن الموضوعات التي ركزت عليها ، تلك المرتبطة بالحركة الشيوعية، فقد كان إقدام الجريدة على نشر نداء للحزب الشيوعي الفرنسي بعد مؤتمره الثاني لعمال المستعمرات، سببا لاتهام الامير خالد بالتعاون

1- جمال قنان: الكفاح الوطني وردود فعل الاحتلال في الفترة ما بين 1919-1939، المصادر، السداسي الأول 2006، ص 44.

2- نفس المقال ، ص 45.

3- نفسه ، ص 46.

مع تلك الحركة، وهي التهمة التي فتّدها في أكثر من مناسبة على صفحات جريدته ، فالمسألة الجزائرية برأيه: «مسألة وطنية، وحلها لن يأتي عن طريق الصّراع الطّبقّي»¹ وفي نفس الوقت قامت السّلاطات الفرنسيّة بإنشاء جرائد معادية "للإقدام" وبأقلام مأجورة منها جريدة "المستقبل الجزائري" ثمّ "النّصح".، ونعتقد أنّ إصاق تهمة الانتماء للشّيوعية للأمير خالد وحركته ، في اعتقادنا هي محاولة لتغيير الميدان الحقيقي للصّراع، وتحويله إلى الوجهة التي تجعله، إمّا عقيماً، أو سهل المنال بالنسبة للإدارة الاستعماريّة، وهي كلها وسائل تلجأ إليها مخبر الصراع الفكري تضطر أحيانا الزعماء إلى الانسحاب من المعركة طواعية نتيجة الإعياء.²

رفع النّائب الفرنسي "مورينو" Morinaud المعروف بمواقفه العنصريّة ، دعوى ضدّ الأمير خالد ، يتهمه ب"القدح والذم" وحكمت المحكمة على ا.خالد، بدفع غرامة ألف فرنك كتعويض، وخمسة آلاف فرنك عطل وضرر.

امتنع الأمير خالد دخول المنافسة الانتخابيّة، في سنة 1923 م. فاسحا المجال أمام منافسه "عبد النور تامزالي".³ وكتب يوم 16 مارس 1923 م، في جريدة الإقدام يقول: «فليشهد الله بأنّي لست من أولئك الباحثين عن شرف الوصاية ، لقد اقتحمت مجال العمل السّياسي ، وخضت الصّراع في مجالس النّواب للدّفاع بكل ما وهبني الله من قوّة، وبكلّ ما في قلبي من الحبّ ، لحماية مصالح إخواني المسلمين ورفع الضّرر عنهم.»⁴ لقد كانت ضربة قاسية نجحت فيها الإدارة في ضرب حزب "الفتاة" والقضاء على الوطنية الإسلاميّة التّاشئة في المهد ، وتكريس الموالين للإدارة في مختلف المجالس.

وكانت الضّربة الموالية هو طرده من الجزائر ، وكانت الضّغوط غير المباشرة تعمل عملها في الخفاء ، وهو ديدن السياسة الفرنسيّة وأساليبها الماكرة ، التي تجعل من خلاله المقاومون يضعون أسلحتهم ، ويغادرون ساحة المعركة في صمت وهدوء، دون أن يثير ذلك ضجيج الأهالي أو ينغصّ عليهم نومتهم.

1 - قنان ، " الكفاح الوطني وردود فعل الاحتلال في الفترة ما بين 1919-1939، نفس المقال ، ص 53.

2- نعتقد انه من الأهمية بمكان على الباحث في التاريخ ، إدراك بعض تفاصيل الصراع الفكري وأدواته، ليتسنى فهم بعض الوقائع. ونعتقد أنّ

الدراسة التي قام بها الاستاذ المفكر مالك بن نبي، هي دراسة ثرية وتقدم بعض الإجابات، حول فصول الصراع الفكري في تاريخ الجزائر

المعاصرة. انظر: بن نبي مالك ، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ، دار الفكر، دمشق، الجزائر ، 1988.

3 - العسلي ، "الأمير خالد الهاشمي...". مرجع سابق ، ص 153.

4 - نفس المرجع ، ص 154.

وقد سجّلت فعلا إدارة الاحتلال، بارتياح انسحاب الأمير خالد من الساحة السياسية ، وأشارت إلى أن الوضع أصبح مرضيًّا للغاية.¹

كتب الأمير خالد يقول في شجن وحسرة :«لم يعد بمقدورنا إطلاقا العيش في الجزائر ، حيث أصبحت الحياة فيها أمرا لا يطاق ولا يحتمل ، ولم يعد أمني إلّا الانسحاب، إلى بلد يتوافر فيه قدر أكبر من الإنسانية.»²

وقد تحدث الشيخ ابن باديس الذي كان يعتبر الأمير خالد زعيما عظيما، بأنّ موضوع مغادرته للجزائر، قد طرح على المناقشة وأنّ السيد عمر بوضربة، قام بالوساطة بينه وبين الإدارة، كانت نتيجة قبوله مغادرة البلاد..وأنّ فرنسا تأخذ على عاتقها وفاء ديونه، التي بلغت خمس وسبعون ألف فرنك ، كما التزمت بدفع نفقات سفره، وأبقت له تعويضاته السنوية، والظاهر أنّ فرنسا تعمّدت التحفّظ على منحتة بغرض تخفيف منابعه وموارد رزقه كي يستسلم، كما تكون ألّبت عليه بعض المندسّين من أعوانها في حركته، سواء من المنتمين إلى جمعية "الأخوة الجزائرية" أو في إدارة جريدة "الإقدام"، وما أشبه اليوم بالأمس، بالأمس كان الجدّ، وها هو الحفيد يلقي نفس المصير، كأن التاريخ يعيد نفسه.

وصل الأمير خالد إلى مصر، وشرع في تسوية قضية الخلافة الإسلامية، التي طرحت للتقاش، وأثارت جدلا واسعا لدى العلماء والسياسيين، على اثر إقدام القيادة الجديدة في تركيا على إلغاء الخلافة الإسلامية. وقد وجه خالد نداء طالب فيه بعقد مؤتمر إسلامي في كابول بأفغانستان (لأنها كانت إقليما مستقلا).

ويبدو أنّ الأمير انضمّ أيضا إلى الرابطة الإسلامية لبلاد الشرق الإسلامي، التي كان يرأسها ابن عمه الأمير سعيد لدعم قضية الخلافة³. وهو الأمر الذي يؤكّد انتماء خالد للجامعة الإسلامية واحتضان أفكارها، لكن على طريقته.

وخلال سنة 1924 وصل الاشتراكيون إلى الحكم في فرنسا ، وخلف "هيريو" السيد "ميليران" على سدّة الحكم في باريس ، ما جعله يتوسّم خيرا في التّظام الجديد ، ويتوجه إلى فرنسا لاستئناف نشاطه هناك، ويتوج ذلك بتأسيس حركة نجم شمال إفريقيا حيث نال بها شرف رئاستها "الشرفية".

1- قنان ، الكفاح الوطني...، نفس المقال ص59.

2- العسلي ، الأمير خالد الهاشمي ، مرجع سابق، ص 157.

3- نفس المرجع ، ص 158.

الخاتمة :

ظلت الجزائر إقليمًا عثمانيًا زهاء ثلاثة قرون ، وقد اختلفت أحكام المؤرخين حول تقييم ذلك الوجود، بين منصف ومتحامل، ولكن مهما يكن ، فإنّ الجزائر ظلت طيلة الفترة المذكورة، دولة قائمة بذاتها ، لها مؤسساتها وتمارس سيادتها شبه الكاملة على ترابها، وعلاقتها بالعثمانيين علاقة ولاء أكثر منها علاقة تبعية، كما أنها كانت محابة الجانب في كلّ منطقة الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، إلى غاية سقوطها لظروف يطول شرحها، في أيدي الفرنسيين، الذين أنهبوا التواجد العثماني، وعملوا على محو آثاره واجتثاث ذكره، إلى درجة نفي وجود كيان جزائري واضح المعالم، والغاية من ذلك ، هي قطع كلّ صلة بالشرق وأهله، مقابل فتح الجزائر على الغرب والثقافة الغربية، وقد «حاولت العديد من الدراسات التاريخية الفرنسية، التكرار المتعمد للهوية الوطنية للجزائر، ونفي أيّ مؤثر عنها عند احتلال الجزائر ، والتأكيد على أنّ هذه الشخصية، لم توجد ولم تبدأ في البزوغ، إلا في نهاية الحرب العالمية الأولى، وأنّه كان لفرنسا بعض الفضل، في بعث هذا الشعور بالشخصية الوطنية. ولا تستند تلك الحقائق على أدلة تاريخية، بل كانت وجهة سياسية وإيديولوجية أساسا»¹.

عندما ظهرت حركة الجامعة الإسلامية، على يد الشيخ جمال الدين الأفغاني، ورفيقه الإمام محمد عبده في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كانت الجزائر تبدو، وكأنّها قد طواها النسيان، لا يكاد يسمع أبين أبناءها، بفعل آلة الإبادة والمسح التي دأبت عليها إدارة الاحتلال منذ عقود، وفق مشروع استتصالي مدروس ومتعمد، ولكن بتطور تلك الحركة وتبنيها من طرف السلطان العثماني عبد الحميد الثاني، واتخاذها سياسة رسمية للدولة العثمانية في أواخر القرن، ظهر للشعوب المغلوبة على أمرها، والجزائر منها أنّ الفرصة جاءت، وساعة الخلاص قد حلت ، لتخليصهم من الاستعمار، واستعادة استقلالهم وسيادتهم.

لقد حاول السلطان عبد الحميد الثاني، بواسطة سياسة الجامعة الإسلامية ، مواجهة الخطر الغربي، وتدعيم مركز الخلافة العثمانية، واستقطاب حركة الهجرة نحو أقاليم الدولة العثمانية ، وفي عاصمتها الأستانة ، كإحدى أهمّ وسائل الضّغط، وطرق التأثير والمناورة، ووجد الجزائريون في أرض الخلافة

1 د. جمال قنان: مدرسة التاريخ الاستعماري بين الإيديولوجية والموضوعية حول بعض قضايا تاريخ الجزائر المعاصر، مجلة الدراسات

التاريخية ، العدد 5، السنة 1988، ص 128-137.

وأقاليمها، وخاصة في بلاد الشام، الملاذ الآمن لهم، فانخرطوا في ميادين الحياة المختلفة، وبرزوا فيها سواء كمتقنين وعلماء أو إداريين وعسكريين أو تجّار، كما انخرطوا في صفوف الجامعة الإسلامية، وأخذوا يعملون بوسائل شتى، لتخليص وطنهم من براثن الاحتلال الفرنسي، وعلّقوا آمالا عريضة على روح التضامن والأخوة، التي سرت أواصرها في كل أنحاء العالم الإسلامي .

وعلى الرغم من عدم واقعية التعويل على الدولة العثمانية، ومؤسسة الخلافة التي فقدت بريقها وسلطانها كنتيجة حتمية للضعف الداخلي للأمة الإسلامية عامّة، واختلال التوازن بين الشرق والغرب، بعد ظهور الثورة الصناعية، وتكريس تفوق الحضارة الغربية في الميادين المادية والتقنية، فإنّ تلك الحركة قد مكّنت من سريان روح الإصلاح و اليقظة، ومقتضيات النهوض، وربط المسلمين بتراثهم، وإرشادهم إلى طرق الخلاص، وحماية كياناتهم مما يحيط بها من الأخطار، فقد كان ذلك الزخم الفكري عاملا في نمو الوعي الاجتماعي، بظهور حركة الصحافة والتأليف والترجمة، وتكوين الجمعيات والتوادي، وهي كلّها عوامل ساهمت في نضج الوعي السياسي، وتبلور التضال الوطني .

تبين لنا أنّه من غير الممكن، فهم الحركة الوطنية فهما دقيقا وعميقا، بمعزل عن الأحداث العالمية والإقليمية التي ميّزت فترة ميلادها وتبلورها، ومن الواضح أن حركة الجامعة الإسلامية هي من العوامل الأساسية التي أسهمت في نشأتها وتبلورها.

الملاحق

ملحق 1: محمد رشيد رضا: أوروبا والإسلام

ربما يظن بعض المغرورين بقوتهم أن حال الجزائر خفية، لا يعرف حقيقتها مسلمو مصر والشام والحجاز وسائر المشرق.

الحق أقول لهؤلاء: إن تلك الحالة ليست بخفية، فإننا نعرفها ونشعر بشعور أهلها ولكن ما كل ما يعلم يكتب، وإنما كتبنا الآن هذه الكلمات، لما رأينا من بارقة الأمل في حسن التفاهم والسعي إليه بالعمل. لا نطلب من فرنسا للمسلمين أكثر مما أشار إليه مسيو "ميلي" وهو السعي في تعليمهم وتربيتهم، بالقيود الذي ذكره والشرط الذي اشترطه، وهو أن يكون القصد تقدمهم بما يلاءم طباعهم لا إلزامهم بنظمات فرنسا وعاداتها، فضلا عن شرائعها ودينها، فالمطلوب مساعدتهم على إحياء لغتهم ودينهم، وإنماء ثروتهم مع تعليمهم العلوم والفنون العصرية بالتدرج الملائم لحالهم.

ويسهل هذا على فرنسا إذا قنعت من الاستعمار والامتلاك بما دون تحويل المسلمين عن لغتهم ودينهم ورقبة بلادهم، ولها بعد ذلك من موارد الثروة ومصادر القوة ما شاءت مع الرضا والحب؟

يعلم كل الملمين بأحوال السياسة من المسلمين أن فرنسا طامعة في الاستيلاء على المغرب الأقصى وتأليف إمبراطورية إفريقية إسلامية، وأهل الرأي منهم يعلمون أن شجاعة أهل المغرب واستبسالمهم لا يدفعان عنهم ما تريده فرنسا بهم مع جهلهم وتفرقهم وكون بأسهم بينهم شديد.

ولكن سياستها إياهم يمثل ما ساست به الجزائر في الماضي قد يراها المغرورون أمرا يسيرا، وهي في الحقيقة من أعسر الأمور وأشدّها تعقيدا وخطرا على فرنسا في المستقبل، ويظن المغرورون أن تغيير السياسة في الجزائر تغييرا صوريا كاف في إرضاء المسلمين في تلك البلاد. وإقناعهم في سائر البلاد بان فرنسا تريد ترقيةهم مع المحافظة على دينهم ولغتهم. والحق انه لا يفيد في الأمر إلا الإخلاص في العمل وهو لا يخفى على احد.

أقول هذا لفرنسا ولنا ناصح أمين، وإنما انصح لها لاعتقادي أن في مصلحتها هذه خيرا للمسلمين، بل اعتقد أن فرنسا لو جعلت لأهل الجزائر واليا منهم لكانت فائدتها من ذلك أكبر من فائدتهم، فهل تلومني أمة الحرية أن صرحت لها باعتقادي هذا، وتعاقبني عليه بمنع هذا الجزء من المنار أن يصل إلى الجزائر؟ كلا بل أظن أنها تقدر كلامي قدره، فان لم تقدره اليوم فلا بد أن تقدره في يوم آخر.

بل نحن نعلم أن فرنسا ما رضيت أن يكون سلطانها على تونس سلطان حماية لا سلطان امتلاك رسمي، إلا لما استفادته من العبرة بحال الجزائر التي نعرفها نحن وهي اعرف بها منا.

مقتبس من المنار-المجلد [10] الجزء [11]. ذو القعدة 1325هـ/يناير 1908. ص 867.

رسالة الأمير خالد الهاشمي إلى المؤتمر العربي الأول في باريس :

الجزائر 25 جمادى الأولى 1331هـ

إلى السادة الأفاضل العظام أعضاء المؤتمر العربي

اتصلت بدعوتكم لأبناء الأمة العربية بكل فرح وسرور .وأدعو الله أن يثبت سعيكم ، واني واحد منكم قلبا وقالبا . وما دامت الأفكار شريفة ، والمقاصد عفيفة فلا شك من النجاح . وأخبركم بان دعوتكم كان لها صوت رنان ، وقد انتشرت في جميع الآفاق . واثنا الجرائد الشرقية والغربية بما يسر خاطرنا ، ويبعث على الأمل بنجاح هذه النهضة العامة، ولاشك في أن الدولة العثمانية توافق على طلبنا بتحسين الإدارة الداخلية ، حتى تترقى سوريا في أوج المعالي . وبتزقيتها تكون نتيجة حسنة للدولة العلية. هذا مع أن المراد عدم الخروج من تحت سلطتها فالمولى يوفق الجميع لما فيه صلاح الوطن والأمة . وكنت أود أن احضر بنفسني في مؤتمركم العظيم ، ولكنني مشتغل بالسفر إلى زهرة سوريا ، منشئي ووطني دمشق . وهناك أقف حسب طاقتي بما هو واجب على كل وطني غيور ..والسلام

خالد

ابن الأمير الهاشمي الحسيني

حفيد الأمير عبد القادر

ملحق رقم 3:

«إن الفرنسيين القاطنين في الجزائر ينتظرون بمرارة اليوم الذي سيرغمون فيه على شد أمتعتهم وحقائبهم للعودة إلى الوطن الأم....فمستقبلهم غامض مجهول، والأفق أمامهم ملبد بالغيوم والسحب، والعاصفة على وشك الرعد والقصف على رؤوسهم ، وهم منذ الآن يتألمون من ذلك ويتحسرون عليه.....!»
 وحق لهم أن يشتكوا ويتألموافأي شيء اعز عليهم وأي ألم اشد من مغادرة بلد كانوا يعيشون فيه عيشة الأمراء والأسياذ في ثراء واسع بلا كد أو تعب تخدمهم أقوام وأمم من العبيد دون أمل في الرجوع يوما إلى ذلك الفردوس ؟ إني لا أشفق على كرههم حقا وعلى عدم انبثاق بصيص من نور في أفقهم.....»
 الإقدام في 23 مارس 1923.

ابن باديس و مسألة إلغاء الخلافة

جاء فيه : " في السابع عشر من رمضان المعظم ختمت أنفاس أعظم رجل عرفته البشرية في التاريخ الحديث عبقرى من أعظم عباقرة الشرق، الذين يطلعون على العالم في مختلف الأحقاب فيحولون مجرى التاريخ و يخلقونه خلقا جديدا ذلك هو مصطفى كمال بطل غاليولي في الدردنيل، وبطل سقاريا في الأناضول، وباعث تركيا من شبه الموت إلى حيث هي اليوم من الغنى والعز والسمو .
وإذا قلنا بطل غاليولي فقد قلنا غالب الإنجليز أعظم دولة بحرية الذي هزمها في الحرب الكبرى شر هزيمة لم تعرفها في تاريخها الطويل، وإذا قلنا بطل سقاريا فقد قلنا قاهر الإنجليز وخلفائهم من يونان، وطلينان، وفرنسيين بعد الحرب الكبرى ومجلبهم عن أرض تركيا، بعد احتلال عاصمتها و التهام أطرافها وشواطئها .

وإذا قلنا باعث تركيا فقد قلنا باعث الشرق الإسلامي كله .

فمنزلة تركيا التي تبوأتها من قلب العالم الإسلامي في قرون عديدة هي منزلتها فلا عجب أن يكون بعثه مرتبطا ببعثها، لقد كانت تركيا قبل الحرب الكبرى هي جبهة صراع الشرق إزاء هجمات الغرب ومرمى قذائف الشره الاستعماري و التعصب النصراني من دول الغرب فلما انتهت الحرب، فخرجت تركيا منها مهمشة مفككة تناولت الدول الغربية أمم الشرق الإسلامي تمتلكها تحت أسماء استعمارية ملطفة واحتلت تركيا نفسها، واحتلت عاصمة الخلافة و أصبح الخليفة طوع يدها، و تحت تصرفها وقال المارشال "ألنبي" - وقد دخل القدس - (اليوم انتهت الحروب الصليبية) فلو لم يخلق الله المعجزة على يد كمال لذهبت تركيا و ذهب الشرق الإسلامي معها لكن كمالا الذي جمع تلك الفلول المبعثرة، فالتف به إخوانه من أبناء تركيا البررة ونفخ من روحه في أرض أناضول حيث الأرومة التركية الكريمة و غيل ذلك الشعب النبيل وقاوم ذلك الخليفة الأسير و حكومته المتداعية، وشيوخه الدجالين من الداخل، وقهر دول الغرب و في مقدمتها إنكلترا من الخارج - لكن كمالا هذا أوقف الغرب المغير عند حده و كبح من جماحه و كسر من غلوائه، وبعث في الشرق الإسلامي أمله و ضرب له المثل العالي في المقاومة والتضحية، فنهض يكافح ويجاهد، فلم يكن مصطفى محي تركيا وحدها، بل محي الشرق الإسلامي كله، وبهذا غير مجرى التاريخ، ووضع للشرق الإسلامي أساس تكوين جديد، فكان بحق كما قلنا - من أعظم عباقرة الشرق العظام الذين أثروا في دين البشرية و دنياها من أقدم عصور التاريخ.

إن الإحاطة بنواحي البحث في شخصية أتاتورك (أبي الترك) مما يقصر عنه الباع، و يضيق عنه المجال، ولكنني أرى من المناسب أو من الواجب أن أقول كلمة في موقفه إزاء الإسلام. فهذه هي الناحية

الوحيدة من نواحي عظمة مصطفى أتاتورك التي ينقبض لها قلب المسلم ويقف متأسفاً و يكاد يولي مصطفى في موقفه هذا الملامة كلها حتى يعرف المسؤولين الحقيقيين الذين أوقفوا مصطفى ذلك الموقف، فمن هم هؤلاء المسئولون؟ . . .

المسئولون الذين كانوا يمثلون الإسلام وينطقون باسمه، ويتولون أمر الناس بمفرده ويعدون أنفسهم أهله وأولى الناس به.

هؤلاء هم خليفة المسلمين شيخ إسلام المسلمين ومن معه من علماء الدين، شيوخ الطرق الصوفية والأم الإسلامية التي كانت تعد السلطان العثماني خليفة لها .

أما خليفة المسلمين فيجلس في قصره تحت سلطة الإنجليز المحتلين لعاصمته ساكتا ساكتا مستغفرا لله، بل متحركا في يدهم تحرك الآلة لقتل حركة المجاهدين بالأناضول، ناطقا بإعلان الجهاد ضد مصطفى كمال ومن معه الخارجين عن طاعة أمير المؤمنين .

وأما شيخ الإسلام وعلماءه فيكتبون للخليفة منشورا يميضيه باسمه ويوزعه على الناس بإذنه وتلقيه الطائرات اليونانية على القرى برضاه، ويبيح دم مصطفى كمال ويعلن خيائته ويضمن السعادة لمن يقتله. وأما شيوخ الطرق الضالون وأتباعهم المنومون فقد كانوا أعوانا للإنجليز وللخليفة الواقع تحت قبضتهم يوزعون ذلك المنشور، ويثيرون الناس ضد المجاهدين .

وأما الأمم الإسلامية التي كانت تعد السلطان العثماني خليفة لها فمنها - إقليلا - من كانوا في بيعته فانتفضوا عليه ثم كانوا في صف أعدائهم وأعدائه ومنها من جاءت من مستعبدتها حاملة السلاح على المسلمين شاهرة له في وجه خليفته .

فأين هو لإسلام في هذه الكليتيات)* كلها؟، وأين يبصره مصطفى الثائر المحارب والمجاهد الموتور بها ؟ لقد ثار مصطفى كمال حقيقة ثورة جامحة و لكنه لم يثر على الإسلام وإنما على هؤلاء الذين يسمون بالمسلمين، فألغى الخلافة الزائفة وقطع يد أولئك العلماء عن الحكم فرفض مجلة الأحكام واقطع شجرة زقوم الطرقية من جذورها، وقال للأمم الإسلامية عليكم أنفسكم، وعلي نفسي، لا خير لي في الاتصال بكم مادتم على ما أتم عليه .

فكونوا أنفسكم ثم تعالوا تعاهد وتعاون كما تتعاهد وتتعاون الأمم ذوات السيادة والسلطان .

أما الإسلام فقد ترجم القرآن لأُمَّته التركية بلغتها لتأخذ الإسلام من معدنه أو تستقيه من نبعه، ومكثها من إقامة شعائره فكانت مظاهر الإسلام في مساجده ومواسمه تتزايد في الظهور عاما بعد عام حتى كان المظهر الإسلامي العظيم يوم دفنه والصلاة عليه تعمدته الله برحمته؛لسنا نبرر صنيعه من رفض مجلة الأحكام، ولكننا نريد أن نذكر الناس أن تلك المجلة المبنية على مشهور و راجح مذهب الحنفية ما كانت

تسع حاجة أمة من الأمم؛ في كل عصر؛ لأن الذي يسع البشرية كلها في جميع عصورها هو الإسلام بجميع مذاهبه، لا مذهب واحد أو جملة مذاهب محصورة كائنا ما كان، وكائنه ما كانت أو نريد أن يذكر الناس أيضا أن أولئك العلماء الجامدين ما كانوا يستطيعون أن يسمعو غير ما عرفوه من صغرهم من مذهبهم، وما كانت حواصلهم الضيقة لتتسع أكثر من ذلك، كما يجب أن يذكروا أن مصر، بلد الأزهر الشريف مازالت إلى اليوم الأحكام الشرعية - غير الشخصية - معطلة فيها، ومازال (كود) نابليون مصدر أحكامها إلى اليوم، ومازال الانتفاع بالمذاهب الإسلامية في القضاء - غير المذهب الحنفي - مهجورا كذلك إقليا جدا .

نعم إن مصطفى أتاتورك نزع عن الأتراك الأحكام الشرعية ليس مسئولا في ذلك وحده، وفي إمكانهم أن يسترجعوها متى شاءوا وكيفما شاءوا، ولكنه رجع لهم حريتهم واستقلالهم وسيادتهم وعظمتهم بين أمم الأرض، وذلك ما لا يسهل استرجاعه لو ضاع، وهو وحده كان مبعثه ومصدره، ثم إخوانه المخلصون، فأما الذين رفضوا الأحكام الشرعية إلى (كود) نابليون فماذا أعطوا أمتهم ؟ و ماذا قال علماءهم ؟

فرحم الله مصطفى و ربح ميزان حسناته في الموازين و تقبل إحسانه في المحسنين .
وإلى الأمة التركية الشقيقة الكريمة الماجدة، التي لنا فيها حفدة و أخوال، والتي تربطنا بها أواصر الدين والدم والتاريخ والجوار، والتي تذكر الجزائر أيامها بالجميل أو ترى شخصها دائما ماثلا فيما تركت لها من مساجد ومعاهد للدين الشريف أو الشرع الجليل، إلى تركيا العزيزة نرفع تعازي الجزائر كلها مشاركين لها في مصابها راجين لها الخلف الصالح من أبنائها و مزيد التقدم في حاضرها ومستقبلها .
وإلى هذا فنحن نهييها برئيس جمهوريتها الجديد عصمت إينونو، بطل (إينونو) ومؤتمر لوزان و ثي مصطفى كمال، وإن في إجماعها على انتخابه دليلا على ما بلغته تركيا الكريمة من الرشد في الحياة الذي تبلغ به - إن شاء الله - من السعادة والكمال، ما يناسب مجدها القدموس وتاريخها الحافل بأعظم الرجال، و جلائل الأعمال ..

المصدر :

مجلة الشهاب : ج2 م13 مايو 1938 ، ص 61-62 وقد كتب المقال على اثر وفاة أتاتورك .

الفتوى (السنة بعد)
عنه ما يقع فيها من الاعتداء على الأديان والأسلاف والغازية عليها
ويستحق عقابها كالأديان الإسلامية، وسب النبوة الإسلامية وأسلافها

وأي من خليفته الأسلاف الجاهل بعبودية (الغير العام) بالأيام الجليلة
والغير واحفوايا وثقالا وجاهذا وبما والك وانعسك) واحثا منها هل يجرى
الجهاد على شعائر المسلمين ويجب جهاد سبائهم وسبواهم ومساكنهم
ومن سائر المنتهكين جميع الأعداء بالأموال والاندس من غير عتاقين
أم لا الجواب **جاءت بالاجاب**

هل يعرض إعلان الجهاد لله والأمر للفرز، وهل على المسلمين الذين
هم تحت إدارة روسية، أو انكليزية، أو امريكية، والحكومات العينية، والقاهرة، لها
بعض أن تحقق عدو، أو تمهاته الخول للبلاد الإسلامية، بها على
المسالمة والجهاد، وسب السائها زينة، شعورنا الحربية، وقساكنا وسعدها
نحوه بالذمة لا لعناء نور الأسلاف العاكسي أحلا أم لا الجواب **بالاجاب**

وإن كان حصول المفقوع بهذه الصورة متوقف على مساعدة جميع
المسلمين للجهاد وتلقوا فتوى بالذمة هل يكون تخلفهم معصية عظيمة
وهل يكونوا مستحقين للعقاب الإلهي، وجزاء هل ينالون ذلك المعصية،
السنة أم لا الجواب **جاءت بالاجاب**

وإن كانت الحكومات المذكورة التي تخدع الحكومة الإسلامية بدلا من الثورة
ارخست رعاياها المسلمين بالاكراه والاجبار وقتل بعضهم وتجويعهم بالذمة
هل تكون محاربة فعلية لحساب الحكومة الإسلامية، أم لا الجواب **جاءت بالاجاب**
وهل يكونوا القتلة مستحقين لعقابه تار الخيم أول الجواب **بالاجاب**

وحيث إن عداية المسلمين ارتدت مع فتح إدارة انكليزية أو فرنسية أو روسية على بلادها
الاسود لنصر، الدولة العلية، لا وجه الامانة والتمسك المساهمة في الحرب
الحكومة المدنية الإسلامية، موجهة لخدمة الخلافة الإسلامية، فهل يكون عملهم
سائرا اقل عتاقهم، وهل يستحقون العقاب الإلهي أم لا الجواب **بالاجاب**
كتبه الفقير اليه فقير يفتي عن ابن كوكب عسى

ملحق : 6 ملصقة حائطية عثر عليها في جامع الزيتونة في نوفمبر عام 1918، تحرّض على الفرنسيين.

الوجه الشريف للدينار المسلمي من نصر من الله وفتح قريب
اعلموا ايها المسلمون ان ابرانس ومن معها
انكسروا انكسار عظيم وخصموا في جزيرتنا غلبوا
والبحر كليل كما انكسرت الرهس والجليان ام ربي
اعلم ان الخير في قرب اتيانه وان النصر في تعلق وتريا
ومن معها ولشنتهم ارجوكم الله في حماها اعانت
اعانت ابرانس ولم يشبه الليل وعلم ان المايب
اعانت بشنتهم في حماها اعانت الكعب
وربين بعضهم بعضا وتقول لاخواننا العرب ان
اعانت ابرانس كبر وان القتال من اعانت كبر لان
فيه اهلى الدين وللمسلمين ومن اعانت على اهلى
الدين كبر وعلموا ايها المسلمون
انه يجب عليكم ان تعرض بعضهم بعضا
على حماها اعانت ابرانس ونفتم كالا وتقول
اللهم اهلى اهلى خنا وعسا ابرانس ومن ملاحها
ايها ما توجهوا نصر اللهم ترعيام المايب
اين ما توجهوا السلام وما اعنت لكم اليان من نزيها

المصدر: التليلي العجيلي: صدى حركة الجامعة الإسلامية في المغرب العربي (1876-1918).

الصورة 1:
خوالدية صالح بن عمار



الصورة 2:
الأمير شكيب أرسلان



الملحق 7: صور لشخصيات بارزة في الجامعة الإسلامية

المصادر والمراجع:

I- المصادر والمراجع العربية:

1-المصادر:

أ-الصحف:

المنار، 1935-1898

الشهاب، ج 2، م 13، مايو 1938.

النجاح، عدد 4، 153، أبريل 1924.

النجاح، عدد 52، 28 مارس 1924.

الفاروق، ع 4، (1913/3/21).

الفاروق، ع 15، (1913/6/3).

الفاروق، ع 66، (22 جوان 1914).

الفاروق، ع 15، (1913/6/6).

الفاروق، ع 5، (1913/3/28).

الفاروق، ع 4، (1913/4/4).

الإقدام، 1923/3/23.

ب-الكتب المنشورة:

1-الإبراهيمي، محمد البشير: آثار محمد البشير الإبراهيمي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الجزء 1، ط 1، 1978،

2-أرسلان، شكيب: لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟، مراجعة الشيخ حسن تميم، دار مكتبة الحياة (بدون تاريخ ورقم الطبعة).

3-الأفغاني جمال الدين وعبد محمد: العروة الوثقى، دار الكتاب اللبناني، بيروت. لبنان، ط 1، 1389 هـ / 1970.

4-بن نبي، مالك: مذكرات شاهد القرن، دار الفكر، دمشق، الجزائر، جزأين، ط 2، 1984.

5-بيرم الخامس، محمد: صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، دار صادر، بيروت، لبنان، ط 1، 1303 هـ.

6-التونسي، خير الدين باشا: أقوم المسالك في أحوال الممالك، الدار التونسية للنشر، تونس، ط 2، 1972.

7-الثعالبي عبد العزيز: تونس الشهيدة، ترجمة: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1404 هـ / 1984.

8-الجزائري محمد بن عبد القادر: تحفة الزائر، منشورات ثالة، الأبيار، الجزائر، ج 2، 2007.

9-رضا، محمد رشيد: الخلافة، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1994.

10-الزاهري، (محمد الهادي السنوسي): شعراء الجزائر، المطبعة التونسية، ج 1، ط 1، 1962.

- 11- عبده، محمد: الأعمال الكاملة ، تقديم وتحقيق محمد عمارة ، دار الشروق، بيروت، لبنان، 1993.
- 12- عبد الحميد الثاني: المذكرات السياسية، (مرجع الكتروني).
- 13- العقون ، عبد الرحمان بن ابراهيم: الكفاح القومي والسياسي، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب ط1، 1984.
- 14- الفاسي ، علال: الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، دار الطباعة المغربية ، تطوان، المغرب، 1984 .
- 15- الكواكبي ، عبد الرحمان :طبائع الاستبداد، تقديم محمد خالد، موفم للنشر، الجزائر 1988.
- 16 -لوثرروب ، ستودارد :حاضر العالم الإسلامي، تعليق الأمير شكيب أرسلان، تر: عجاج نويض، دار الفكر ط3، 1971.
- 17-لوشاتوليه ،أ : الغارة على العالم الإسلامي ، تر: محب الدين الخطيب ومساعد الوافي ، دار مدني، الجزائر 2002.
- 18-المدني ،احمد توفيق: حياة كفاح (مذكرات) ، الجزء الأول في تونس (1905 -1925)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976.

2-المراجع :

- 1- أبو زهرة، محمد : الوحدة الإسلامية ، دار الرائد العربي. بيروت-لبنان.
- 2-أمين احمد: زعماء الإصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان 1979.
- 3-أنطونيوس جورج : يقظة العرب ، تاريخ حركة قومية تر: د.ناصر الدين الأسد ود.إحسان عباس، ط2، دار العلم للملايين، بيروت ،1966.
- 4-ايف لأكوست و(آخرون): ت: راجح اسطمبولي ، الجزائر بين الماضي والحاضر ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية،الرباط،الجزائر،1984.
- 5-بروكلمان، كارل : تاريخ الشعوب الإسلامية، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان، ط10، 1984.
- 6-برو ، توفيق علي : العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ، (1908-1914)، دار الهناء للطباعة، ط1، 1991.
- 7-بن نبي ، مالك : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، دار الفكر ، الجزائر ط 2 . 1992.
- 8- بن نبي، مالك : الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ، دار الفكر،(دمشق، الجزائر)، 1988.
- 9-بن نبي، مالك : وجهة العالم الإسلامي، ت.عبد الصبور شاهين، دار الفكر،(دمشق، الجزائر) ط5، 1986.
- 10-بن قينة، عمر: صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث، (أعلام ، قضايا ومواقف) ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993 .
- 11-بلاسي ، نبيل احمد: الاتجاه العربي الإسلامي ودوره في تحرير الجزائر ، الهيئة العامة المصرية للكتاب، 1990.
- 12-بوعزيز، يحيى: ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين ، منشورات التحف الوطني للمجاهد، ج1، ط2، الجزائر. 1996.

- 13- التميمي، عبد الجليل: نصوص ووثائق في التاريخ المغربي ، -الدار التونسية للنشر، زغوان ، ط1، تونس1991.
- 14- التل، عبد الله: خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية ، قصر الكتاب، البليدة – 1989، الجزائر.
- 15- توران، ايفون: المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة (1830-1880)، المدارس والممارسات الطبية والدين، تر: محمد عبد الكريم اوزغلة، دار القصة للنشر، الجزائر، 2005.
- 16- توينبي ، أرنولد: تاريخ البشرية ، ت: د. نقولا زيادة ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، الجزء 2 لبنان، 1982.
- 17- الجندي ، أنور: الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا ، الدار التونسية للطباعة والنشر ، 1965.
- 18- جفلول ، عبد القادر: تاريخ الجزائر الحديث ، دراسة سوسيوولوجية .ت: فيصل عباس، دار الحداثة- لبنان . ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ، ط3 ، 1973.
- 19- الجيلالي ، عبد الرحمان: تاريخ الجزائر العام ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، دار الثقافة بيروت ، لبنان ، ج4 ، ط2 ، 1982.
- 20- جوليان ، شارل أندري : إفريقيا الشمالية تسير ، القوميات الإسلامية والسيادة الفرنسية (ترجمة: مجموعة من الأساتذة التونسيين) ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع-الجزائر، الدار التونسية للنشر، تونس، 1976.
- 21- الجابري ، محمد الصالح: النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس (1900-1962) ، الدار العربية للكتاب ، ش.و.ن.ت. الجزائر 1983.
- 22- حباسي.شاوش: من مظاهر الروح الصليبية للاستعمار الفرنسي بالجزائر، 1830-1962، دار هومة، الجزائر، 1998.
- 23- حمدان جمال : إستراتيجية الاستعمار والتحرير، دار الشروق ، مصر، ط1 ، 1983.
- 24- حميداتو ، مصطفى محمد :عبد الحميد بن باديس ، وجهوده التربوية ، سلسلة كتاب الأمة ، العدد57 ، السنة17 -وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية -قطر
- 25- خرفي صالح :في رحاب المغرب العربي، بيروت، 1985.
- 26- خرفي، صالح : عمر بن قنبر الجزائري ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1984.
- 27- الخطيب ، سليمان : أسس مفهوم الحضارة في الإسلام، الزهراء للإعلام العربي -مصر ط1 ، 1986 .
- 28- دبوز ، محمد علي: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة ، ج1 ، المطبعة التعاونية ، الجزائر، ط1، 1965.
- 29- الدهان ، سامي :الأمير شكيب ارسلان ، دار المعارف ، مصر ، 1960.
- 30- سعد الله ، أبو القاسم: الحركة الوطنية الجزائرية، (1900-1930) ، ش.و.ن.ت ، الجزائر ج2، ط3، 1983.
- 31- سعد الله ، أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي (1830-1954) ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ج 5 ، ط1 ، 1998.

- 32- سعد الله ، أبو القاسم: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ج4، ط1، 1996.
- 33- سعد الله ، أبو القاسم: بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ،لبنان، ط1 ، 2003.
- 34- سعد الله ، أبو القاسم: الحركة الوطنية الجزائرية، (1830-1900) ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ،لبنان، ج1، ط1، 1992.
- 35- الشكعة ، مصطفى: الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته ، الدار المصرية اللبنانية ، ط2، 1988.
- 36- شميتر ، بول : الإسلام قوة الغد العالمية ، ت: محمد شامة ، مكتبة وهبة ، 1974.
- 37- عبد العزيز سليمان نوار، محمود محمد جمال الدين: التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي ، مصر ، 1999.
- 38- د. ألبود ، صالح بن عبد الله بن عبد الرحمان : "دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي" ، (بدون تاريخ أو مكان الطبع) -مرجع الكتروني-
- 39- العجيلي التليلي: صدى الجامعة الإسلامية في المغرب العربي (1876-1918)، كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة ، دار الجنوب للنشر، تونس، ط1، 2005.
- 40- عمارة ، محمد : جمال الدين الأفغاني المفترى عليه، دار الشروق، القاهرة-بيروت ، ط1، 1984.
- 41- عمارة ، محمد : جمال الدين الأفغاني، موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام ، دار الشروق ، ط21408هـ/1988م.
- 42- عمارة ، محمد : الجامعة الإسلامية والفكرة القومية، نموذج مصطفى كامل ، دار الشروق ، القاهرة، ط1، 1414هـ/1994م .
- 43- عمارة ، محمد : جمال الدين الأفغاني ، الأعمال الكاملة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ج1 ط1 ، 1979.
- 44- العسلي ، بسام : الأمير خالد الهاشمي الجزائري، والدفاع عن جزائر الإسلام ، دار النفائس، لبنان، ط2 ، 1984.
- 45- د. ألعدي إبراهيم أحمد: رشيد رضا الإمام المجاهد ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، (بدون تاريخ).
- 46- غليون ، برهان: الوعي الذاتي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الجزء 1، بيروت، 1972.
- 47- قدورة ، زاهية: تاريخ العرب الحديث ، دار النهضة العربية . بيروت-لبنان، (د.ت).
- 48- قداش محفوظ و قنانش محمد: نجم الشمال الإفريقي (1926-1937) ، وثائق وشهادات لدراسة الحركة الوطنية ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984.
- 49- قتان ، جمال: نصوص سياسية جزائرية في القرن التاسع عشر (1830-1914) ، ديوان المطبوعات الجزائرية الجزائر 1993 .
- 50- قنانش محمد : المواقف السياسية بين الإصلاح والوطنية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر (دون تاريخ) .
- 51- كاني ، أحمد محمد : الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا - الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط1، 1987.

- 52- كوران ،أرجمند :السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر(1827-1847)، تر:عبد الجليل التميمي ،الشركة التونسية لفنون الرسم ،تونس ، ط2، 1974.
- 53- المحافظة ، علي: الاتجاهات الفكرية في عصر النهضة، (1798-1914) ، الأهلية للنشر والتوزيع ،بيروت ،لبنان 1987.
- 54-المراكشي ، محمد الصالح: تفكير رشيد رضا من خلال المنار، (1898-1935)، الدار التونسية للنشر ،تونس ،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر، 1985 .
- 55-مريوش أحمد : الطيب العقبى ، ودوره في الحركة الوطنية، دار هومة ،الجزائر ، ط1، 2007.
- 56-مصطفى ، أحمد عبد الحليم: حركة التجديد في العالم العربي الحديث ، معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة.الدول.العربية ، 1971 .
- 57-مناصرية ، يوسف: مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب(1832-1847) ، المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر 1990.
- 58-د.المواعدة، محمد: الشيخ محمد الخضر حسين ، حياته وأعماله، الدار التونسية للنشر،تونس ، 1974.
- 59-مياصي ، ابراهيم: توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري (1881-1912) ، منشورات متحف المجاهد ،الجزائر ، 1996.
- 60-ناصر محمد: الصحافة العربية في الجزائر (1847-1939) ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ، 1980.
- 61-ناصر محمد: المقالة الصحفية بالجزائر ، نشأتها، تطورها، أعلامها، من 1903 إلى 1931، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، م2، 1978.
- 62- ناصر ، محمد: عمر راسم المصلح الثائر ، منشورات وزارة الثقافة ،الجزائر ، 1984.
- 63-نوار ، عبد العزيز: تاريخ العرب المعاصر، مصر والعراق ، دار النهضة العربية ،بيروت ، لبنان، 1973 .
- 64-نوار، عبد العزيز ، جمال الدين ،محمود محمد:التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي،مصر ، 1999.
- 65-صبيحي ، محمود: في فلسفة التاريخ، دار المعرفة الجامعية ،مصر، ط3، 1989.
- 66-صاري ، احمد: شخصيات وقضايا في تاريخ الجزائر المعاصر، المطبعة العربية ،غرداية، الجزائر، 2004.
- 67-طالبى ، عمار : ابن باديس ، حياته وآثاره ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت -لبنان ، ط2 الجزء 1 1983،
- 68- الطبري، محمد بن جبرير : مختصر تفسير الطبري ، ط2 مكتبة رحاب ، الجزائر 1987.
- 69-هامرتن، س.جون : تاريخ العالم ، مكتبة النهضة العربية، تر:تحت إشراف وزارة التعليم العالي، مصر ، الجزء السابع، ط3 ، (د.ت).

3-رسائل جامعية غير منشورة :

- 1-بلقاسم ، محمد: الاتجاه الوحدوي في المغرب العربي (1910-1954)، ج2، رسالة ماجستير، بإشراف د.ناصر الدين سعيدوني، جامعة الجزائر، 1994.
- 2-دهاش، الصادق: ظهور وتطور فكرة الجامعة الإسلامية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والثالث الأول من القرن العشرين ، رسالة ماجستير، بإشراف د.جمال قنان ، جامعة الجزائر، 1999.

4-المقالات والبحوث:

- 1-إبراهيم ، فؤاد، قراءة في حركة الإحياء الديني ، الشيخ محمد عبيده ومشروعه الإصلاحية ، مجلة الكلمة ، العدد 20 ، السنة السادسة 1998، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث -بيروت و قبرص .
- 2-اجيرون ، شارل روبر ، الاضطرابات الثورية في الجنوب القسنطيني (نوفمبر 1916-يناير 1917)، الأصالة، نوفمبر 1978.
- 3-برج، محمد. الجزائر في كتابات محمد عبده، الأصالة، عدد ، ديسمبر، الجزائر، 1977.
- 4-بلعرج ، بوداود ، الأدبية ايزابيل ايرهاردت المسلمة، مجلة الدراسات الإسلامية ، المجلس الإسلامي الأعلى، العدد 6 ،ديسمبر 2004 ، الجزائر .
- 5-بلقاسمي بوعلام، البعد المغاربي في إيديولوجيات الحركة الوطنية الجزائرية 1911-1937 ، المصادر ، عدد 7 نوفمبر 2002.
- 6-البوعبدلي ، المهدي، جوانب مجهولة من زيارة محمد عبده للجزائر، الأصالة، عدد فبراير-مارس 1978
- 7-بوعمران الشيخ، الأسقف لافيغري ونشاطه التبشيري في وادي الشلف ، مجلة الدراسات الإسلامية ، العدد 6 ديسمبر 2004 المجلس الإسلامي الأعلى ، الجزائر .
- 8-بوعزيز، يحيى، وثائق جديدة عن دور محي الدين بن الأمير عبد القادر في ثورة 1871 وموقف ابيه والسلطات التونسية منه، الأصالة، عدد 38، أكتوبر 1976.
- 9-بوعزيز، يحيى، دور تونس في دعم حركات التحرير الجزائرية وموقف الجزائريين من احتلالها عام 1881، الثقافة ، العدد 70 ، جويلية/اوت 1982.
- 10--تركي، راجح، ابن باديس والحركة الإصلاحية في الجزائر، الأصالة، مارس -أبريل 1975
- 11-رمضان ، محمد الصالح، ابن العابد الجلالي ، شخصيته وجانب من تفكيره، الثقافة، يوليو-أغسطس 1984
- 12-سالم، احمد علي، الإصلاح السياسي عند الشيخ رشيد رضا بين بناء دولة إسلامية نموذجية وإقامة الجامعة الإسلامية ، مجلة الكلمة ، العدد 24، السنة السادسة 1999
- 13-سعد الله أبو القاسم، سليمان الباروني:أضواء وملاحظات، الثقافة، سبتمبر-ديسمبر 1995
- 14-سعد الله أبو القاسم، تيارات اليقظة والإصلاح في المغرب العربي، المصادر، ماي 2003

- 15-سعد الله أبو القاسم، وثائق جديدة عن ثورة الأمير عبد المالك الجزائري بالمغرب، السنة الخامسة ، عدد 33. ماي 1976
- 16-سعيدوني ، ناصر الدين، صدى كفاح عمر المختار في الجزائر ، الثقافة ، العدد56 ، مارس /أفريل 1980.
- 17-عويمر ، مولود، حيوية المجتمع الإسلامي بين الماضي والحاضر ، مجلة رؤى ، السنة الثالثة العدد 15-2002
- 18- غالم محمد ، «الوثائق الفرنسية والهجرة إلى الديار الإسلامية ، دراسة ونقد » مجلة الدراسات التاريخية —جامعة الجزائر . العدد 5 ، 1988.
- 19-قاسم محمود ،مناهج الإصلاح في الشرق، الثقافة، سبتمبر-أكتوبر 1986
- 20-قاسم محمود، موقف جمال الدين الأفغاني من الإصلاح العلمي ومناهج الإصلاح عند احمد خان ومحمد عبده، الثقافة يوليو-أغسطس 1984
- 21 د.جمال قنان: نظرة حول حركة الإصلاح الإسلامي والجامعة الإسلامية في القرن التاسع عشر، المصادر، العدد 11، السداسي الأول 2005
- 22-قنان جمال، الكفاح الوطني وردود فعل الاحتلال في الفترة ما بين الحربين 1919-1939، المصادر، السداسي الأول 2006
- 23-قنان جمال ،مدرسة التاريخ الاستعماري بين الإيديولوجية والموضوعية حول بعض قضايا تاريخ الجزائر المعاصر، مجلة الدراسات التاريخية ، العدد5، السنة1988
- 24-قنان جمال، مشاغل المجتمع الجزائري من خلال الصحافة 1882-1914 ، المصادر ، عدد9 ، مارس 2004.
- 25قنان جمال، لمحة حول نشاط الجامعة الإسلامية من خلال المراسلات الدبلوماسية الفرنسية ، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، العدد19، رمضان 1426هـ/أكتوبر 2005
- 26-المدني، احمد توفيق، شكيب ارسلان ،بطل الجهاد في كل الميادين . —مجلة الثقافة — عدد 76 جويلية-أوت 1976.
- 27- صاري، احمد، الشيخ صالح الشريف المفكر الإسلامي 1859-1919، حولية المؤرخ . العدد1 السنة 2002.
- 28م الميلي ،محمد، الشخصية الوطنية بيت الحقيقة والتزييف، محاضرات الفكر الاسلامي ، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، ج3، الجزائر، 24 يوليو، 10 أوت 1972.
- 29-الميلاد، زكي الشيخ محمد رشيد رضا ، وتحولات الفكر الإسلامي المعاصر ، مجلة الكلمة ، العدد 24 ، السنة السادسة 1999، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث —بيروت او قبرص
- 30-ناصر، محمد ، رائد الدعوة إلى التضامن الإسلامي عمر بن قنور الجزائري ، الأصاله، العددان 58-59 جوان/جويلية 1978
- 31- د صاري، احمد ، «الجديد عن زيارة محمد عبده إلى الجزائر قسنطينة » مجلة الآداب والعلوم الإنسانية -جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية —قسنطينة . العدد2 ، مارس 2003.

32-الصباغ، ليلي ، " ثورة مسلمي غرناطة عام 976هـ ، أواخر 1568 م والدولة العثمانية "مجلة الأصالة (الجزائر)، عدد 27 (1975)

33-د.هلال، عمار، الهجرة الجزائرية نحو الولايات العثمانية في المشرق العربي (1847-1918)، الثقافة، العدد 82 يوليو-أغسطس 1984

34-د.هلال، عمار، الهجرة الجزائرية نحو الولايات العثمانية في المشرق العربي(1898-1918) الثقافة، عدد 84 ، نوفمبر /ديسمبر 1984.

35-د.هلال عمار، أصداء الهجرة الجزائرية نحو الشرق العربي في بعض التقارير الرسمية الفرنسية، الثقافة، العدد 88 يوليو-أغسطس 1985

36-د.عمار هلال ، مساهمة الخالدي صالح بن عمار في التعريف بالقضية الجزائرية مغربيا وعربيا وإسلاميا فيما بين 1903-1906.مجلة الدراسات التاريخية ، عدد 6 السنة 1992 الجزائر.

37-د. هلال عمار ، الشيخ عبد العزيز بن محمد الهاشمي ، مواقفه من السياسة الاستعمارية وحركة الإصلاح بمناطق وادي سوف .مجلة الثقافة ،.وزارة الثقافة والسياحة -الجزائر العدد 95 ، سبتمبر -أكتوبر 1986

II-مصادر ومراجع بالفرنسية :

- 1-Ageron Charles Robert, Histoire de l'Algérie contemporaine ,tome2 ,(1870-1954) .presse universitaire de France ,1^{er} édition , 1979.
- 2-Ageron Charles Robert, les algériens musulmans et la France ,tome2,p.u.f, France. 1968.
- 3-Ageron. CH.R. :l'Algérie algérienne de napoléon III a de gaule ,la bibliothèque arabe ,sindbad ,paris,1980.
- 4-Claude,Collot,le mouvement nationale algérien ,textes(1912-1954) 2. éd .o.p.u, Alger, 1977.
- 5- Dupont Octave et Coplani Xavier, les confréries religieuses musulmanes ,adolphe jourdan ,imprimeur libraire ,Alger 1897.(livre numérisé).
- 6-Julien ,Charles André , histoire de l'Algérie contemporaine ,tome1,(1830-1870) .presse universitaire de France ,1^{er} édition , 1979.
- 7--Ihaddaden Zahir ; histoire de la presse indigène en Algérie , des origines jusqu'en 1930 ,ENAL ,Alger,1983.
- 8-James Darmesteter,le mahdi ,depuis les origines de l'islam jusqu'à nos jours, Ernest Leroux éditeur , paris 1885. .(livre numérisé)
- 9-Kaddache Mahfoud, L'émir Khaled documents et témoignages pour servir a l'étude du nationalisme algérien , o.p.u –Algérie 1987.
- 10-Kaddache Mahfoud ,histoire du nationalisme algérien, question nationale et politique algérienne (1919-1951),tome2.S.N.E.D Alger 1980.
- 11-Merad Ali, l'islam contemporain coll. , que sais-je?
- 12- Merad Ali , le réformisme musulman en Algérie de 1925 a1940,essai d'histoire religieuse et sociale , paris mouton , 1967.
- 12- Meynier,Gilbert l'Algérie révélée ,la guerre de 1914-1918 et le premier quart du XXe siècle ,Genève ,librairie drez, 1981.
- 13- Moreau, Laurent ,A bord du cuirassé "GAULOIS",«Dardanelles-Salonique,1915-1916»,Payot ,paris,1930.
- 13-Rodinson, Maxime, marxisme et monde musulman; édition du seuil ; Paris ; 1972.-
- 14- Rinn, Luis: marabouts et khouans, étude sur l'islam en Algérie, Adolphe jourdan, imprimeur libraire ,alger1884. .(livre numérisé)
- 15- Sellam, Sadek , la France et ses musulmans ,éd. casbah, Algérie 2007.
- 16- Stora, Benjamin et zakia daoud , Ferhat Abbas ,une autre Algérie , édition casbah , Alger 1995.

مقالات بالفرنسية:

Arslan, Ben chaouki, «cheikh el-okbi , l'islahiste, el-watan,» no:14, 28/9/2005.

Bessis Juliette,« chekib arslan,et les mouvements nationalistes au Maghreb » ,**revue historique** n ° 526,avril-mai 1978.

2-**A. Le Chatelier** ,« le panislamisme et le progrès», **Revue du monde musulman** ,1^{er} année , no4 février

3-**x.**, «le panislamisme et le panturquisme», **Revue du monde musulman**, mars 1913.

4-**Achille sekaly**, «les deux congrès du califat de 1926», **Revue du monde musulman**, ,vol, LXIV ,deuxième trimestre, 1926.

5-**j.Desparmet**, les chansons d'Alger pendant la grande guerre .**revue africaine** ,n0:73 année 1932.o.p.u ,alger1986.

6 **Bernard, Augustin**, « l'Afrique du nord juge par un anglais», -**Revue de l' Afrique française** 33eme année, no 10, oct. 1921.

7- **Marquis de Segonzac**, « à la mémoire du père de Foucauld», **Revue de l' Afrique française** 31e année ,no 11 .nov. 1921.

Merad, ali,

-«**l'enseignement politique de Mohamed abdah aux algériens**» ,1903,in orient n ° 28, 4é trim.1963.pp75-123.

-«**la turcophilie dans le débat national en Algérie au début du siècle ,1911-1918**».in les provinces arabes et leurs sources documentaires a l' époque ottomane, Zaghouan,1984;pp337-354.

8-**Tebbal**,« **la méditerranée boîte de résonance**», **Revue de l' Afrique française**, (bulletin; renseignements coloniaux et documents) no09 fév. 1921.

2.....مقدمة

الفصل الأول: ظهور الجامعة الإسلامية وتطورها

7.....مدخل: العالم الإسلامي في مطلع العصور الحديثة

11.....I-أوضاع العالم الإسلامي في النصف الثاني من القرن 19م ومطلع القرن العشرين

11.....1-الأوضاع السياسية

16.....2-الأوضاع الفكرية والثقافية

20.....3-الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية

II-ظهور الجامعة الإسلامية وتطورها:

1-ظهور الجامعة الإسلامية :

23.....1-مفهوم الجامعة الإسلامية

26.....2-الإطار الفكري والفلسفي للجامعة الإسلامية

29.....3-الجامعة الإسلامية كمشروع سياسي

ب-تطورها:

1-الجامعة الإسلامية من منظور الجيل المؤسس لها.

30.....جمال الدين الأفغاني

36.....- الشيخ محمد عبده

39.....- الشيخ عبد الرحمن الكواكبي

2- الجامعة الإسلامية في منظور الجيل الثاني.

41.....- الشيخ رشيد رضا

46.....- الامير شكيب أرسلان

III-الدولة العثمانية والجامعة الإسلامية :

49.....1- في العهد الحميدي (1876-1908)

54.....2- في عهد حكومة الاتحاديين .

57.....3- إلغاء الخلافة وأثره

59.....IV-مآل الجامعة الإسلامية

الفصل الثاني: صدى حركة الجامعة الإسلامية في الجزائر 1876-1924:

61.....الجزائر في عيون دعاة الجامعة الإسلامية:

61.....1-في عيون دعاة الجيل الأول

63.....1- رأي الأستاذ أبو القاسم سعد الله

65.....3-في عيون دعاة الجيل الثاني

II- وسائل تسرّب دعوة الجامعة الإسلامية إلى الجزائر

- 1- الحجّ إلى الأماكن المقدّسة.....66
- 2- الهجرة الجزائرية نحو الديار الإسلامية وأثرها.....68
- 3- تأثير صحافة الجامعة الإسلاميّة.....73
- 4- زيارة الشّيخ محمّد عبده إلى الجزائر سنة 1903.....76

III- بعض مظاهر تفاعل الجزائريّين مع أفكار الجامعة الإسلاميّة

- 1- ظلّ الجامعة الإسلاميّة في بعض المقاومات الوطنيّة المسلّحة.....83
- 2- الجزائريّون والاحتلال الايطالي لطرابلس الغرب.....85
- 3- الجزائريّون والحرب العالميّة الأولى (1914-1918).....89

IV- الجزائريّون ومسألة إلغاء الخلافة الإسلاميّة :

- آراء بعض المصلحين الجزائريّين في إلغاء الخلافة الإسلاميّة سنة 1924.....97

الفصل الثالث: تأثير حركة الجامعة الإسلاميّة في الحركة الوطنيّة:

- I- ارتسام معالم النهضة في الجزائر.....102
- 1- ظهور كتلة المحافظين وأثرها.....102
- 2- ترجمة بعض زعماء الاتجاه.....105
- ا- عبد الحليم بن سماية:.....105
- ب- محمّد بن مصطفى بن الخوجة (الكمال):.....108
- 3- تأثير الجامعة الإسلاميّة في تبلور الاتجاه الاصلاحى:.....110
- 4- نشأة الصحافة الوطنيّة أو الاهليّة.....111

II- تموقع الجامعة الإسلاميّة بالمغرب العربي:

- 1- المغرب العربي بؤرة للنشاط وساحة للدعاية.....119
 - 2- الأخوة الجزائرية-التونسية.....121
- III- نظرة على مساهمة بعض دعاة الجامعة الإسلاميّة في الحركة الوطنيّة: .

- 1- دور الأمير شكيب ارسلان.....124
 - 2- تأثير الشّيخ سليمان البارونى.....128
- ## IV- الجامعة الإسلاميّة وبوادر النشاط السياسى في الجزائر:

- 1- حركة الشبان الجزائريّين والجامعة الإسلاميّة.....129
 - 2- نظرة على نشاط الأمير خالد الهاشمى.....131
- v- نماذج رائدة في الدفاع عن قضايا الإسلام و العروبة:

- 1- خوالدية صالح بن عمار.....135
- 2- الشّيخ أحمد توفيق المدني.....137

140.....	الفصل الرابع : رد فعل السّاطات الاستعماريّة
141.....	I-سياسة فرنسا الدّينية
141.....	1-فرض القيود على الحج
145.....	2-مراقبة الزوايا والطرق الصوفية
149.....	3-العمل على فصل الجزائر عن العالم الإسلامي
152.....	II- سياسة فرنسا في مواجهة نشاط الجامعة الإسلامية في الجزائر
153.....	1-محاولات الاحتواء
155.....	2-جهود التطويق والتنظيف
	III احتدام المواجهة بين فرنسا والجامعة الإسلامية بين 1914-1924 :
158.....	ا-فترة الحرب العالمية الأولى 1914-1918:
158.....	1-إعلان حالة الحصار
160.....	2-إعلان الحرب على تركيا
163.....	3-تشويه صورة الاتراك في اعين الجزائريين
165.....	4- العمل على توظيف رموز الدين الإسلامي
	ب-فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى 1918-1924:
168.....	-مواجهة الوطنية الناشئة
172.....	الخاتمة
174.....	الملاحق
175.....	1-رشيد رضا ، أوربا والإسلام، المنار المجلد10 الجزء 11 السنة 1908
176.....	2 -رسالة الأمير خالد إلى المؤتمر العربي في باريس
176.....	3-مقالة للأمير خالد في الإقدام
177.....	4-ابن باديس ومسألة إلغاء الخلافة الإسلامية، الشهاب
180.....	5-نص الفتوى الشريفة لخيري بن عون الاركوبي. 1914
181.....	6-ملمصقة حائطية دعائية خلال الحرب العالمية الأولى(نوفمبر 1915).
182.....	7-صور لشخصيات من الجامعة الإسلامية
183.....	المصادر والمراجع
193.....	الفهرس

